سيرة

صلاح الدين الأيوبي

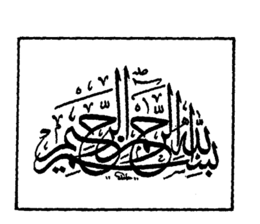
القاضي بهاء الدين شداد

دار القلم العربي





سيرة
صلاح الدّين الأيّوبي


بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة
صلاحِ الدّين الأيّوبي

تأليف القاضي

بهاءِ الدين بنِ شدّاد

تحقيقُ

الدكتور محُمد حُسني مصطفى

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بينَ يدي السِّيرة :

الحمد لله ربِّ العالمين ، و صلّى الله على نبيّنا محمد خاتم الأنبياء و المرسلين ، و سيّد الخلْق أجمعين ، و على آله و صحبه و مَنْ تَبِعَهُ إلى يوم يُبْعثون .

و بعد ، فهذه سيرةُ الملك النّاصر صلاح الدين : أبي المظفّر يوسف بن أيّوب (٥٣٢- ٥٨٩هـ) بطل حطّين ، و هي مكتوبة بقلم قاضي عسكره ، و مصاحبه في غزواته ـ بعض غزواته ـ : بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الموصلي ثم الحلبي ، المكنّى بأبي المحاسن ، و المشهور بابن شدّاد (٥٣٩-٦٣٢هـ) ، و هو قاضٍ فقيه محدّث مقرئ مؤرّخ ، ولد في الموصل ، و ماتَ أبوه و هو صغير ، فنشأ عند أخواله بني شدّاد ، و شدّاد جدّه لأمّه ، فنُسِبَ إليهم .

و قد أقبل منذ نعومة أظفاره على مجالس العلوم الدينية و الأدبية، و استظهر القرآن الكريم ، و كان من أشهر شيوخه الذين تتلمذ لهم يحيى ابن سعدون القرطبي ، حين قدم إلى الموصل ، و ابن الشيرجي "عبد الله ابن الخضر " و مجد الدين الطوسي " عبد الله بن أحمد " و القاضي الشهرزوري ، سعيد بن عبد الله ، و عبد الله بن محمد الأشيري الصّنْهاجي ، و سراج الدين الجيّاني ، قال ابن شدّاد : " فهذه أسماء مَنْ حضرَ في خاطري ، و قد سمعت من جماعة لم يحضرني رؤيتهم عند

جمع هذا الكتاب ، كشهْدة الكاتبة في بغداد ، و أبي الغيث في الحربية ، و الشيخ رضي الدين القزويني المدرّس بالنظامية ، و جماعة شذّتْ عنّي طرقهم ، إذْ كان في هؤلاء غُنْية " (١) .

و كانت المدرسة النِّظامية ببغداد تجتذب إليها قلوب العلماء ، فرحل إليها ، و عيّن فيها معيداً ، أي مدرّساً مساعداً لشيخها الأكبر (أستاذ المادّة ، أو أستاذ كرسيّ المادّة) ، و كان ذلك الشيخ الأكبر أو الأستاذ الأوّل آنئذ في المادّة التي كلّف بتدريسها ابن شدّاد " أحمد بن عبيد الله الشاشي " ، فكان ابن شدّاد يعاونه في التدريس ، و ظلّ على ذلك أربع سنين ، ثمّ عُزل الشاشي سنة ٥٦٩هـ ، و تولّى التدريس بعده أحمد بن إسماعيل القزويني ، فبقي ابن شدادّ مستمرّاً في عمله "معيداً" .

و عاد أبو المحاسن بعد ذلك إلى الموصل و صار مدرّساً في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين محمد الشَّهْرَزُوري .

ثمّ حجّ ابن شدّاد ، و سافر من ثَمَّ إلى بيت المقدس و الخليل ، وكانت أخبار الملك الناصر صلاح الدين حديثَ القاصي و الداني ، وكان بينهما من قبل تعارف و لقاءات ، و كان صلاح الدين لدى وصول ابن شدّاد يحاصر قلعة كوكب (٢) ، فعلم بمقدم ابن شدّاد ، فاستدعاه إليه ، وأكرمه ، و أخذ عنه جزءاً من الحديث فيه أذكار البخاري ، و جمع له ابن شدّاد كتاباً في فضائل الجهاد ، على نمط كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ ، و جعله ابن شدّاد في ثلاثين كرّاسة .

---

(١)ابن خلّكان : وَفَيات الأعيان (مكتبة النَّهْضة المصرية ١٩٤٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ٨٣/٦ . (٢) قرب طبريّة .

وقد ولاه صلاح الدّين قضاء العسكر ، و الحُكْم بالقدس الشريف ، وأسند إليه إدارة شؤون الأوقاف ، و كان قدومه على صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ .

و هكذا صار ابن شدّاد من كبار رجال صلاح الدين ، قاضياً فذّاً و حاكماً مستنيراً ، و عالماً مبجَّلاً ، يعمل و يدرّس و يحدّث ، في الشام و القدس و مصر ، و استمرّ على ذلك إلى أن توفّي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ ، و كان قاضِيْ عسكره حاضراً وفاته .

اتَّصل ابن شدّاد بعد ذلك بالملك الظاهر بن صلاح الدين ، صاحب حلب ، فأسند إليه قضاءها و أوقافها ، و صار عنده بمثابة الوزير و المستشار ، و أقطعه صاحب حلب أرضاً واسعة ، ففاضت أمواله ، إذ لم يكن له ذرّيّة ، فبنى مدرسة قُبالة مدرسة نور الدين محمود ابن زنكي ، و بنى بجوارها داراً للحديث ، و ترك بينهما تربة مسوّرة ، وأوصى أنْ يدفن فيها بعد موته .

و كان ابن خلّكان أحمد بن محمد (٦٠٨-٦٨١هـ) ــ صاحبُ وفيات الأعيان ــ أحد تلامذة ابن شدّاد في مدرسته المذكورة .

و بقي ابن شدّاد ذا شأن عند الملك العزيز بن الملك الظاهر ، الذي حكم بعده ، لكنّه لمّا تقدّم به العمر صار يركن إلى العُزْلة ، مكتفياً بتعليم مَن يقصده ، أو برواية الحديث في داره ، إلى أن لبّى نداء ربه سنة ٦٣٢هـ ، فدفن في التربة التي أعدّها لمدفنه ، كما أوصى .

ألّف ابن شدّاد سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمّاة بالنوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية ، و " دلائل الأحكام " من أحاديث النبيّ

عليه الصلاة و السّلام ، و " ملجأ الحكّام عند التباس الأحكام " في القضاء ، و فضل الجهاد ، و الموجز الباهر ، في الفقه ، و أسماء رجال المهذب للشيرازي .

و يحسُن التنبيه إلى أنّ اسم هذا العالم يلتبس أحياناً بعالم آخر اسمه ابن شدّاد أيضاً ، و هو أبو عبد الله محمد بن علي بن شدّاد الأنصاري الحلبي (٦١٣-٦٨٤هـ) صاحب كتاب الأعلاق الخطيرة في ملوك الشام و الجزيرة ، فترى مَنْ ينسبه إلى بهاء الدين بن شدّاد[١].

(١)انظر تحقيق يحيى عبّارة للجزء الثالث (القسم الأول) من كتاب الأعلاق الخطيرة ، نشرته وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٨ ص ١٤ و ما بعدها ، و فيه : " فالقاضي بهاء الدين بعد وفاة والده ، وولادته بالموصل ، انتقلت به أمّه إلى حلب للعيش مع أهلها و خاصتها من بني شدّاد في حلب ".
و انظر في ترجمة أبي المحاسن بهاء الدين بن شدّاد صاحب سيرة صلاح الدين : وفيات الأعيان ٨٣/٦ ، و البداية و النهاية ١٤٣/١٣ و طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٥١/٥ و النجوم الزاهرة ٢٩٢/٦ و غاية النهاية في طبقات القرّاء ٣٩٥/٢ و مرآة الجنان ٨٢/٤ و شذرات الذهب ١٥٨/٥ و إيضاح المكنون ٦٨١/٢ و كشف الظنون ١٢٥ و ١٠١٥ و ١٧٣٩ و ١٨١٦ و١٨٩٨

سيرة صلاح الدين الأيوبي

المعروفة باسم :

﴿ النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام ، و هدانا بالإيمان الجاري على أحسن نظام ، و أنعمَ علينا بشفاعة نبيّنا محمّد عليه أفضل الصَّلاة والسلام ، و جعل سير الأوّلين عِبْرةً لأولي الأفهام ، و تقلّبات الأحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام[١] ، كيلا يغترَّ ذو جمالٍ حسَنٍ ولا ييأس مَنْ لعبتْ بأحواله أكفّ السَّقام . و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفي القلوب من لظَى الأُوام[٢] ، و أشهد أنّ سيّدنا مُحمّداً عبده و رسوله الذي فتح للهداية أبواباً يَلِجُ المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد و الاستسلام . صلَّى الله عليه و على آله صلاةً دائمة ببقاء الأيّام.

و بَعْدُ ، فإني رأيتُ أيام مولانا السلطان ، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، و قامعِ عبدة الصُّلْبان ، رافع علم العَدْل و الإحسان ، صلاح الدنيا و الدّين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرميْنِ الشريفَيْنِ ، أبي المظفّر يوسف بن أيّوب ابن شاذي سقى الله ضريحه ثوب الرِّضْوان ، و أذاقه في مقرّ رحمته حلاوة نتيجة الإيمان . قد صدّقتْ[٣] من أخبار الأوّلين ما كذّبه الاستبعاد، و شهدت بالصِّحّة لما روى من نوادر الكَرمِ الأجوادُ ، وحقّقتْ وَقْعاتِ شجعاتِ مسالِكها ما قدَحتْ فيه الشّكوكُ من أخبار الشجعان ، و رأيت

(١)الانصرام : الانقطاع ، و الانبتات .

(٢)الأُوام : حرارة العطش . و اللَّظى : لهبُ النَّار الخالص ، لا دُخان فيه .

(٣)فاعل " صدّقت " يعود إلى كلمة " أيّام مولانا " .

بالعِيان[1] من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوِيَ بـــها الإيمـــان ، وعظُمتْ عجائبها عنْ أنْ يحيطَ بها خاطرٌ أو يُجنّها جَنـــان[2]، و جَلّــتْ نوادرُها أنْ تُحَدّ ببيان لسان ، أو أنْ تسطَّر في طِرْس ببنان ، و كانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤُها ، و لا يسعُ المطَّلعَ عليها إلا أنْ تُرْوَى عنه أخبارُها و أنباؤُها ، و مسّني مِـــنْ رِقّ[3] نِعْمتــها ، و حــقّ محبتها ، وواجبِ خدمتها ، ما يجبُ عليّ به إبداءُ ما حقّقْتُ مِنْ حســناتها، و روايةُ ما علمْتُ مِنْ محاسن صِفاتها ، (رأيت) أن أختصر مـــن ذلــك على ما أملاه عليَّ العيان ، أو الخبر الذي يقارب مظنونُه درجةَ الإيقان ، و ذلك جزءٌ من كلّ ، و قُلٌّ مِنْ جُلّ[4]، لِيُستَدَلّ بالقليل علـــى الكثـــير ، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير ، و سميت هـــذا مِـــنْ مختصـــر تاريخها ﴿ النوادر السلطانية ، والمحاسن اليُوسفية ﴾ [5] وجعلته قسمين، أحدهما في مولده رحمه الله و منشئه و خصائصه وأوصافـــه وأخلاقـــه المرضية ، و شمائله الراجحة في نظر الشرع الوفيّة ، و القسم الثاني في تقلبات الأحوال به ووقائعه و فتوحه ، و تواريخ ذلك أيّامَ حياته قـــدّس الله روحه ، و الله المستعانُ في الصّيانة عَنْ هفَوات اللّسان والقلم ، وجرَيـــان الخاطر بما فيه مزلة القدم ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(١)العيان (بكسر العين) و المعاينة : ما يراه المرء بعينه .

(٢)يُجنّها : يُخْفيها . و الجَنان من كل شيء : جوفه .

(٣)الرّقّ (بكسر الراء) الشيء الرقيق .(٤)قُلّ من جُلّ (بضمّ أوّلهما) : قليـــل مـــن كثـــير.

(٥)نسبة إلى يوسف بن أيّوب ، و هو اسم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، أبـــي المظفّـــر (٥٣٢-٥٨٩هـ) .

القسم الأول في ذكر مولده و خصائصه و أوصافه

﴿و شمائله و خِلاله رحمة الله عليه﴾

كان مولده رحمه الله تعالى على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة و ذلك بقلعة تكريت ، و كان والدُه أيّوب بن شاذي ــ رحمه الله تعالى ــ والياً بها و كان كريماً أرْيحيّاً[1] حليماً حسَن الأخلاق ، مولده بِدَوِين [2] ، ثم اتّفق له الانتقالُ من تكريتَ إلى المَوْصلِ المحروسة ، و انتقل ولدُه المذكورُ معه و أقامَ بها إلى أنْ ترعْرَعَ و كان والده محترماً هو و أخوه أسدُ الدين شِيركُوه عند أتابك زنكي[3]، و اتفق لوالده الانتقالُ إلى الشام ، و أُعطِي بعلبك ، وأقام

(١)الأريحيُّ : الواسع الخلق النشيط إلى المعروف يرتاح للندى . (٢) دَوين : "بفتح أوّله ، وكَسْرِ ثانيه ، و ياء مثنّاة من تحت ، ساكنة ، و آخرُه نون : بلدة من نواحي أرّان ، في آخر حدود أذربيجان ، بقرب من تفليس ، منها ملوك الشام بنو أيوب " { معجمَ البلدان لياقوت الحموي (دار صادر) ٢/٤٩١ } . (٣) الأتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، الملك الشهيد ، المعروف بعماد الدين زنكي ، تولّى مدينة واسط ، ثم الموصل ، والبصرة ، و تملك حلب ، وأجلى عنها الفرنجة ، وأدخل دمشق في طاعته ، واستعاد من الصليبيين حصن الأثارب ومدينة الرها (أورفا)، قُتل غدْراً سنة ٥٤١هـ ، قتله أحد مماليكه . ومعنى أتابك : المربّي ، إذ كان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وهو من سلاطين السلاجقة ، وكان عماد الدين زنكي تركياً من أصحاب ملكشاه بن ألب أرسلان ، كان السلطان محمود قد سلّم عمادَ الدين ولده "فرّخشاه" ليربيه ، و لهذا قيل له أتابك . ثم أطلق لقب أتابك على حكام "الأتابكة" في الموصل . إطلاقاً "رجْعياً" أي صار يطلق على مؤسسها آق سنقر والد عماد الدين ، ومؤسس هذه الدولة في الموصل .

بها مدة ، فنقل ولده المذكور إلى بعلبكّ المحروسة ، و أقام بها في خدمة والده[1] يتربّى تحت حجْره[2]، و يرتضع ثَدْيَ محاسن أخلاقه حتى بدتْ منه أمارات السّعادة ، و لاحت لوائح التقدّم و السيادة ، فقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي[3] رحمه الله تعالى و عوّل عليه ونظر إليه و قرّبه و خصّصه ، و لم يزلْ كلّما تقدّم قدماً تبدو منه أسبابٌ تقضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين[4] رحمه الله الحركة إلى مصر المحروسة و ذهابه إليها . و سيأتي ذكر بيان ذلك مفصّلاً مبيناً إن شاء الله تعالى

ذكر ما شهدناه من مواظبته على القواعد الدينية ﴿و ملاحظته للأمور الشرعية﴾

ورد في الحديث الصّحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: " بُني الإسلام على خمس : شهادة أنْ لا اله إلاّ الله و إقام الصلاة وإيتاء

(١)أيّوب بن شاذي بن مروان ، الملك الأفضل نجم الدين : والد صلاح الدين الأيّوبي ، وإليه نسبة الأيوبيّين ، ولي قلعة تكريت ، ثم بعلبكّ ، ثمّ خدم نور الدين محمود بن زنكي ، و لما تولّى صلاح الدين السلطنة أقطعه الإسكندرية و البحيرة إلى أن مات أيوب سنة ٥٦٨هـ .(٢)الحجر (مثلّثه : أي بضمّ الحاء و فتحها و كسرها) : حضْن الإنسان ، أي نشأ تحت رعايته و في كنفه.
(٣) محمود بن زنكي ، نور الدين ، أبو القاسم (٥١١-٥٦٩هـ) ملك الشام و ديار الجزيرة ومصر ، و الموصل ، و خُطب له بالحرمَيْن ، و هو الذي بنى الأسوار حول المدن في دمشق وحلب و حماة و حمص ، و بنى المدارس ، و كان يتمنّى أن يموت شهيداً ، فمات بالخوانيق ، فقيل له الشهيد . (٤) شيركوه بن شاذي ، أسد الدين ، أوّل من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين ، و هو عم صلاح الدين ، كان من كبار القوّاد في جيش نور الدين محمود بن زنكي ، و هو الذي وجهه إلى مصر ، فهزم الصليبين من بلبيس ، و تولّى فيها الوزارة . مات سنة ٥٦٤هـ .

الزكاة و صوم رمضان و الحج إلى بيت الله الحرام "[1] و كان ـ رحمة الله عليه ـ حسن العقيدة كثيرَ الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البَحْث مع مشايخ أهل العلم و أكابر الفقهاء ، و فهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً و إنْ لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامةُ عقيدته عن كدَرِ التشبيه[2] غير مارق سَهْم النظر إلى التَّعْطِيل[3] و التمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقةً لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء و كان قد جمع له الشيخ قطبُ الدين النيسابوري[4] عقيدةً

(١)أخرجه البخاري في الإيمان ، باب : أمور الإيمان ٨ بلفظ : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، و إقام الصَّلاة ، و إيتاء الزكاة ، والحجّ ، وصوم رمضان " و مسلم : الإيمان ، باب أركان الإسلام و دعائمه العظام ١٦ . كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما . (٢) " المشبّهة صنفان : صنف شبّهوا ذات الباري بذات غيره ، و صنف آخرون شبّهوا صفاته بصفات غيره .." [عبد القاهر البغدادي : الفَرق بين الفرق (القاهرة بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ٢٢٥] . ولابن قتيبة " كتاب الاختلاف في اللفظ و الردّ على الجهمية و المشبّهة " و نشر هذا الكتاب علي سامي النشار و عمار الطالبي في مجموعة "عقائد السلف" بالإسكندرية عام ١٣٩١هـ = ١٩٧١م . (٣) التَّعْطيل : عدم الأخذ بالنصّ ، وعدم الاعتقاد و العمل بمقتضاه ، و مثاله أنّ الجعد بن درهم " زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلّم موسى تكليماً " [خلق أفعال العباد للبخاري (مطبوع مع عقائد السلف) ١١٨] و كان جهم ابن صفوان " لا يصف الله بوصف يجوز إطلاقه على خلقه ، فلا يوصف الله بأنه شيء ، أو حيّ، أو عالم ، أو مريد ، لأن الإنسان يوصف بأنه شيء و حي .. [عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام (ط٣) ٢١٣] . (٤) مسعود بن محمد النيسابوري ، قطب الدين (٥٠٥-٥٧٨هـ) فقيه شافعي تعلم في نيسابور و مرو ، و دخل دمشق سنة ٥٤٠هـ ، ثم استقرّ بها ، واتَّصل بالسلطان صلاح الدينَ الأيوبي و صنَّف له "عقيدة" كان السلطان يقرئها أولاده الصّغار . و توفي بدمشق .

تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب . و كان من شدّة حِرْصه عليها يعلّمها للصغار من أولاده ، حتى ترسَخ في أذهانهم في الصغر ، و رأيته وهو يأخذها عليهم وهم يُلْقُونها من حِفْظِهم بين يديه .

(و أما الصلاة) فإنه كان رحمه الله تعالى شديدَ المواظبة عليها بالجملة ، حتى إنه ذكَرَ يوماً أنَّ له سنين ما صلَّى إلاَّ جماعة . و كان إنْ مرِضَ يستدعي الإمام وحده ، و يكلّف نفسه القيامَ و يصلّي جماعة . وكان يواظبُ على السُّنن الرَّواتب . و كان له صلواتٌ يصلّيها إذا استيقظ في الليل ، و إلاّ أتى بها قبل صلاة الصبح ، و لم يكن يتركُ الصلاة ما دام عقله عليه . و لقد رأيته قدَّس الله روحه يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، و ما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيَّب فيها ذهنه. و كان إذا أدركته الصلاة و هو سائرٌ نزلَ و صلَّى .

(و أما الزكاة) فإنّه ماتَ رحمه الله تعالى و لم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة (و أما صدقة النفل) فإنها استْرقت جميع ما ملكه من الأموال ، فإنّه ملك ما مَلَك و لم يخلّفْ في خزانته من الذهب و الفضة إلاَّ سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، و جرْماً واحداً ذهباً ، و لم يخلف ملكاً و لا داراً و لا عَقاراً و لا بستاناً و لا قرية و لا مزرعة و لا شيئاً من أنواع الأملاك .

(و أما صوم رمضان) فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراضٍ تواترتْ عليه في رمضانات متعددة ، و كان القاضي الفاضل قد تولّى ثَبْتَ تلك الأيام و شَرَع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها ، و قد واظب على الصوم مدَّة حتى بقيتْ

عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض و ملازمةُ الجهاد عن قضائـــها . ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم و أقدره علـــى ما قضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم و أنا أثبتُ الأيام التي يصومـها ، لأن القاضي كان غائباً ، و كان الطبيب يلومه و هو لا يسمع ، و يقـول: لا أعلم ما يكون فكأنه كانَ مُلهماً ما يراد به رحمه الله تعالى .

(و أما الحج) فإنه كان لم يزل عازماً عليه و ناوياً له ، سيَّما فـي العام الذي توفي فيه ، فإنه صمّم العزم عليه ، و أمر بالتأهب ، وعمِلْنـا الرفادةَ ، و لم يبق إلا المسيرُ فاعْتاقَ عن ذلك بسـبب ضيـق الوقـت ، وخلوّ اليد عما يليق بأمثاله ، فأخّر إلى العام المستقبل ، فقضـى الله مـا قضى ، و هذا شيء اشترك في العلم به الخاصّ و العام .

و كان رحمه الله تعالى يحبّ سماعَ القرآن العظيـم ، و يسـتجيد إمامَه ، و يشترط أن يكون عالماً بعلـم القرآن العظيم متقنـاً لحِفْظـه . وكان يستقرئ مَنْ يحرسه في الليل و هـو في برجه الجزأين و الثلاثـة والأربعة و هو يسمع . و كان يستقرئُ و هو في مجلسه العامّ مَنْ جـرتْ عادته بذلك الآية و العشرين و الزائدَ على ذلك . و لقـد اجتـازَ علـى صغير بين يدي أبيه و هو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقَرَّبه و جعل لـه حظّاً من خاص طعامه ووقف عليه و على أبيه جُزْءاً مِنْ مزرعة .وكـان رحمه الله تعالى خاشعَ القلب رقيقه غزير الدَّمْعة ، إذا سمع القرآن يخشعُ قلبه و تدمعُ عينه في معظم أوقاته .

و كان رحمه الله شديدَ الـرغبة فـي سمـاع الـحديث ، وامـقَ سَمْعٍ[1]

(١)وامق سمع : محبّاً لسماع (الحديث عن شيخ محدِّث متمكّن) .

عن شيخ ذي رواية عالية وسماعٍ كثير ، فإنْ كان ممــــن يحضــر عنــده استحضره و سمع عليه فأسمعَ مَنْ يحضره في ذلك المكـــان مِــنْ أولاده ومماليكه المختصّين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديــث إجلالاً له ، و إن كان ذلك الشيخ ممــــن لا يطــرق أبــوابَ الســلاطين ويتجافَى عن الحضور في مجالسهم سعَى إليه و سمِعَ عليه ، تردد إلــــى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية حرسها الله تعالى . و روَى عنه أحــاديث كثيرة .

و كان ــ رحمه الله تعالى ــ يحب أن يقرأ الحديث بنفسه و كــان يستحضرني في خلوته و يحضر شيئاً من كتب الحديث و يقرؤُها هو فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه و دمعت عينه .

و كان ــ رحمة الله عليه ــ كثيرَ التعظيم لشعائر الديــن ، يقــول ببعث الأجسام و نشورها و مجازاة المحسن بالجنَّة و المســيءِ بالنــار ، مصدقاً بجميع ما وردت به الشرائع ، منشرحاً بذلــك صــدره مبغضــاً، للفلاسفة والمعطّلة و مَنْ يعاند الشريعة . و لقد أمر ولده صاحبَ حلــب الملك الظاهر أعزّ الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيــل عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلاً ، و كان قد قبض عليه ولدُه المذكــور لمِا بلغه مِنْ خبره و عرّف السلطان به ، فأمر بقتله فطلبه أياماً فقتَله[1] .

(١)قال خير الدين الرركلي : " يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح ، شهاب الدّين السُّهْرورْدِيّ: فيلسوف واد فــي سهرورد (من قرى زنجان) و نشأ بمراغة ، و سافر إلى حلب ، فنُسب إلى انحلال العقيدة .. فأفتى العلمــاء بإباحــة دمه ، فسجنه الملك الظاهر غازي ، و خنقه في سجنه بقلعة حلب .. و كان رديء الهيئة زرِيّ الخلْقة ، لا يغسل لــه ثوباً و لا جسماً ، و لا يقصّ ظفراً و لا شعراً " [الأعلام (ط٤)٨/١٤٠] و بنحو ما قال الزركلي قال عمــر رضــا كحّالة فيْ معجم المؤلّفين ١٨٩/١٣.ولم يعشْ السهروردي المــذكور سوى ٣٨عاماً (٥٤٩-٥٨٧هــ) وثمّة متصـوّف مشهور بالسهروردي أيضاً .

و كان ــ قدس الله روحه ــ حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه . و لقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه ، و ذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة، و هو موضع قريب من القدس الشريف حرسها الله تعالى ، بينهما بعضُ مرحلة ، و كان السلطان بالقدس و قد [illegible] زكأ(١) على العدوّ محيطاً به ، و قد سير إليهم الجواسيس و المخبرين، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، و تركيب القنابل عليه و اشتدت مخافة المسلمين . فاستحضر الأمراء و عرّفهم ما قَدْ دَهَمَ المسلمين من الشدة و شاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنُها غيرُ ظاهرها ، و أصرَّ الجميع على أنه لا مصلحةَ في إقامته بنفسه فإنها مخاطرةٌ بالإسلام ، و ذكروا أنهم يقصدونهم . ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ ، كما أن الحال بعكا، و يكون هو و مَنْ معه بصدد مَنْع مِيرتهم(٢) و التضييق عليهم ، ويكونون هم بِصَدَدِ حفظ البلد و الدَّفْع عنه. و انفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مُصِرٌّ على أنْ يقيمَ بنفسه ، عِلْماً منه أنه لمْ يقمْ أحد ، فلماّ انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء مِنْ عندهم مَنْ أخبر أنهم لا يقيمون إلا أنْ يُقيم أخوه الملك العادل ، أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم ، والذي يأتمرون بأمره . فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامَةِ ، وضاق صدرُه و تقسَّم فِكْرُه ، و اشتدّتْ فكرتُه .

و لقد جلسْتُ في خدمته في تلك الليلة ، و كانت ليلةَ الجمعة ، مِنْ أول الليل إلى أنْ قارب الصبحُ، و كان الزمانُ شتاءً و ليس معنا ثالث

---

(١)" زكأه ، كمنَعَه : ضربَه "[القاموس المحيط (زكأه)].(٢)الميرة : الطعام يجمع للسفر ونحوه.

إلاّ الله تعالى ، و نحن نقسم أقساماً و نرتّب على كل قِسْم بمقتضاه ، حتى أخذني الإشفاقُ عليه و الخوفُ على مِزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس، فشفعتُ إليه حتى يأخذَ مضجعَه لعلّه ينام ساعة ، فقال رحمه الله : لعلك جاءك النوم ثم نهض .

فما وصلتُ إلى بيتي و أخذتُ لبعض شأني إلا و أذَّن المؤذّن وطلع الصبح ، و كنت أصلّي معه الصبحَ في معظم الأوقات فدخلتُ عليه و هو يُمِرّ الماء على أطرافه ، فقال: ما أخذني النَّوْمُ أصلاً . فقلت : قد علمتُ . فقال : مِنْ أين ؟ فقلت : لأني ما نِمْتُ و ما بَقِيَ وقتٌ للنوم .

ثم اشتغلنا بالصلاة و جلسنا على ما كنا عليه فقلتُ له : وقَعَ لي واقعٌ و أظنّه مفيداً إن شاء الله تعالى . فقال : و ما هو ؟ فقلتُ له : الإخلادُ إلى الله تعالى و الإنابةُ إليه ، و الاعتماد في كشْفِ هذه الغُمّة عليه . فقال : وكيفَ نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعةُ يغتسل المولى عند الرَّواح و يصلّي على العادة بالأقصى موضعَ مَسْرَى النبيِّ صلى الله عليه و سلم ، ويُقدِّم المولى التصدُّقَ بشيء خُفْيَةً على يد مَنْ يثِقُ به ، ويصلّي المولى ركعتين بينَ الأذان و الإقامة و يدعو اللهَ في سُجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح و تقول في باطنِك : " إلهي قد انقطعتْ أسبابي الأرضيّةُ في نُصرةِ دينِك و لم يبقَ إلاّ الإخلادُ إليك و الاعتصامُ بحبلِك والاعتمادُ على فضلك ، أنت حسبي و نعم الوكيل " . فإنّ اللهَ أكْرَمُ مِنْ أنْ يُخيِّبَ قصدك .

ففعل ذلك كلَّه ، و صلَّيْتُ إلى جانبه على العادة و صلَّى الركعتين بين الأذان و الإقامة، و رأيته ساجداً و دموعُه تتقاطر على شَيْبَتِه ، ثم

على سجّادته ، و لا أسمعُ ما يقول ، فلم يَنْقضِ ذلك اليومُ حتى وصلَتْ رقعة مِنْ عزّ الدين جرديك ، و كان على اليزك ، يخبر فيها أنّ الإفرنج مختبطون ، و قد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم ، و في بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك .

ووصَل في أثناء النهار جاسوسٌ أخبر أنّهم اختلفوا ، فذهبت الفرنسيسةُ إلى أنهم لا بدَّ لهم من محاصرة القدس ، وذهب الانكتارُ وأتباعُه إلى أنّه لا يخاطر بدين النّصرانية و يرميهم في الجبل مع عدم المياه ، فإن السلطان كان قد أفسد جميعَ ما حول القُدْس من المياه ، وأنّهم خرجوا للمشورة ، و من عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، و أنهم قد نصّوا على عشرة أنفس منهم و حكّموهم ، فأيّ شيء أشاروا به لا يخالفونهم .

و لما كانت بُكرةُ الاثنين جاء المبشّر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة، فهذا ما شاهدْتُه من آثار استنباطه و إخلاده إلى الله تعالى، رحمه الله .

﴿ذكر عدله رحمه الله تعالى﴾

روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم : " قال الوالي العادلُ ظِلُّ الله في أرضه ، فمن نصحه في نفسه أو عباده أظلَّه الله تحتَ عرشه يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه ، و مَنْ خانه في نفسه أو

في عباد الله خذَله اللهُ يومَ القيامةِ . يُرْفَعُ للوالي العادل في كلِّ يوم عملُ ستينَ صدّيقاً كلُّهم عابد مجتهدٌ لنفسه " (١) .

و لقد كان رحمه الله عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي ، و كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين و خميس في مجلس عامّ يحضره الفقهاءُ و القضاة و العلماء ، و يفتح البابَ للمتحاكِمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير و صغير و عجوز هرِمة و شيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفَراً و حضراً . على أنّه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يُعْرَض عليه من القِصَص[٢] في كل يوم ، و يفتح باب العدل، و لمْ يَرُدَّ قاصداً للحوادث و الحكومات[٣] .

و كان يجلس مع الكاتب ساعةً إمّا في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصّة بما يُجريه الله على قلبه و لم يردّ قاصداً أبداً و لا منتحلاً و لا طالبَ حاجة ، و هو مع ذلك دائم الذِّكْرِ و المواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . و لقد كان رؤوفاً بالرعية ناصراً للدّين ، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز ، عالماً بما فيه عاملاً به ، لا يَعْدُوه[٤] أبداً رحمة الله

---

(١)ضعيف . رواه ابن شاهين و الأصبهاني معاً في الترغيب ، و لفظه : " الوالي العادل ظلّ الله ورمحه في الأرض، فمن نصحه في نفسه و في عباد الله أظلّه الله في ظِلّه ، و منْ غشّه في نفسه و في عباد الله خذله الله يوم القيامة " [كنز العمال (مؤسسة الرسالة) ١٤٦٢٠] وأخرجه ابن أبي حاتم في علل الحديث (المطبعة السلفية) ٢٧٨٨ . ورواه أبو الشيخ بلفظ :" السلطان العادل المتواضع ظلّ الله ورمحه في الأرض ، و يرفع للوالي العادل المتواضع في كلّ يوم و ليلة عملُ ستّين صدّيقاً ، كلّهم عابد مجتهد " كنز ١٤٦١٥ .وتاريخ جرجان للسهمي ٧٠. وأشار إلى الروايتين محمد السعيد زغلول في موسوعة أطراف الحديث الشريف (ط١) في حرف الواو (٢)القصص : الرقع الورقية أو الأوراق التي تعرض فيها الشكاوى ، و ترفع إلى السلطان. (٣)أي لم يردّ أحداً أتاه ليعرض عليه حادثة جرتْ معه هي في حاجة إلى حلّ ، أو ليتحاكم لديه في خصومة . (٤) لا يعدوه : لا يتجاوزه .

عليه . و ما استغاث إليه أحدٌ إلا وقف و سمِعَ قضيّته ، و كشف ظُلامته، و اعتنى بقصته . و لقد رأيتُه واستغاثَ إليه إنسان من أهل دمشق ، يقال له "ابن زهير" على تقيّ الدين ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، و كان تقي الدين منْ أعز الناس عليه و أعظمهم عنده ، و لكنه لم يحابهِ في الحقّ . (١)

و أعظمُ مِنْ هذه الحكاية ممّا يدلّ على عدْله قضيةٌ جرَتْ له مع إنسان تاجر يُدْعى عمر الخلاّطي ، و ذلك أني كنت يوماً في مجلس الحُكْم بالقدس الشريف ، إذ دخل عليَّ شيخٌ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي ، معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته: مَنْ خصمك ؟ قال خصمي السلطانُ ، و هذا بساط العدل ، و قد سمعنا أنّك لا تحابي. قلت : وفي أيّ قضية هو خصمُك ؟ فقال : إن سنقر الخلاطي كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي إلى أن مات، و كان في يده أموال عظيمة كلُّها لي ، ومات عنها و استولى عليها السلطانُ و أنا مطالبه بها . فقلتُ له: يا شيخُ و ما أقعدَكَ إلى هذه الغاية ؟ فقال : الحقوقُ لا تبطلُ بالتأخير ، و هذا الكتاب الحُكْمي ينطِقُ بأنّه لم يزلْ في مُلكي إلى أنْ مات . فأخذتُ الكتاب منه و تصفّحْتُ مضمونه فوجدتُه يتضمّن حلية سنقر الخلاطي ، و أنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلانيّ من كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا ، و ما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجهٍ ما ، و تم الشرط إلى آخره .

(١) [illegible] صلاح الدين للمواطن ابن زهير من تقي الدين (ابن أخ صلاح الدين) و لم [illegible] .

فتعجبتُ من هذه القضية ، و قلت للرجل : لا ينبغي سماعُ هذا بلا وجود الخصم ، وأنا أعرّفه و أعرّفك ما عنده . فرضِيَ الرّجُلُ بذلــك ، واندفع . فلما اتّفق المثولُ بينَ يديه في بقيّة ذلك اليوم عرّفتــه القضيــة فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً ، و قال : كنتَ نظرْتَ في الكتاب ؟ فقلـت : نظرتُ فيه و رأيته متَّصلَ الورود و القَبُول إلى دمشق ، و قد كتب عليـه كتاب حكمي من دمشق و شَهِدَ به على يد قاضي دمشق شهود معروفون، فقال مبارك نحن نُحضر الرجل و نحكمه و نعمل في القضية ما يقتضيـه الشرع .

ثم اتّفق بعد ذلك جلوسُه معي خلوةً فقلت له: هذا الخصـم يـتردّد ولا بدّ أنْ تسمعَ دعواه فقال: أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتَهم ، و أخِّرْ فتحَ الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنـا . ففعلـتُ ذلك .

ثم أُحضر الرجل و استدناه حتى جلس بين يديهِ ، و كنــتُ إلـى جانبه ، ثم نزل من طَرّاحته حتى ساواه ، و قال: إنْ كان لــك دعـوى فاذكرْها . فحرّر الرجل الدعوى على معنى مـا شـرح أوّلاً ، فأجابـه السلطان أنّ سنقر هذا كان مملوكي ، و لم يزل على ملكي حتى أعتقتـه ، و توفي و خلّف ما خلفه لورثته . فقال الرجل : لـي بينـة تشـهد بمـا ادعيتُه، ثم سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه . فلما سمع السلطان التاريخ قال: عندي مَنْ يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان في ملكـي ، وفي يدي بمصر ، و أني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم علـى هذا التاريخ بسنة ، و أنه لم يزل في يدي و ملكي إلى أنْ أعتقتـهُ . ثـم

استحضر جماعةً من أعيان الأمراء و المجاهدين فشهدوا بذلك ، و ذكروا القصة كما ذكرها ، والتاريخ كما ادعاه فأُبلس الرجلُ . فقلت لـــه : يـــا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان ، و قد حضـــر بين يدي المولى ، و لا يحسن أن يرجع خائباً للقصد . فقال : هذا بـــاب آخر . و تقدم له بخلعة ونفقة بالغةٍ قد شذَّ عني مقدارها . فانظرْ إلى مـــا في طيّ هذه القضية من المعاني الغربية العجيبة ، و التواضع و الانقيـــاد إلى الحق ، و إرغام النفس ، و الكرم في موضع المؤاخذة مـــع القُـــدْرة التامة رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

﴿ذكْرُ طَرفٍ من كرمه رحمه الله﴾

قال صلى الله عليه وسلم : "إذا عثر الكريم فإنّ الله آخذ بيده" وفي الكرم أحاديث[1] . و كرمه قدّس الله روحه كان أظهرَ مِنْ أنْ يســـطر . وأشهرَ من أن يذكر ، لكن نبّهتُ عليه جملة . و ذلك أنه ملك مـــا ملـــك ومات و لم يوجد في خزانته من الفضة إلا ســـبعة و أربعـــون درهمـــاً ناصرية ، و من الذهب إلا جرْمٌ واحد صُوري ما علمتُ وزنـــه و كـــان رحمه الله يهب الأقاليم ، و فتح آمِدَ[2]، و طلبها منه ابن قـــرّة أرســـلان فأعطاه إياها .

و رأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف ، و كـــان

(١)قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، و الصدقة خفية تطفـــئ غضب الربّ ، و صلة الرحم زيادة في العمر .." الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط كما فـــي كـــنز العمال ١٥٩٦٦ وهو عن أمّ سلمة رضي الله عنها . (٢) آمد : مدينة في ديار بكر، على نهر دجلة .

قد عزم على التوجُّه إلى دمشق ، و لم يكنْ في الخزانة ما يُعْطِي الوفود، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، و فضضنا ثمنَها عليهم ، و لم يفضُلْ منه درهم واحد .

و كان رحمه الله يعطي في وقت الضيِّق كما يعطي في حال السَّعة . و كان نواب خزائنه يُخفون عنه شيئاً من المال حذَراً أنْ يفاجئهم مُهِمّ ، لعلمهم بأنّه متى علم به أخرجَه . و سمعتُه يقول في معرض حديثٍ جرى : يُمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه رحمة الله تعالى .

و كان يُعطِي فوقَ ما يؤمّل الطالب فما سمعته قط يقول: أعطينا لفلان . و كان يُعطِي الكثيرَ و يبسط وجهه للعطاء بسْطَه لمن لم يعطه شيئاً . و كان رحمه الله يُعطِي و يكرم أكثرَ مما يُعطَي ، و كان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كلّ وقت و ما سمعْتُه قطّ يقول: قد زدْت مراراً فكم أزيد ؟

و أكثر الرسائل كانتْ تكون في ذلك على لساني و يدِي ، وكنت أخجلُ من كثرة ما يطلبون ، و لا أخجل منه من كثرة ما أطلبُه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته ذلك و ما خدمه أحد إلا و أغناه عن سؤال غيره .

و أما تعداد عطاياه و تعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً ، و قد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي : قد تجارَيْنا عطاياه فحصرْنا عددَ ما وهب من الخيل بمرج عكّا فكان عشرة آلاف فرس . و مَنْ شاهَدَ مواهبه يستقلّ هذا القدر . اللهم إنك ألهمتَه الكرم و أنت أكرم منه فتكرم عليه برحمتك و رضوانك يا أرحم الراحمين .

﴿ذكر شجاعته قدّس اللهُ روحه﴾

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "إن الله يحبّ الشجاعة[1] و لو على قتل حيّة " و لقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قويَّ النفس شديدَ البأس عظيمَ الثبات لا يهولُه أمرٌ و لقد رأيتُهُ يُعْطِي دستوراً في أوائل الشتاء ، و يبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير ، و قد سألت باليان بن بارزان و هو من كبار ملوك الساحل و هو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصُّلح عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه : إنّه يقول : كنت أنا و صاحب صيدا ــ و كان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم ــ قاصدَيْنِ عسكرَنا مِنْ صُور فلما أشْرفْنا عليه تحازرْناه فحزرهم هو خمسمئة ألف و حزرتُهم أنا بستمئة ألف . أو قال عكس ذلك ، قلت: فكم هلكَ منهم ؟ فقال أما بالقتل فقريبٌ من مائة ألف ، و أما بالموت و الغرق فلا نعلم ، و ما رجع من هذا العالم إلا الأقل .

و كان لا بدّ له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرة أو مرتين ، إذا كنا قريباً منهم . و لقد وصل في ليلة واحدة منهم نيّفٌ وسبعون مركباً على عكّا ، و أنا أعدُّها مِنْ بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، و هو لا يزداد إلاّ قوة نفس .

و كان رحمه الله تعالى إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفّيْن ومعه

---

(١)قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا ٤٤ .

صبيٌّ واحد على يده جنيب[1]، و يخرق العساكر من الميمنة إلى الميسـرة و يرتب الأطلاب ، و يأمرهم بالتقدّم و الوقوف في مواضـع يراهـا ، وكان يشارفُ العدو و يجاوره رحمه الله . و لقد قرئ عليه جـزآن مـن الحديث بين الصفَّيْن ، و ذلك أني قلتُ له: قد سُمِع الحديثُ فـي جميـع المواطنِ الشّريفة ، و لم يُنْقل أنه سُمِع بين الصفين فإن رأى المولـى أنْ يُؤْثَرَ عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر جزأه كما أحضر مَنْ لـه به سماع ، فقرأ عـليه ، و نحن على ظهور الدوابّ بين الصفّين نمشـي تارةً و نقفُ أُخرى .

و ما رأيته استكثر العدو أصلاً و لا استعظم أمرَهم قطّ ، و كـان مع ذلك في حال الفِكْر والتدبير ، تُذْكر بين يديه الأقسامُ كلّهـا و يُرتِّـب على كل قسم بمقتضاه مِنْ غيرِ حدة و لا غضب يعتريه . و لقد انـهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا ، حتى القلـب و رجالـه ، ووقع الكوُس و العَلَم و هو ــ رضي الله عنه ــ ثابتُ القـدم فـي نَفَـر يسير، حتى انحاز إلى الجبل يجمع النـاس و يردّهـم ويخجلـهم حتـى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نُصِرَ عسكر المسلمين على العدو في ذلـك اليوم ، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل و فارس . و لم يـزل ــ رحمه الله ــ مصابراً لهم و هم في العدّة الوافرة إلـى أن ظـهر لـه ضعف المسلمين، فصالح و هو مسؤول من جانبـهم ، فـإن الضعـف والهلاك كان فيهم أكثر، و لكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها ،

---

(١)جنيب : طائع منقاد . و في بعض النسخ : جنيبة . لعلّه كان يصطحب معه أحد أبنائه ليكـون مرافقه الخاصّ ، و ليدرّبه على القيادة العسكرية .

و كانت الصلحة في الصلح ، و ظهر ذلك لما أبدت الأقضيـــــة الإلهيـــة والأقدار ما في مكنونها . و كـــان ـــ رحمـــه الله ـــ يمــرض و يصـــحّ ويعتريه أحوالٌ مَهُولة و هو مصابر مرابط ، و تتراءى الناران و نســمع منهم صوت الناقوس و يسمعون منا صوت الأذان ، إلـــى أن انقطعــت الوقعة على أحسن حال و أيسره ، قدس الله روحه و نوّر ضريحه .

﴿ذكر اهتمامه بأمر الجهاد﴾

قال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلَنا و إن الله لمـــع المحسنين)[1] و نصوصُ الجهاد كثيرة . و لقد كان ــ رحمه اللهُ ــ شــديدَ المواظبةِ عليه عظيمَ الاهتمام به ، و لو حلف حالف أنه ما أنفـــق بعــدَ خروجه إلى الجهاد ديناراً و لا درهماً إلاّ في الجـــهاد أو فـــي الإرفـــاد لصدق و برّ في يمينه . و لقد كان حبّه للجهاد ، و الشـــغفُ بـــه ، قـــد استولى على قلبه و سائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه و لا نظر إلاّ في آلته ، و لا كان له اهتمام إلا برجاله و لا ميـــل إلاّ إلى مِنْ يذكره و يحثّ عليه . و لقد هجر في محبة الجهاد في ســـبيل الله أهله و أولاده ووطنه و سكنه و سائرَ بــــلاده ، و قنـــع مـــن الدنيـــا بالسكون في ظل خَيْمة تهبّ بها الرياحُ ميمنةً و ميسرة . و لقـــد وقعــتْ عليه الخيمة في ليلة رِيحية على مرْج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلتــه، و لا يزيده ذلك إلا رغبة و مصابرة و اهتماماً . و كان الرجـــل إذا أراد أنْ يتقرب إليه يحثّه عـــلى الجهاد ، و أنا مَّمنْ جمعَ له فيه كتاباً ، جمعتُ

(١)سورة العنكبوت ٦٩ .

فيه آدابه و كلّ آية وَرَدتْ فيه ، و كل حديثٍ رُوِي في فضله ، وشـروحتُ غريبها . و كان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولـده الملـك الأفضل عزّ نصرُه . و لأحكينَّ عنه ما سمعتُ منه ، و ذلك أنه كان قـد أخذَ كوكبَ في ذي القعدة سنة أربع و ثمانين و خمسـمائة ، و أعطَـى العسكرَ دستوراً[١] و أخذ عسكرُ مِصْرَ في العَوْدِ إلى مصـر ، و كـان مقدّمها أخاه الملك العادل عزّ نصره ، فسار معه ليودّعـه ، و يحظـى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى و سِرْنا فـي خدمتـه ، ولما صلّى العيدَ في القدس وقع له أن يمضي إلى عسـقّلان و يُودّعـهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل ، يتفقد البلاد الساحلية إلى عكـا ، و يرتب أحوالها ، فأشاروا عليه أنْ لا يفعل فإن العساكر إذا فارقتْنا نبقـى في عُدّة يسيرة ، و الفرنج كلهم بصور ، و هذه مخاطرة عظيمـة ، فلـم يلتفتْ رحمه الله وودّع أخاه ، و العسكر بعسقلان ، ثم سِرْنا في خدمتـه إلى الساحل طالبين عكا ، و كان الزمان شتاء و البحـر هائجـاً شـديداً وموجه كالجبال كما قال تعالى ، و كنتُ حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيّل لي أني لو قال لي إنْ جُزْتَ في البحر ميـلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنتُ أفعل ، و استسخفتُ رأيَ مَنْ ركـب البحـر رجاءَ دينار أو درهم ، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحـرٍ . هذا كله خطر لي لِعِظَمِ الهول الذي شاهدته من حركة البحر .

فبينا أنا فـي ذلك إذ التفتَ إليّ رحمه الله ، و قال: أما أحكي لك شيئاً في نفسي ؟ إنّه متى ما يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد

(١)الدستور : الإجازة .

و أوصيت وودّعت و ركبت هذا البحر إلى جزائره ، و اتبعتهم فيها حتى لا أُبقيَ على وجه الأرض مَنْ يكفر بالله أو أموتَ . فعظُم وقعُ هذا الكلام عندي، حيث ناقض ما كان خطَرَ لي ، و قلت له: ليس في الأرض أشجعُ نفساً من المولى ، و لا أقوى منه نيةً في نصرة دين الله تعالى . فقـــال : فكيف؟ فقلت: أما الشجاعةُ فلأنّ مولانا ما يهولُه أمْر هذا البحر وَ هَوْلُه . و أمّا نصرةُ دين الله فهو أنّ المولى ما يقنع بقلع أعداء الله مِنْ موضـــــع مخصوص في الأرض حتى يُطهّرَ جميعَ الأرض منهم ، و اســـتأذنتُ أنْ أحكيَ له ما كان خطر لي ، فحكيْتُ له .

ثمّ قلتُ: ما هذه إلاّ نيّةٌ جميلة ، ولكن المولى يسيرَ فـــي البحـــر العساكرَ ، و هو سورُ الإسلام و منَعتُه ، فلا ينبغي له أنْ يخاطر بنفسه . فقال: أنا أستفتيك : ما أشرفُ الميتتيْنِ ؟ فقلت: الموتُ فـــي ســـبيل الله. فقال: غايةُ ما في الباب أنْ أموتَ أشرفَ الميتتين .

فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرَها . و إلى هذه النفس ما أشـــجَعها و أجرأَها ! رحمةُ الله عليه ، اللهم إنّك تعلم أنّه بذَلَ جهدَه فـــي نُصْـــرة دينك و جاهدَ رجاءَ رحمتِك فارحمْه .

﴿صبره و احتسابه رحمة الله عليه﴾

قال سبحانه و تعالى : (ثم جاهدوا و صبروا إنّ ربّك من بعدهـــا لغفور رحيم)[١] و لـــقد رأيته ـــ رحمه الله ـــ بمرج عكا و هو على غاية

(١)النحل ١١٠ .

من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميلَ كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوسَ ، و إنّما يكون منكباً على جانبه ، إنْ كان بالخيمة ، و امتنع من مدّ الطعام بين يدَيْه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرّق على الناس ، و كان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، و قد رتب الناس ميمنة و ميسرة و قلباً تعبيةً القتال ، وكان مع ذلك كلّه يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب صابراً على شدة الألم و قوّة ضرَبان[١] الدمامل ، و أنا أتعجب من ذلك فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمُها حتى أنزل . و هذه عناية ربانية .

و لقد مرض رحمه الله و نحن على "الخرنوبة" و كان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الإفرنج فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين و هي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل فأمر رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل و التأخر عن جهة الناصرة . وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً ، فأذن له أن يتأخر مع الثقل، و أقام هو ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلُبنا ، فركب على مضض ، و رتب العسكر للقاء القوم تعبيةَ الحرب ، و جعل طرف الميمنة الملك العادل ، و طرف الميسرة تقي الدين ، و جعل ولده الملك الظاهر و الملك الأفضل عزّ نصرهما في القلب ، و نزل هو وراء القوم يطلبهم .

(١)ضرَب الشيءُ يضرِبُ ضَرْباً و ضرَباناً : تحرّك . و ضربت الدمامل : اشتدّ وجعها .

و أوّل ما نزل من التل أُحضرَ بين يديه إفرنجيّاً قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الإسلام عليه و إبائـــه عنـــه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستدبراً إلى ورائـــهم حتـــى يقطع بينهم و بين خيامهم ، و هو يسير ساعة ثم ينزل يستريح و يتظلـــل بمنديلٍ على رأسه من شدة وَقْع الشمس ، و لا ينصب له خيمةً حتـــى لا يرى العدوُّ ضعفاً ، و لم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، و نزل هو قُبالَتهم على تل مُطلٍّ عليهم ، إلى أنْ دخل الليل ، ثم أمـــر العســـاكر المنصورة إن عادت إلى محلّ بالمصابرة ، و أن يبيتوا تحـــت الســـلاح وتأخّر هو ، و نحن في خدمته ، إلى قمة الجبل .

فضربت له خيمةٌ لطيفة و بتنا تلك الليلة أجمع أنـــا و الطبيـــب نمرضه و نشاغله و هو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ثـــم ضرب البوق و ركبَ وركبت العساكر و أحدقت بالعدو و رحـــل العـــدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر و ضايقهم المسلمون فـــي ذلك اليوم مضايقةً شنيعة . و في ذلك اليوم قدم أولادُه بين يديه احتســـاباً وجميع من حضر منهم و لم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا و الطبيب وعارض الجيش و الغلمان بأيديهم الأعلام و البيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بُعد أن تحتها خلقاً عظيماً ، و لم يزل العدو ســـائراً والقتل يعمل فيهم و كلما قُتل منهم شخص دفنوه و كلما جُرح منهم رجـــل حملُوه، حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله و جرحه ، و هم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتدّ بهم الأمر و نزلوا عند الجسر ، و كان الإفرنج متـــى

نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم ، لأنهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة .

و بقي رحمه الله في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قُبالة العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارِحَتَهم ، و عُدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية ، وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس ، من مضايقة العدو ، ورحل العدو وسار على ما مضى من القتل و القتال حتى دنا إلى خيامه و خرج إليه منها مَنْ أَنْجَدَهُ حتى وصلوا إلى خيامهم.

فانظر إلى هذا الصبر و الاحتساب و إلى أيّ غاية بلغ هذا الرجل. اللهم إنك ألهمته الصبر و الاحتساب ووفقته له فلا تحرمْه ثوابَه يا أرحم الراحمين .

و لقد رأيته ــ رحمه الله تعالى ــ و قد جاءه خبرُ وفاة ولدٍ له بالغٍ يسمى إسماعيل ، فوقف على الكتاب و لم يعرّف أحداً و لم نعرف حتى سمعناه من غيره ، و لم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعتْ عيناه .

و لقد رأيته ليلةً على صفد ، و هو يحاصرها ، و قد قال لا ننامُ الليلة حتى تنصب لنا خمسة مجانيق ، و رتّب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه ، و كنا طول الليل في خدمته ــ قدس الله روحه ــ في ألذّ مفاكهةٍ وأرغد عيش ، و الرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا و من المنجنيق الفلاني ، حتى أتى الصباح و قد فرغ منها

ولم يبق إلا تركيب جنازيرها عليها و كانت من أطول الليالي و أشـــــدها برداً و مطراً .

و رأيته و قد وصل إليه خبر وفاة تقيّ الدين ابن أخيه و نحنُ فــي مقابلة الإفرنج جريدة على الرملة ، و بيننا و بينهم شوط فرس لا غــير ، فأحضر الملك العادل و علم الدين سليمان و سابق الدين و عـــز الديــن وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحـــد زيـــادة عن غلوة سهم ، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه و بكى بكاء شـــديداً حتـــى أبكانا ، من غير أن نعلم السبب ثم قال رحمه الله و العبرة تخنقه : توفــي تقي الدين . فاشتد بكاؤه و بكاء الجماعة ، ثم عُدْتُ إلى نفســـي فقلـــت : استغفروا الله تعالى من هذه الحالة و انظروا أين و فيم أنتم ؟ و أعرضوا عما سواه فقال رحمه الله : نعم ، أستغفر الله ، و أخذ يكررها ثم قال : لا يعلم أحد و استدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعــــام وحضر الناس و لم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدوّ إلى يافا ، و عدنا نحــن إلى النطرون و هو مقرّ ثقلنا .

و كان رحمه الله شديد الشغف و الشفقة بأولاده الصغـــار و هـــو صابر على مفارقتهم راضٍ ببعدهم عنه ، و كان صابراً على مُرِّ العيــش و خشونته ، مع القدرة التامّة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى . اللــــهمّ إنه تَرك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارضَ عنه و ارحمْه .

﴿ذكر نبذ من حلمه و عفوه رحمه الله﴾

قال الله سبحانه و تعالى : (والعـافين عـن النـاس و الله يحـب المحسنين)[1] لقد كان متجاوزا قليل الغضب ، و لقد كنت في خدمته فـي برج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا ــ يسر الله فتحها ــ و كان مـن عادته أن يركب في وقت الركوب ، ثم ينزل فيمد الطعام و يـأكل مـع الناس ، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ، ينام فيها ثم يستيقظ من منامـه ويصلي ويجلس خلوة و أنا في خدمته نقرأ شيئا من الحديث أو شيئا مـن الفقه . ولقد قرأ علي كتابا مختصرا ، تصنيف الرازي ، يشـتمل علـى الأرباع الأربعة من الفقه ، و نزل يوما على عادته و مد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعـاد إلـى الجلوس وقال نصلي و ننام . ثم جلس يتحدث حديث متضجر و قد أخلـى المكان إلا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال لـه : أنا الآن ضجران أخرها سـاعة . فلم يفعل، و قدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده و فتحها بحيـث يقرؤها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها ، فعرفه فقـال : رجـل مستحق فقال: يوقع المولى له . فقال : ليست الدواة حاضرة الآن ، وكان ــ رحمه الله ــ جالسا في باب الخركاه ، بحيث لا يستطيع أحد الدخـول إليها و الدواة في صدرها و الخركاه كبيرة ، فقال له المخـاطب : هـذه الدواة في صدر الخركاه ، و ليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة

(١)سورة آل عمران ١٣٤ .

لا غير ، فالتفت رحمه الله فرأى الدواةَ فقال : والله لقد صدق ثـــم امتـد على يده اليسرى ومدّ يده اليمنى فأحضرها ، ووقّع له . فقلت : قـــال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : (و إنك لعلى خلـــق عظيـــم)[١] وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخُلق . فقال ما ضرَّنـــا شـــيئاً ، قضينا حاجتَه و حصل الثواب . و لو وقَعتْ هذه الواقعةُ لآحـــاد النـــاس وأفرادهم لقام و قعد ، ومَنِ الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمـــه بمثل ذلك ؟ و هذا غاية الإحسان و الحلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين.

و لقد كانت طراحته تُدَاسُ عند التَّزاحم عليه لعرض القصـــص ، وهو لا يتأثر لذلك ، و لقد نفرَتْ يوماً بغلتي من الجِمال ، وأنا راكب في خدمته فزحمت ورِكَه حتى آلمَته و هو يتبسّم رحمه الله . و لقـــد دخلـــتُ بيـــن يديه فـــي يـــوم ريحٍ مَطِير إلى القدس الشريف و هو كثير الوحـــل فنضَحت البغلة عليه من الطِّين ، حتى أتلفت جميع ما كان عليه ، و هـــو يتبسم و أردتُ التأخّر عنه بسبب ذلك فما تركني .

و لقد كان يسمع من المستغيثين و المتظلمين أغلظَ مـــا يُمكـــن أنْ يسمع ، و يلقىَ ذلك بالبشر و القَبول . و هذه حكايـــة ينـــدر أن يُسَـــطَّر مثلُها. و ذلك أنه كان قد اتَّجه أخو ملك الإفرنج خذلهم اللهُ إلى يافا ، فـــإن العسكر كان قد رحَل عنهم وَ بَعُدَ و تراجع إلى النطرون ، وهـــو مكـــان بينه و بين يافا للعسكر مرحلتان للمجـــدّ ، و ثـــلاثٌ معتـــادة ، و جمـــع ـــرحمـــه الله ـــ العسكر و مضى إلى قيسارية ، يلتقي نجدتَهم عساه يبلغُ

(١)سورة القلم الآية ٤ .

منها غرَضاً، و علم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك و كان بها الانكتـــار ، ومعه جماعة، فجهّز معظمَ من كان عنده في المراكب إلـــى قيســارية ، خشيةً على النجدة، أنْ يتمَّ عليها أمر ، و بقي الانكتار فـــي نفــر يســير لعلمهم ببعده ــ رحمه الله ــ عنهم و بُعْدِ العسكر . و لماّ وصل ــ رحمه الله ــ إلى قيسارية ، و رأى النجدة قد وصلت إلى البلد و احتَمتْ بـــه ، وعلم أنه لا ينال منهم غرضه، سرَى من ليلته في أول الليل إلى آخــره ، حتى أتى يافا صباحاً، و الانكتار في سبعة عشـــر فارســاً ، و ثلثمائــة راجل، نازلاً خارج البلد في خيمة له فصبّحه العسكر صباحــاً ، فركــب الملعون ، و كان شجاعاً باسلاً صاحبَ رأي في الحرب ، و ثبــت بيــن يدي العسكر و لم يدخل البلد فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهــة البحر ، و تعبَّى العسكر تعبيةَ القتال ، و أمر السلطان العســكر بالحملــة انتهازاً للفرصة ، فأجابه بعضُ الأكراد بكلام فيه خشونةُ تعتُّــبٍ ، لعــدم التوفير في إقطاعه فعطف ــ رحمه الله ــ عِنان فرســـه كـــالمغضب ، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليومَ شيْئاً ، وتركهم و انصرف راجعـــاً ، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة ، أنْ قُلِعــتْ ، و انفضّــوا متيقنيــن أن السلطان في ذلك اليوم ربّما صلَبَ جماعة.

و لقد حكى لي ولده الملك الظاهرُ أعزَّ الله أنصاره أنّه خاف منـــه في ذلك اليوم ، حتى إنه لم يتجاسرْ أنْ يقع في عينيه ، مع أنه حمل فـــي ذلك اليوم و أوغل ، و لم يزل سائراً حتى نزل بســـازور ، و مـــا مــن الأمراء إلا مَنْ يُرْعَدُ خيفة ، و من يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه . قــال: و لم تحدّثني نفسي بالدخول عليه خيفةً حتى استدعاني . قـــال: فدخلــتُ

عليه و قد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة ، فقال : اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئا . قال : فسري عني ما كنت أجده ، و طلبت الأمراء فحضروا ، وهم خائفون ، فوجدوا من بشره و انبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن و السرور ، و انصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلا. فانظر إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان، و لا يحكى عمن تقدم من أمثاله رحمة الله عليه .

﴿ذكر محافظته على أسباب المروءة﴾

قال النبي صلى الله عليه وسلم :" بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١) وكان صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك(٢). و لقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، و لا يخاطبه بشيء إلا و ينجزه ، وكان يكرم الوافد عليه ، و إن كان كافرا . و لقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية ، فما أحس به إلا و هو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان و ثمانين و خمسمئة ، عند منصرفه من القدس إلى دمشق ، عرض له في الطريق و طلب منه شيئا فأعطاه العمق ،و هي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل ، و هو

(١)عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [البخاري في الأدب المفرد ٢٧٣. وهو في كنز العمال (مؤسسة الرسالة) برقم ٥٢١٧] .

(٢) أبو داود : الأدب ، باب: في حسن العشرة ٤٧٩٤ والترمذي: صفة القيامة ، باب: من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ٢٤٩٢ .

سنة أربع و ثمانين .

و لقد رأيتُه و قد دخل عليه صاحبُ صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه و أكل معه الطعام ، و مع ذلك عرضَ عليه الإسلامَ فذكر له طرفاً من محاسنه و حثَّه عليه .

و كان يكرمُ مَنْ يَرِدُ عليه من المشايخ و أربابِ العِلْم و الفضل وذوي الأقدار ، و كان يوصينا بأن لا نغفل عمَّنْ يجتاز بالخِيَمِ من المشايخ المعروفين حتى يحُضرهم عنده ، و ينالهم من إحسانه . و لقد مرّ بنا سنةَ أربعٍ و ثمانين و خمسمئةٍ رجلٌ جَمَعَ بين العلم و التصوُّف ، وكانَ من ذوي الأقدار و أبوه صاحب توريز ، فأعرض هو عن فنّ أبيه و اشتغل بالعلم و العمل ، و حجّ ووصل زائراً لبيت الله المقدس ، و لمّا قضى لُبانته[1] منه و رآى آثار السلطان رحمه الله فيه ، وقع له زيارتُه، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلاّ و قد دخَلَ عليّ في الخيمة فلِقيتُه و رحَّبْتُ به ، و سألتُه عن سبب ذلك ووصوله ، فأخبرني بذلك ، و أنه يُؤثر زيارة السلطان لِما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ، فعرَّفْتُ السلطانَ بذلك في ليلة وصول هذا الرجل ، فاستحضره و روى عنه حديثاً ، ثم انصرفنا ، و بات عندي في الخيمة .

فلّما صليت الصبح أخذَ يودّعني ، فقبّحْتُ له المسير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفتْ، و لم يلوِ على ذلك ، و قال: قد قضيت حاجتي منه، و لا غرَضَ لي فيما عدا رؤيته و زيارته . و انصرف من ساعته .

---

(١)لبُانة : حاجة .

ومضى على ذلك ليالٍ فسأل السلطانُ عنه فأخبرتُه بفعله فظهر عليه آثار الغضب ، كيف لمْ أخبره برواحه ؟ و قال : كيف يطرقنا مثلُ هذا الرجل و ينصرف عنا من غير إحسان يمسّه منا ؟ و شدّد النكيرَ عليّ في ذلك ، فما وجدتُ بُدّاً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلّفتُه فيه السؤالَ عن حال الرجل و إيصال رقعة كتبتُها إليه طيَّ كتابي ، أُخبِرُه فيها بإنكار السلطان رواحَه من غير اجتماعه به، و حسّنْت له فيها العَوْدَ و كان بيني و بينه صداقةٌ تقتضي مثلَ ذلك فما أحسسْتُ به إلاّ و قد عادَ إليَّ ، فرحّبَ به السلطانُ و انبسط معه و أمسَكه أياماً ، ثم خلع عليه خِلْعةً حسنةً و أعطاه مركباً لائقاً ، و ثياباً كثيرةً يحملها إلى بنيه و أتباعه وجيرانه ، و انصرف عنه و هو أشكر الناس و أخلصهم دعاءً لأيامه .

و لقد رأيتُه و قد مَثُلَ بين يديه أسيرٌ إفرنجيٌّ قد أصابه كربٌ بحيثُ إنّه ظهرَتْ عليه أماراتُ الخوف و الجزع فقال للترجمان : مِنْ أيِّ شيءٍ يخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أنْ قال : كنت أخافُ قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيْتي له و حضوري بين يديه أيقنتُ أني ما أرى إلاّ الخيْر . فرَقَّ له و منَّ عليه و أطلقه .

و لقد كنتُ راكباً في خدمته في بعض الأيام قُبالةَ الإفرنج ، و قد وصل بعضُ اليزكية(١) و معه امرأة شديدة التخوّف كثيرة البكاء متواترةُ الدّقّ على صدْرها ، فقال اليزكي : إنّ هذه خرجَتْ من عند الإفرنج فسألت الحضورَ بين يديك ، وقد أتينا بها فأمر الترجمانَ أنْ يسألْها عن

(١)يزك ــ بالفارسية ــ : حارس ليلي ، جاسوس و الفارسية و الكردية شديدتا التقارب و التلاقي في القواعد و الألفاظ .

قصتها ، فقالت : اللصوصُ المسلمون دخلوا البارحةَ إلى خيمتي وسـرقوا ابنتي وبِتُّ البارحةَ أستغيثُ إلى بكرة النـــهار ، فقـــال لـــي الملـــوك : السلطانُ هو أرحمُ ، نحن نخرجُك إليه تطلبين ابنتَك منـــه . فـــأخرجوني إليك و ما أعرف ابنتي إلاّ منك . فرقَّ لها و دمعَـــتْ عينُـــه و حرّكتْـــه مروءتُه ، و أَمر مَنْ ذهب إلى سوق العسكر يسألُ عن الصغـــيرة مَـــنْ اشتراها و يدفع لهُ ثمنَها و يُحْضِرُها ، و كان قد عرف قضيّتها مِنْ بُكْـرة يومِه ، فما مضتْ ساعةٌ حتى وصل الفارسُ والصغيرةُ على كتفه ، فمـــا كان إلا أن وقع نظرُها عليها فخرّتْ إلى الأرض ، تعفّـــر وجهَـــها فـــي التراب ، و الناس يبكون على ما نالها ، وهي ترفع طرفَها إلى الســماء ، و لا نعلم ما تقول فسُلّمت ابنتُها إليها ، وحُملـــــت حتـــى أُعيـــدت إلـــى عسكرهم.

و كان لا يرى الإساءة إلى مَنْ صحِبَه و إن أفرط في الخيانـــــة ، ولقد أُبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسيْن مـــن الفلُـــوس ، فما عمِلَ بالنواب شيئاً سوى أنْ صرَفهم مِنْ عملهم لا غير .

و لقد دخل البِرَنْسُ أرناطُ صاحب الكَرك مع ملك الإفرنج بالسَّاحل لما أسرهما في واقعة حطّين في شهور سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة ، و الواقعة مشهورة ، تجيء مشروحة في موضعها إن شاء الله تعـــالى ، وكان قد أَمَرَ بإحضارِهما ، و كان أرناطُ هذا اللعينُ كافراً عظيماً جبّـــاراً شديداً ، و كانت قد اجتازت به قافلة من مِصْرَ حين كانَ بينَ المســـلمين وبينهم هدنةٌ فغدَرها و أخذها ، و نكّل بهم و عذّبهم و أسكنهم المطـــامير، و الحبوسَ الحرِجَة ، و ذكروا له حديثَ الهدنة فقال : قولـــوا لمحمّدكـــم

يخلصكم . فلما بلغه ــ رحمه الله ــ ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ، فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله وفاء بنذره ، فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش فأحضر له قدحا من شراب فشرب منه ثم ناوله أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذي سقيته و أما أنا فما أسقيه من شرابي و لا أطعمه من طعامي. فقصد ــ رحمه الله ــ أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه ، ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره . و أخذ عكا ، و أخرج الأسوى كلهم من ضيق الأسر و كانوا زهاء أربعة آلاف أسير ، و أعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده و أهله . هكذا بلغني على ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة .

و كان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم و أحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا و نوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره .

و كان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه و مداواته ومطعمه و مشربه و تقلبات أحواله .

و كان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير السمع ، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير ، و طاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط . و كان حسن العهد و الوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا و ترحم على مخلفيه ، و جبر قلبه و أعطاه و جبر مصابه ، و إن كان له من

أهله كبيرٌ يُعتمد عليه سلّمه إليه و إلا أبقىَ له من الخير ما يكفُّ حاجته وسلّمه إلى مَنْ يعتني بتربيته و يكفُلها .

و كان لا يرى شيخاً إلاّ و يرِقُّ له و يُعطيه و يُحسن إليه ، و لم يزلْ على هذه الأخلاقِ إلى أنْ توفّاه الله إلى مقرّ رحمتِه و مكانِ رضوانه.

فهذه نُبَذٌ من محاسن أخلاقه و مكارم شِيَمِه اقتصرْتُ عليها خوفَ الإطالة و السآمة ، و ما سطَّرْتُ إلا ما شاهدتُه أو أخبرَني الثقةُ به وحقّقتُه ، و هذا بعضُ ما اطّلعت عليه في زمان خدمتي له وهو يسيرَ فيما اطّلع عليه غيري ، ممَّنْ طالتْ صحبتُه و تقدَّمتْ خِدْمَتُه ، و لكن هذا القَدْر يَكفي الأديبَ في الاستدلال على طَهارة تلك الأخلاق و الخلال .

وحيث نَجزَ هذا القسمُ فنشرعُ الآنَ في القسم الثاني من الكتاب في بيان تقلُّبات أحواله ووقائعه و فتوحاته في تواريخها قدَّس الله روحه ، و نوّر بنور رحمته ضَريحَه .

﴿القسم الثاني في بيان تقلُّبات أحواله وفتوحاته في تواريخها﴾

ذِكْرُ حركتِه إلى مصرَ في الدُّفعة الأولى صحبةَ عمّه أسدِ الدين . سببُ ذلك أنَّ شاورَ[١] وزيرَ المصريين كانَ قَدْ خرج عليه إنسان يقال له الضِّرْغام ، و كان يرومُ منصبَه و مكانَه ، فجمع له جموعاً كثيرةً لم يكنْ له بها قِبَلٌ ، و غلب عليه ، و أخرجه من القاهرة ، و قَتَل ولدَه ،

(١)شاور بن مجير السَّعْدي : أمير من الولاة ، ولي الصعيد الأعلى بمصر ، في أيام العاضد ، ثم قام بثورة استولى بها على وزارة مصر ، بعد أنْ قتل رزيك بن صالح سنة ٥٥٧هـ ، و قام عليه منافسوه فأقصَوْه عن الوزارة ، فاستعان بالزنكيين ، فأرسلوا معه أسد الدين شيركوه ، فأعاده إلى منصبه ، ولكن شاور اتّهم بعد ذلك بممالأة الإفرنج ، فقتله صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ.

واستولى علي المكان وولي الوزارة . و كانت عادة المصريين أنـه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب ، و عجز من دفعه ، و عرفوا عجزه وقّعوا للقاهر منهم و رتّبوه و مكّنوه ، فإنَّ قُوَّتهم إنّما كانتْ بعسكرِ وزيرِهم و هو الملقّب عندهم بالسلطان ، و ما كان يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرّةٌ من أول زمانهم على هذا المثال ، فلما قُهِرَ شاورُ ، وأخرج من القاهرة اشتدَّ في طلب الشَّام قاصداً خدمةَ نور الدين بن زنكي مستصرخاً[1] به مستنصراً على أعدائه بعسكره ، فتقدَّم نورُ الدين إلى أسد الدِّين شيركوه بالخروج إلى مصر المحروسة ، قضاءً لحقّ الوافد المستصرخ ، و حفظاً للبلاد و تطلّعاً إلى أحوالها ، و ذلك في شهور سنة ثمانٍ و خمسين و خمسمائة ، فتأهّب أسدُ الدين شيركوه ، و سار إلى مصر فاستصحبه[2] معه رحمه الله عن كراهية منه ، لمكان افتقاره إليه، و جعله مقدَّم عسكره ، و صاحبَ رأيه ، و ساروا حتى وصلوا إلى مصر و شاورُ معهم ، في الثاني من جُمَادى الآخرة سنة ثمان المذكورة. و كان لوصولهم إلى مصر وقعٌ عظيم ، و خافه أهلُ مصر و نصر شاور على خصمه ، و أعاده إلى منصبه و مرتبته ، و قرّر قواعدَه ، واستقرّ أمرُه ، و شاهد البلادَ و عرف أحوالَها ، و عاد منها و قد غُرِسَ في قلبه الطمعُ في البلاد ، و عرف أنها بلاد بغير رجال . تمشي الأمور فيها بمجرّد الإيهام و المِحال . و كان ابتداءُ رحلته عنها متوجّهاً إلى الشَّام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة . و كان لا يفصل

(١)مستصرخاً به : أي مستنجداً.(٢)أي استصحب أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي معه إلى مصر .

أمراً و لا يقرّر حالاً إلاّ بمشورته و رأيه لما لاح له من آثار الإقبال والسعادة و الفكرةِ الصحيحة و اقتران النصر بحركاته و سكناتِه ، فأقام بالشام مدبّراً لأمره مفكّراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدّثاً بذلك نفسه مقرّراً قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكي إلى سنة اثنتين و ستين و خمسمائة .

﴿ذكر عودته إلى مصر في الوقعة الثانية و هي معروفة بوقعة البابَيْنِ﴾

و لم يزل أسد الدين يتحدّثُ بذلك بين الناس حتى بلغ شاورَ فداخله الخوف على البلاد من الأتراك(١) ، و علم أنّ أسد الدين قد طمِعَ في البلاد ، و أنّه لا بدّ له مِنْ قصدها ، فكاتب الإفرنجَ ، و قرَّر معهم أنَّهم يجيئون البلادَ و يمكّنهم تمكيناً كليّاً ، و يُعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقِّر قلبُه فيها ، و بلغ ذلك أسدَ الدين و الملكَ العادل نور الدين فاشتدَّ خوفُهم على مصرَ إنْ ملكها الكفّار و استولَوا على البلاد كلِّها ، فتجهَّز أسدُ الدين و أنفذ نورُ الدّين معه العساكرَ ، و أُلزم السلطانُ ـ رحمه الله ـ المسيرَ معه على كراهيةٍ منه ذلك . و كان توجُّههم في اثني عشر ربيع الأوّل سنةَ اثنتين و ستين و خمسمائة ، و كان وصولُهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الإفرنج إليها ، و اتفّق شاورُ مع الإفرنج على أسد الدين و المصريّين بأسرهم ، و جَرَتْ بينهم حروبٌ كثيرة، و وقعاتٌ شديدة ، و انفصل الإفرنجُ عن الدّيار المصرية وانفصل

---

(١)الأتراك : أي دولة محمود زنكي ، فالزنكيون مسلمون أتراك ، بينما الأيوبيون مسلمون أكراد.

أسد الدين .

وكان سبب عود الإفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلاد الإفرنج ، و أخذ المنيظرة و علم الإفرنج بذلك ، فخافوا على بلادهم وعادوا .

وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الإفرنج والمصريين و ما عانوه من الشدائد و عاينوه من الأهوال. و ما عاد حتى صالح الإفرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر ، و عاد إلى الشام في بقية السنة . و قد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الإفرنج ، لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها ، و عرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام على مضض و قلبه مقلقل ، و القضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره و هو لا يشعر بذلك .

﴿ذكر عوده إلى مصر في الدفعة الثالثة و هي التي ملكوها فيها و جرى ما جرى في شهور سنة أربع و ستين و خمسمائة﴾

ملك نور الدين قلعة المنيظرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب قلعة إكاف بالبرية . و في رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين و زين الدين بحماة للغزاة ، و ساروا إلى بلاد الإفرنج ، فخربوا " هونين " في شوال منها . و في ذي القعدة كان عود أسد الدين من مصر . و كان سبب ذلك أن الإفرنج – خذلهم الله – جمعوا راجلهم و فارسهم ، و خرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر

مع المصريين و أسد الدين من الصلح و القواعد طمعاً في البلاد ، فلمّا بلغَ ذلك نورَ الدين و أسدَ الدّين لم يسعْهما الصبرُ دونَ أنْ سارعا إلى قصد البلاد . أمّا نورُ الدين فبالمال و الرجال و لم يَسِرْ بنفسه خوفاً على البلاد من الإفرنج ، و لأنه قد حدث نظره إلى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين بن بكتكين فإنّه توفّي في ذي الحجة سنة ثلاث و ستين وخمسمائة ، و تُسُلِّمَ ما كان في يده من الحصون إلى قطب الدين ، ما عدا إربل ، فإنها كلّها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله . فحدث لنور الدين إلى جانب ذلك الطمع بهذا السبب ، فسيّر العسكر . و أما أسدُ الدّين فبسيفه و ملكه و أهله و رجاله ، و لقد قال لي السلطانُ ــ قدّس الله روحه ــ : كنت أُكْرِهُ الناسَ للخروج في هذه الواقعة ، و ما خرجت مع عمي باختياري ، و هذا معنى قوله تعالى : (و عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)(١)

و كان شاور لما أحس بخروج الإفرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى أسد الدين يستصرخه و يستنجده ، فخرج مسرعاً . وكان وصولهم إلى مصر في أثناء ربيع الأول سنة أربع و ستين وخمسمائة.

ولمّا علم الإفرنج وصولَ أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، و على أعقابهم ناكصين . و أقام أسدُ الدين بها يتردّد إليه شاور في الأحيان . و كان وعدَهم بمال مقابل ما خسروه من النَّفقة ، فلم يُوصِلْ إليهم شيئاً ، و علقت مخاليب أسد الدين في البلاد ،

---

(١)سورة البقرة ٢١٦ .

وعلم أنَّ الإفرنج متى وجدوا فرصةً أخذوا البلادَ ، و تردّدهم إليها في كل وقت لا يفيد ، و أنّ شاور يلعبُ بهم تارةً و بالإفرنج تارة أخرى ، وعلموا أنّه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه إنْ خرجَ إليهم ، و كانوا هم يتردّدون إلى خدمته دون أسد الدين ، و هو يخرجُ في بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به . وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل و البوق و العلم ، فلم يتجاسرْ على قبضه من الجماعة إلا السلطانُ بنفسه . و ذلك أنّه لما سار إليهم تلقّاه راكباً ، وسار إلى جانبه ، و أخذ بتلابيبه ، و أمر العسكر أنْ خُذوا أصحابَه ، ففرّوا و نهبهم العسكر ، و قُبض على شاور ، و أُنزل إلى خيمة مفردة . وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاصّ: لا بدّ من رأسه جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة فيمن قَوِيَ منهم على صاحبه ، فَحُزَّتْ رقبته و أُنفذ رأسه إليهم ، و أُنفذ إلى أسد الدين خِلعةُ الوزارة فلبسها ، و سار و دخل القصر و رُتّب وزيراً و ذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع و ستين و خمسمائة ، ودام آمراً ناهياً و السلطان ــ رحمه الله ــ مباشر الأمور مقرّر لها ، وزمامُ الأمر و النهي مفوَّض إليه لمكان كفايته و درايته و حسن رأيه وسياسته ، إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

﴿ذكر وفاة أسد الدين و مصير الأمر إلى السلطان﴾

و ذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل شديدَ المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، و تتواتر عليه التُّخَمُ و الخوانيق ، و ينجو منها بعد

مقاساة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديدٌ ، و اعتراه خانوق عظيم ، فقتله في الثاني و العشرين من جمادى الآخرة ، و فوّض الأمـــر بعـــده إلـــى السلطان ، و استقرت القواعد و استتبت الأحوال على أحســـن نظـــام ، وبُذِل المال . و ملك الرجال و هانت عنده الدنيا ، فملكها و شكر نعمـــة الله عليه ، فتابَ من الخمر و أعرض عن أسباب اللهو ، و تقمّص بلباس الجِدّ و الاجتهاد ، و ما عاد عنه و لا ازداد إلاّ جِدّا إلى أن توفّاه الله إلـــى رحمته . و لقد سمعتُ منه يقول لما يسَّرَ الله لي الديار المصريةَ علمـــتُ أنّه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي . و من حين اســـتتب لـــه الأمر ما زال يشنّ الغارات على الإفرنج إلى الكرك والشوبك و بلادها ، و غشي الناسَ من سحائب الإفضال و النعم ما لم يؤرَّخْ عن غـــير تلـــك الأيام . هذا كلُّه و هو وزيرٌ متابع القوم ، و لكنّه مُقَوٍ لمذهـــب الســـنة ، غارسٌ في أهل البلاد العلمَ ، و الفقهَ و التصـــوُّفَ و الدِّيـــنَ ، و النـــاسُ يُهْرَعُون إليه مِنْ كلِّ صَوْب ، و يَفِدُون عليه من كلِّ جـــانب ، و هـــو لا يُخيّبُ قاصداً ، و لا يُعْدِم وافداً (١) و لَّما عرف نـــورُ الديـــن اســـتقرارَ السلطان بمصر أخذ حمصَ من نوّاب أسد الدّين ، و ذلك في رجب مـــن سنة أربع و ستين .

﴿ذكْرُ قصدِ الإفرنج دمياط حرسها اللهُ تعالى﴾

و لما علم الإفرنجُ ما جَرى من المسلمين و عساكرهم و مـــا تـــمّ للســـلطان مـــن استقامة الأمر في الديار المصرية خافوا أنْ يملك بلادَهم

---

(١)لا يعدم : لا يحرم أي لا يرد أحداً أتى إليه خائباً .

ويخرّب ديارَهم و يَقْلَعَ آثارَهم لِما حَدَثَ له من القوّة و المُلْك ، فـــاجتمع الإفرنجُ و الرّومُ جميعاً و حدّثوا أنفسَهم بقصد الديار المصرية و الاستيلاء عليها و مُلكِها ، و رأوا قصْدَ دِمْياط لتمكُّن القاصدِ لها من البرّ و البحر ، و لِعلمِهم أنّها إنْ حصلتْ لهم حَصَلَ لهم مغـــرسُ قـدَمٍ ، فاســتصحبوا المنجنيقاتِ و الدّباباتِ و الجروخَ و آلاتِ الحصار و غيرَ ذلك ، و لمّـــا سمع إفرنجُ الشام بذلك اشتدّ أمرُهم فسرقوا حصْنَ عكا مـــن المســلمين وأسروا صاحبها ، و كان مملوكاً لنور الدين يسمى خلطـــخ العلـم دار ، وذلك في ربيع الآخر منها . و لَمّا رأى نورُ الدين ظهورَ أمر الإفرنـــج وبلغه نزولُهم على دمياط قصَدَ شغلَ قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصراً لهـــا في شعبان من هذه السنة فقصده آفِرُو[١] الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفْ لهم على أثر[٢] ، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلـب و كانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس و ستين فاشتغل قلبه ، لأنـــه كان صاحبَ أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة بحلـب التـي أخربت كثيراً من البلاد المذكورة ، فسار يطلب حلب ، فبلغه موتُ قطـبِ الدين أخيه بالموصل ، و كانتْ وفاته في الثـــاني و العشـــرين مـــن ذي الحجة من السنة المذكورة ، و بلغه الخبرُ و هو بتلّ باشر[٣] ، فسار مـــن ليلته طالباً بلادَ الموصل . و لما علم السلطانُ شدّةَ قصْدِ العدوّ دمياطَ أنفذ إلـــى البلد[٤] و أودعه من الرجال و أبطال الفرسان و المِيرة[٥] و آلات

(١) الآفر : العدّاء النشيط . (٢) أي هربوا .(٣) تل باشر : قلعة حصينة و كورة واســعة فـي شمالي حلب (و الكُوْرة : الصُقع ، و البقعة التي يجتمع فيها قرى و مَحالّ) .(٤) البلد : يريـــد دمياط . (٥) الميرة : التموين و الموادّ الغذائية

السلاح ما أمن معه عليه ، و وعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات ، و إبعاد العدو عنهم إن نزل عليهم ، ثم نزل الإفرنج في التاريخ المذكور و اشتد زحفهم عليها و قتالهم لها ، و هو يشن الغارة عليهم من خارج ، و العساكر تقاتلهم من داخل ، و نصر الله المسلمين و أيدهم و حسن قصدهم في نصر دين الله ، و أسعدهم و أنجدهم حتى بان للإفرنج الخسران . و ظهر على الكفر الإيمان[1] و رأوا أنهم ينجون برؤوسهم . و يسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيقهم و نهبت ، و قتل منهم خلق كثير ، و سلم البلد بحمد الله و منه عن قصدهم ، و ظهر بتوفيق الله فل حدهم . و استقرت قواعد السلطان .

﴿ذكر طلبه والده﴾

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به و يتم الحبور ، و تجري القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله و سلامه عليه و على سائر الأنبياء ، فوصل والده نجم الدين إليه في أثناء جمادى الآخرة من سنة خمس و ستين ، و سلك معه من الأدب ما كان عادته ، و ألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه ، و قال يا ولدي : ما اختارك الله لهذا الأمر إلا و أنت كفؤ له ، و لا ينبغي أن يغير موقع السعادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها ، و لم يزل السلطان وزيرا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله ، و به ختم أمر المصريين .

---

(١)أي غلب المؤمنون الكافرين .

و أما نور الدين فإنّه أخذ الرقّةَ في المحرّم سنة ست و ستين ، سار منها إلى نصيبين فأخذها في بقية الشهر ، و أخذ سنجار في ربيع الآخر منها ، ثم قصد الموصل ، و قصد أن لا يقاتلها فعبر بعسكره من مَخاضة بلد ، و سار حتى خيّم قُبالةَ الموصل ، على تل يقال له الحصن، و راسل ابن أخيه عزّ الدين غازي صاحب الموصل و عرّفه صحّة قصده ، فصالحه و دخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى وقرَّر صاحبها فيها و زوّجه ابنته ، و أعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار ، وخرَج من الموصل قاصداً نحو الشَّام ، فدخل حلب في شعبان من هذه السنة .

﴿ذكر موت العاضد﴾

و كان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع و ستين و استقر الملك للسلطان ، و كان خطب لبني العباس في أواخر أمرِ العاضد ، و هو حيٌّ ، و كانت الخطبة ابتداؤُها للمستضيء بأمر الله[١]، و استمرَّت القواعدُ على الاستقامة و هو كلّما استولى على خزانة من المال وَهَبها ، و كلما فُتِحَ له خزائنُ ملك أنهبها[٢]، و لا يُبقْي لِنفسه شيئاً، و شرع السلطان في التأهُّب للغزاة و قصد بلاد العدو و تعبية الأمر لذلك و تقرير قواعده . و أما نور الدين فإنه عزم على الغَزاة[٣] و استدعى

(١)أول خطبة خطبها صلاح الدين دعا فيها لبني العباس كانت في أواخر حكم العاضد الفاطمي ، و كان صلاح الدين وزيراً له ، و لكنّ سلطته أقوى من سلطة العاضد ، فقطع ذِكْر العاضد ، ودعا للخليفة العباسي الذي كان في تلك الآونة ، و هو المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله (٥٣٦-٥٧٥هـ) ، استُخلف عشر سنوات (٥٦٥-٥٧٥) . و كان ذا حِلْم و أناة و سخاء .(٢)أي وزّعها ، و قد وهب قسماً منها للخليفة العباسي ، و قسماً لنور الدين زنكي ، وقسماً للجيش ، و قسماً لذوي الحاجات ، أما هو فلم يبلغ ملكُه الخاص ـ طَوال عمره ـ مقدار نصاب الزكاة . (٣)الغزاة : الغزو .

صاحبَ الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غـــزاة عرفا و أخذها في المحرم سنة سبع و ستين .

﴿ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية﴾

و لم يزل على قدم بُسُطِ العدل و نشر الإحسان و إقامة الإحسـان على الناس إلى سنة ثمان و ستين ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بـلاد الكَرك و الشَّوبك ، و إنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، و كـانت فـي الطريق تمنع مَنْ يقصد الديار المصرية ، و كان لا يمكن أنْ تصل قافلـةٌ حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فأراد توسيع الطريق و تسـهيله لتتّصل البلادُ بعضها ببعض ، و تسهل على السَّابلة ، فخرج قاصداً لـها فحاصرها وجرى بينه و بين الإفرنج وقعات ، و عاد عنها ، و لم يظفـر منها بشيء في تلك الوقعة ، و حصل ثواب القصد . و أما نـور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة و أخذ بها في ذي الحجـة منها .

﴿ذكر وفاة والده نَجْم الدّين﴾

و لما عاد السلطانُ مِنْ غَزاته بلغه قبلَ وصوله إلى مصر وفـاةُ أبيه نجم الدين ، فشقَّ عليه ذلك ، حيث لم يحضر وفاته . وكـان سـبب وفاته وقوعه عن الفرس ، و كان رحمه الله شديدَ الرَّكْض ولِعـاً بلعـب الكُرةَ ، بحيث من رآه يلعب بها يقول : ما يموت إلا من وقوعـه عـن ظهر الفرس . و كانت وفاته في شهور سـنة تسـع و سـتين . و رأى السلطانُ قوة عسكره و كثرة عدد إخوته و قوة بأسهم ، و كان بلغـه أنّ

باليمن إنساناً استولى عليها و ملَكَ حصونها و هو يخطب لنفسه يسمى بعبد النبيّ بن مهدي[١]، و يزعم أنْ ينتشر ملكُه في الأرض كلِّها ويستتب الأمر له ، فرأى أن يسيّر إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم توارنشاه ، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق سمعتُ منه ــ رحمه الله ــ الثناءَ على كرمه و حسن أخلاقه و ترجيحه على نفسه . و كان توجُّهه إليها في أثناء رجب سنة تسع و ستين ، فمضى إليها و فتح الله على يديه، و قتل الخارجيَّ الذي كان بها و استولى على معظمها ، و أعطى و أغنى خلقاً كثيراً[٢].

﴿ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله﴾

و كانت وفاته بسبب خوانيق اعترتْه أيضاً ، عجَزَ الأطبّاءُ عن علاجها ، و تُوفي يومَ الأربعاء في الحادي و العشرين من شوال سنة تسع و ستين ، و ذلك في قلعة دمشق ، و أقام مُقامه ولدَه الملك الصالح إسماعيل . و لقد حكَي لي السلطانُ قال : كان بلَغنا عن نور الدين أنه قَصدَنا بالديار المصرية ، و كانتْ جماعةُ أصحابنا يشيرون بأن نكاشف

---

(١)كان على شاكلة أبيه "علي بن مهدي" يجمع بين غلوّ الخوارج و غلوّ الباطنية القرامطة ، وكان هذا " القرمطي الخارجي " يحكم منطقة زبيد و الجبال و التّهائم ، و قد استباح الحرائر من المسلمات ، و سمّى دار المسلمين دار حرب . و كان أبوه تبعاً للعبيدين الفاطميّين في مصر ، أمّا هو فلم يجدّد حين حكَم بعد أبيه ولاءهم ، و طمح بسلطان أكبر ، فقصمه الله تعالى ، كما قصمهم.(٢) قضى تورانشاه على دولة الخوارج القرمطيّين في زبيد ، و على دولة بني زريع الفاطميّين في عدن ، و تمّ بذلك إنهاء دولة الفاطميين الإسماعيلية في مصر و اليمن . و هو تورانشاه بن أيوب ، كان يلقّب بشمس الدولة ، تولّى دمشق ، و بعلبكّ .

و نخالفَ و نشقَّ عصاه ، و نَلْقَى عسكره بمصاف نردُّه إذا تحقَّق قصدُه، و كنت وحدِي أخالفهم ، و أقول : لا يجوز أنْ يقال شيءٌ من ذلك ، و لم يزل النزاعُ بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

﴿ذكر منافقة الكند بأسوان و ذلك في شهور سنة تسع و ستين﴾

و الكند إنسانٌ مقدَّم من المصريين كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبّر أمره و يجمع السودانَ عليه و يخيّل لهم أنه يملك البلادَ و يعيدُ الدولةَ مصريةً ، و كان في قلوب القوم من مُهاواة[1] المصريين ما تُستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر و قصدوا قوص و أعمالها ، و انتهى خبره إلى السلطان ، فجرّد له عسكراً عظيماً شاكيَ السلاح[2] من الذين ذاقوا حلاوة المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم ، و قدّم عليهم أخاه الملك العادل سيفَ الدين، و سار بهم حتى أتى القومَ فلقيهم بمصافّ[3] فكسرهم ، و قتل منهم خلقاً عظيماً، و استأصل شأفتَهم و أخمد ثائرتهم ، و ذلك في السابع من صفر سنة سبعين ، و استقرّتْ قواعد المُلْك ، و استوت أموره . والله الحمد والمنة.

﴿ذكر قصد الإفرنج ثغر الإسكندرية حرسها الله تعالى﴾

و ذلك أن الإفرنج لما علموا تغيّرات الأحوال بالديار المصرية وتقلُّبات الدول بها داخلَهم الطمعُ في البلاد ، و جرّدوا عساكرهم في البحر ، و كانوا في ستمائة قطعةٍ ما بينَ شاني و طرادة و بطسة و غير

(١)مهاواة : محبّة . (٢) شاكي السلاح (مثل شائك السلاح) : تام السّلاح كامل الاستعداد .
(٣)مصاف : جيش موزّع على صفوف .

ذلك . و كانوا في ثلاثين ألفا على ما ذكر ، و نازلوا الثغر ، و ذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه السنة ، و هي سنة سبعين ، فأمده السلطان بالعساكر المنصورة ، و تحرك و أدخل الله في قلوبهم من الخوف و الرعب ما لم يمكنهم الصبر معه ، و عادوا خائبين خاسرين ، بعد أن ضايقوا الثغر و زحفوا عليه ثلاثة أيام و قاتلوا قتالا شديدا وعصمه الله منهم . و لما أحسوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم و آلتهم فخرج أهل البلد إلى نهبها و إحراقها ، وكان أمرا عظيما ، و من أعظم النعم على المسلمين و أمارة كل سعادة.

﴿ذكر خروج السلطان إلى الشام و أخذه دمشق﴾

و أما نور الدين فإنه خلف ولده الملك الصالح إسماعيل و كان بدمشق ، و كان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين علي و شاذ بخت . وكان قد حدث نفسه بأمور ، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب فوصل ظاهرها ثاني المحرم و معه سابق الدين ، فخرج بدر الدين للقائه فقبض على سابق الدين . و لما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين و أخيه حسن و أودع الثلاثة السجن . و في ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا ذلك . و لما تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك و لا يستقل بدفع عدو الله عن

البلاد ، تجهَّز للخروج إلى الشام ، إذْ هو أصلُ بلاد الإسلام ، فتجهَّز بجمع كثير من العساكر ، و خلّفَ في الديار المصرية مَنْ يستقلُّ بحفظها و حراستها ، و نظم أمورها و سياستها ، و خرَجَ هو سائراً مع جمع مِنْ أهله و أقاربه ، و هو يكاتب أهل البلاد و أمراءها ، و اختلفت كلمةُ أصحاب الملك الصالح و اختلّتْ تدابيرُهم ، و خاف بعضُهم من بعض ، و قُبِضَ على جماعة منهم ، و كان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك، و سبباً لتغيُّر قلوب الناس عن الصَّبي ، فافتقر الحال أنْ كاتبَ شمسُ الدّين بنُ المقدّم السلطان ، ووصل البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولّى أمره و يربّ حاله ، فيقوّم له ما اعوّجَ من أمره ، فوصل دمشق و لم يشقّ عليه عصا ، و دخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين و تسلّم قلعتها . و كان أوّل دخوله إلى دار أبيه ، واجتمع الناس إليه و في جوابه و أنفق في ذلك اليوم في الناس مالاً طويلاً و أظهر الفرح و السرور بالدمشقيّين و أظهروا الفرح به ، وصعد القلعة و استقر قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن طلب حلب ، فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ، و لم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب و نازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور و هي الوقعة الأولى .

﴿ذكر تسيير سيف الدين أخاه عزّ الدّين إلى لقائه﴾

و لما أحسّ سيفُ الدين صاحب الموصل بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه و علتْ كلمته ، و خاف أنه إن غفل عنه استحوَذ[1] على البلاد واستقرّ قدمه في الملك و تعدّى الأمر إليه فجهّز عسكراً وافراً و جيشاً عظيماً و قدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً ، وساروا يريدون لقاء السلطان ، و ضرب المَصافٍّ معه ، و ردَّه عن البلاد . ولما بلغ السلطانَ ذلك رحل عن حلب مستهلَّ رجب من السنة المذكورة عائداً إلى حماة ، و سار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها، ثم وصل عزّ الدين إلى حلب و انضمَّ إليه من كان بها من العسكر و خرجوا بجمع عظيم . و لما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماة و راسلهم و راسلوه ، واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه و رأوا أنّ المصافَّ ربما نالوا به الغرضَ الأكبرَ ، و المقصود الأوفر ، و القضاء يجر إلى أمورٍ هُمْ بها لا يشعرون . و قام المصافّ بين العسكريْنِ بقضاء الله فانكسروا بين يديه ، و أَسَرَ جماعةً منهم ، ومنَّ عليهم و أطلقهم ، و ذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضاً. ثم سار عُقَيْبَ انكسارهم و نزل على حلب ، و هي الدفعة الثانية ، وصالحوه على أنْ أخذ المعرة و كفر طاب و أخذ بارين و ذلك في أواخر هذه السنة .

---

(١)استحوذ : سيطر و هيمن .

﴿ذكر مسير سيف الدين بنفسه﴾

و لما وقعتْ هذه الواقعةُ كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه و دخوله في طاعته و كان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان و اعتصم بذلك ، و اشتد سيف الدين في حصار المكان و ضربّه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثُلَمٌ كثيرة ، وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوعُ هذه الواقعة ، فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتدّ أمره ، فراسله إلى الصلح فصالحه ، ثم سار من وقته إلى نَصيبين واهتم بجمع العساكر و الإنفاق فيها ، و سار حتى أتى الفرات و عبر بالبيرة[1]، و خيّم على جانب الفرات الشامي ، و راسل كمشتكين و الملكَ الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها إليهم ، ووصل كمشتكين إليه، وجرتْ مراجعات كثيرة و عزم فيها إلى العود مراراً ، حتى استقر اجتماعُه بالملك الصالح و سمحوا به ، و سار ووصل حلب ، و خرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه فالتقاه قريبَ القلعة ، و اعتنقه و ضمه إليه و بكى ، ثم أمر بالعود إلى القلعة فعاد إليها و سار هو حتى نزل بعين المباركة ، و أقام بها مدة و عسكرُ حلب يخرجُ إلى خدمته في كل يوم ، و صعد القلعة جريدة[2]، وأكل فيها خبزاً و نزل و سار راحلاً إلى تل السلطان و معه الديار البكرية و جمعٌ كثير ، و السلطان قد أنفذ في طلب العساكر من مصر و هو يترقّب وصولها ، و هؤلاء يتأخرون في

---

(١)منطقة بين حلب و الثغور الرومية قديماً .

(٢)جريدة : فرقة منتخبة .

أمورهم و تدابيرهم ، و هم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً حتى وصل عسكر مصر سار رحمه الله حتى أتى قرونَ حماة[1]، فبلغهم أنه قارب عسكره فأخرجوا اليزك[2] و جهزوا مَنْ يكشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جناب التركمان ، و تفرّق عسكره يَسْتقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، و لكن ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ، فصبروا عليه حتى سقى خيله هو و عسكره ، و اجتمعوا و تعبوا تعبية القتال ، وأصبح القوم على مصاف ، و ذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى و سبعين ، فالتقى العسكران ، و تصادما و جرَى قتالٌ عظيم ، و انكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين ، فإنه كان في ميمنة سيف الدين ، و حمل السلطان عليه بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء منهم فخر الدين عبد المسيح ، فمنَّ عليهم و أطلقهم ، و عاد سيفُ الدين إلى حلب المحروسة ، فأخذ منها خزانة و سار حتى عبر الفرات ، و عاد إلى بلاده و أمسك هو رحمه الله عن تتبُّع العسكر ، و نزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثِّقْل على ما كان عليه و المطابخ قد عملت ففرّق الإصطبلات ووهب الخزائن و أعطى خيمة سيف الدين لعز الدين فخروشاه ، و سار إلى منبج و تسلّمها في بقية الشهر المذكور . و سار حتى نزل على قلعة اعزاز يحاصرها و ذلك في رابع ذي القعدة سنة إحدى و سبعين و عليها وثب الإسماعيلية عليه فنجّاه الله مِنْ كَيْدِهم وظفر

(١)قرون حماة : أطرافها

(٢)اليزك : طلائع الجيش ، و الجواسيس (فارسية) .

بهم ، و لم يفل ذلك عزمه و أقام عليها حتى أخذها ، و ذلك فـــي رابـــع عشر ذي الحجة من السنة . و سار حتى نزل على حلب في سادس عشر منه فأقام مدة ثم سار عنها ، فأخرجوا إليه ابنة لنور الديـــن صغـــيرة ، وسألت منه اعزاز فوهبها إياها . و في بقية الشهر أيضا وصل شـــمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق و أقام بها مدة ، ثم عـــاد إلـــى الديـــار المصرية و توفى بإسكندرية ، مستهل صفر سنة ست و سبعين . ثـــم إن السلطان عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ، و يقـــرر قواعدهـــا ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شـــهور ســـنة اثنتيـــن و ســـبعين واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فأقام رحمه الله بها يقـــرر قواعدهـــا ويسد خللها ، و أراح العسكر ثم تأهب للغزاة ، و خرج يطلب الســـاحل حتى وافى الإفرنج على الرملة ، و ذلك في أوائل جمادى الأولـــى ســـنة ثلاث و سبعين .

﴿ذكر كسرة الرملة﴾

و كان مقدم الإفرنج البرنس أرناط ، و كان قد بيع بحلب فإنه كان أسيرا بها من زمن نور الدين ، و جرى خلل فـــي ذلـــك اليـــوم علـــى المسلمين . و لقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم ، و ذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ، و لما قـــرب العـــدو رأى بعـــض الجماعة أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة ، و الميسرة إلى جهة الميمنـــة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملـــة ، فبينمـــا اشتغلوا بهذه التعبية هجم الإفرنج ، و قدر الله كسرتهم فانكسروا كســـرة

عظيمة ، و لم يكنْ لهم حصنٌ قريب يأوون إليه فطلبوا جهةَ الديار المصرية ، و ضلّوا في الطريق ، و تبدّدوا و أُسر منهم جماعة ، منهم الفقيه عيسى ، و كان وهْناً عظيما جبره الله بوقعة حطّين المشهورة ولله الحمد .

و أما الملك الصالح فإنّه تخبّط أمره ، و قبض على كمشتكين صاحب دولته ، و طلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله . و لما سمع الإفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها ، و ذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث و سبعين . و قابل عسكرُ الملكِ الصالحِ العساكرَ الإفرنجيّةَ . و لمّا رأى أهلُ القلعة خطرَها من جانب الإفرنج سلّموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة .

و لما علم الإفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبينَ بلادَهم ، ثم عاد الملك الصالح إلى حلب ، و لم يزل أصحابه على اختلاف ، يميل بعضهم إلى جانب السلطان ، حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتلّ خالد ، فأخرج إليه العسكر ، و ذلك في عاشر المحرم سنة ست و سبعين ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، و كانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة ، وولي مكانه أخوه عز الدين مسعود في الخامس منه ، و كانت وفاة شمس الدولة بالإسكندرية .

﴿ذكر عَوْدِ السلطان إلى الشام﴾

و لما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية و أقام بها ريثما لمَّ الناسُ شعثهم و علم بتخبّط الشَّام ، عزم على العَوْد إليه ، وكان

عوده للغزاة فوصله رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقـــة ، ويستغيث إليه من الأرمن ، فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرســلان، و نزل بقرا حصار[1]، و أخذ عسكرُ حلب في خدمته ، لأنه قد اشـــترط في الصلح فاجتمعوا على النهر الأزرق بين بهنسة و حصــن منصــور، وعبر منه إلى النهر الأسود و طرف بلاد ابن لاون ، و أخذ منهم حصنــاً و أخربه ، و بذلوا له أسارى و التمسوا منه الصلح و عاد عنه ثم راسـله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم ، و اســتقرّ الصلــح و حلــف السلطان في عاشر جمادى الأولى سنة ست و ســبعين ، و دخــل فــي الصلح قليج أرسلان و المَواصلة و ديار بكر و كان ذلك على نهر ســبخة سنجة ، و هو نهر يرمي إلى الفرات و سار السلطان نحو دمشق .

﴿ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عزّ الدين إلى حلب﴾

و في سنة سبع و سبعين مرض الملك الصالح بالقولنج ، وكـــان أوّل مرضه في تاسع رجب ، و في ثالث عشر منه غُلّق باب القلعة لشدة مرضه ، و استدعي الأمراء واحداً واحداً و حلفوا لعزّ الديــن صــاحب الموصل ، و في الخامس و العشرين منه توفّي رحمه الله ، و كان لموتـه وقعٌ عظيم في قلوب الناس . و لما توفّي سارعوا إلى إعلام عز الديـــن مسعود بن قطب الدين بذلك و إعلامه بما جرى له من الوصيــة إليــه ، وتحليف الناس لـــه ، فسارع سائراً إلى حلب مبادراً خوفاً من السلطان ،

---

(١)قرا حصار : مرج كبير من نواحي شمال حلب .

وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الديـــن بـــن زيـــن الديـــن ، وصاحب سروج ، ووصل معهما من حَلَّفَ جميع الأمراء لـــه ، و كـــان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة . و في العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب و صعد القلعة و استولى على خزائنها و ذخائرهـــا ، و تزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكورة .

﴿ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد﴾

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوَّال ، و علم أنـــه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل ، لحاجته إلى ملازمـــة الشـــام لأجـــل السلطان ، و ألح عليه الأمراء في طلب الزيادات و رأوا أنفسهم أنهم قـــد اختاروه و ضاق عطنه ، و كان صاحب أمره مجاهد الديـــن قايمـــاز ، وكان ضيق العطن(١)، لم يعتدَّ بمقاساة أمراءِ الشام ، فرحل من قلعة حلب طالباً للرقة ، و خلّف ولده و مظفر الدين بها ، و سار حتى أتى الرقـــة ، و لقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم ، و استقر مقايضة حلب بسنجار، و حلف عز الدين لأخيه على ذلك في الحادي عشر من شوال، و ســـار من جانب عماد الدين مَنْ تسلّم حلب ، و من جانب عز الدين من تســـلم سنجار ، و في ثالث عشر محرم سنة ثمان و سبعين صعد عمادُ الديـــن إلى قلعة حلب .

---

(١)قليل الصبر ، معدوم الحيلة لدى الشدائد ، شحيح .

﴿ذكر عود السلطان من مصر﴾

و أما السلطان فإنّه لما وقّع الصلح على قليج أرسلان صعد إلـــى الديار المصرية ، و استخلف ابن أخيه عز الدين فخروشاه واليا ، و لمـــا بـــلغه وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام خوفاً على البلاد من الإفرنج ، وبلغه أيضاً وفاة فخروشاه فاشتدّ عزمه . و كان وصوله إلـــى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان و سبعين ، ثم أنشأ التأهُّب لغـــزاة بيروت ، فإنه عبر على الإفرنج في عَوْده من مصر مكابرةً مـــن غـــير صلح فقصد بيروت و نزلها و لم ينلْ منها غرضاً ، و اجتمـــع الإفرنـــج فرحّلوه عنها ، و دخل إلى دمشق و بلغه أن رسل الموصل وصلوا إلـــى الإفرنج يحثّونهم عـــلى قتال المسلمين ، فعلم أنهم نكثوا اليميـــن و أنشـــأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الإسلامية على عدوّ الله ، فـــأخذ في التأهُّبِ لذلك ، فلما بلغ ذلك عمادَ الدين سيّر إلى الموصـــــل يشـــعره بالخبر ، و يستحث العساكر ، و سار السلطان حتى نزل على حلب فـــي ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، و أقام ثلاثة أيام ، و رحل فـــي الحادي و العشرين يطلب الغزاة و استقرّ الحال بينه و بين مظفر الدين ، و كان صاحب حران و كان قد استوحش من جانب الموصل و خاف من مجاهد الدين فالتجأ إلى السلطان ، و عبر إلى قاطع الفـــرات ، و قـــوى عزمه على البلاد و سهل أمرها عنده و دخل الرُّها و الرقة و نصيبيـــن وسروج ، ثم شحن على الخابور و اقتطعه .

﴿ذكر نزوله على الموصل﴾

و كان نزوله عليه في هذه الوقعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب ، و كنت إذ ذاك في الموصل ، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيلا بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، و أتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ ، و كان في صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه و يتلطف الحال معه ، و يسير إلى بهلوان رسولا من الموصل يستنجدونه فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ، ثم أقام السلطان على الموصل أياما ، و علم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ، و رأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه و ما حوله من البلاد ، و إضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها و نزل على سنجار في سادس عشر شعبان ، وأقام يحاصرها و كان فيها شرف الدين بن قطب الدين ، و جماعة و اشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان ، فأخذها عنوة ، و خرج شرف الدين و جماعته محترمين محفوظين إلى الموصل ، و أعطاها ابن أخيه تقي الدين ، و رحل عنها إلى نصيبين .

﴿ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط﴾

و ذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه و استنجدوا به و طرحوا أنفسهم عليه فخرج من خلاط لنصرتهم ، و نزل بحرزم ، و سيّر إلى عز الدين صاحب الموصل مَنْ أعلمه فخرج إليه ، و ذلك في الخامس عشر من شوال ، فسار حتى اجتمع به صاحبُ ماردين ، و وصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان ، و أرسل شاه أرمن بكتمر إلى السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم بينهم حال ، و رحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان و لّى راجعاً إلى بلاده ، و عاد عز الدين إلى بلاده و تفرقوا وسار السلطان يطلب بلد آمِدَ ، فنزل عليها و قاتلها و أخذها في ثمانية أيام ، و ذلك في أول محرّم سنة تسع و سبعين ، و أعطاها نور الدين بن قرة أرسلان ، و منَّ على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب . و في هذه المدة خرج عمادُ الدين و خرب قلعة اعزاز[1] ، و خرب حصن كفر لاثا ، وأخذها من بكمش ، فإنه كان قد صار مع السلطان في الثاني و العشوين من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، و قاتل باشر ، و كان صاحبها ولد رم البار و قد صار مع السلطان فلم يقدر عليها ، و جرت غارات من الإفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر و دفعهم الله تعالى و تسلم الكرزين[2] ، ثم عاد إلى حلب .

---

(١)عزّاز : بفتح العين – و هي الأرض الصلبة – و قد تقال بألف في أولها : بلدة قرب حلب في الجهة الشمالية الغربية . (٢) الكُرزين : قلعة في نواحي حلب بين نهر الجوز و البيرة .

﴿ذكر عود السلطان إلى الشام﴾

و لمّا عاد إلى الشام بدأ بتلّ خالد فنزل عليها و قاتلها و أخذها في الثاني و العشرين من محرّم سنة تسع و سبعين ، ثم سار طالباً حلب ، فنزل عليها في السادس و العشرين ، و كان أول نزوله بالميدان الأخضر و استدعى العساكر من الجوانب ، و اجتمع خلقٌ عظيم و قاتلها قتالاً شديداً ، و تحقق عماد الدين أنه ليس له قِبلٌ ، و كان قد ضرس[1] من اقتراح الأمراء وجَبْههم ، فأشار إلى حسام الدين طمان أنْ يسفر[2] له مع السُّلطان في إعادة بلاده و تسلُّم حلب إليه ، و استقرت القاعدة و لم يشعر أحدٌ من الرعية و لا من العساكر حتى تمَّ الأمر و استحكمت القاعدة ، واستفاض ذلك و استعلم العسكر منه ذلك ، فأعلمهم و أذنَ فعي تدبير أنفسهم و أنفذوا عنهم و عن الرعية عز الدين جرديك النوري و زين الدين فقعدوا عنده إلى الليل و استحلفوه على العسكر و على أهل البلد ، وذلك في السابع عشر من صفر ، و خرجت العساكرُ إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ، و مقدّمو حلب ، و خلع عليهم و طيَّبَ قلوبهم ، و أقلم عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله و ينقل أقمشتَه و خزائنَه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى السادس و العشرين من صفر و فيه ، توفي تاج الملوك أخوه من جُرْحٍ كان أصابه وشقَّ عليه أمرُ موته ، و جلس

---

(١)ضرِس : ضاق ذرْعاً .

(٢) يَسْفِر : بضم الفاء و كسرها : يُصلِح .

للعزاء و في ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته و عزّاه ، و تقررت بينهما قواعد و أنزلهم السلطان في الخيمة و قدم له تقدمة سَنِيّة و أخيالاً جميلة ، و خَلَعَ على جماعة من أصحابه . و صار عماد الدين من يومه إلى " قرا حصار " سائراً إلى سنجاب ، و صعد السلطانُ قلعةَ حلب مسروراً منصوراً . و عمل له حسام الدين طمان دعوة سنيّةً ، و كان قد تخلَّف لأخْذِ ما تخلف لعماد الدين من قماش و غيره ، و كان قد أنفذ إلى حارم مَنْ يستلمها ، و دافعهم الموالي ، و أنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه ، فحلف لهم ، و سار من وقته إلى حارم فوصلها في التاسع والعشرين من صفر و تسلَّمها ، و بات بها ليلتين ، و قرر قواعدها وولى فيها إبراهيم بن شرده و عاد إلى حلب ، و دخلها في ثالث ربيع الأول ، ثم أعطى العساكر دستوراً[١] و سار كلٌّ منهم إلى بلاده ، و أقام يقرر قواعد حلب و يدبّر أمورها .

﴿ذكر غزاة عين جالوت﴾

و لم يقمْ في حلب إلاّ إلى الثاني و العشرين من ربيع الآخر ، وأنشأ عزماً إلى الغزاة ، فخرج في ذلك اليوم مبرزاً نحو دمشق ، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ، و لم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى[٢] فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ، و نزل على جسر الخشب ،

(١)زوّدهم بأوامر و تعليمات و منهاج عمل .

(٢)عام ٥٧٩ هـ .

وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام به تسعة أيام ، ثم رحل في ثامن جمـــادى الآخرة ، و سار حتى أتى الفؤاد ، و تعبّى فيه للحرب و سار حتى نــزل القصير[1] ، فبات به و أصبح على المخاض ، و عبر و سار حتى أتـــى بيسان[2] ، فوجد أهلها قد رحلوا عنها و تركوا ما كان من ثقيل الأقمشـــة و الغلال و الأمتعة بها ، فنهبها العسكر و غنموا و حرقوا ما لم يمكـــن أخذه ، و سار حتى أتى الجالوت ، و هي قرية عامرة ، و عندها عيـــن جارية ، فخيم بها[3] ، و كان قد قدم عز الدين جرديك و جماعـــة مـــن المماليك النورية و جاولي مملوك أسد الدين ، حتى يكشفوا خبر الإفرنـــج فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك و الشوبك سائرين نجدة للإفرنج ، فوقع أصحابنا عليهم و قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا منهم زهاء مائة نفر، و عادوا و لم يفقد من المسلمين سوى شخص واحـــد ، يدعـــى بـــهرام الشاووش ، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة ، و هو العاشر من جمـــادى الآخرة ، فاستبشر المسلمون بالنصر و الظفر ، و لما كان السبت حـــادي عشر وصل الخبر إليه أن الإفرنج قد اجتمعوا في صفورية ، فرحلوا إلى الفولة و هي قرية معروفة ، و كان غرضه المصاف ، فلما سمع بذلـــك تعبى للقاء و رتب الأطلاب يمنة و يسرة و قلبا ، و سار للقاء العـــدو ، وسار الإفرنج طالبين المسلمين ، و وقعت العين في العيـــن ، و أخـــرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة ، فواقعوا الإفرنج ، و جـــرى قتال عظيم ، و قتل من العدو جماعة ، و هم ينضم بعضهم إلـــى بعض،

(١)القصير : بلدة من أعمال دمشق . (٢) مدينة بين حوران و فلسطين . (٣) عيـــن جـــالوت: موضع بفلسطين هزم الله فيه المغول و التتار على يد سيف الدين قطز الملك المشهور

يحمي راجلَهم فارسُّهم ، و لم يخرجوا للمصاف ، و لم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ، و نزلوا عليها و نزل السلطان حولهم ، و القتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف ، و هم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فإنهم في كسرة عظيمة ، و لما رأى أنهم لم يخرجوا رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف ، فرحل نحو الطور، و ذلك في السابع عشر من هذا الشهر[1] ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة ، و أصبح الإفرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ، ناكصين ، فرحل ـ رحمه الله ـ نحوهم، وجرى من رمي النشاب و استنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا و لم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها ، راجعين إلى بلادهم ، فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم ، و كان قد نال منهم بالقتل و الأسر ، وخربت عفربلا[2] و قلعة بيسان و زرعين و هي من حصونهم المذكورة و خربت عليهم قرى عديدة ، فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الغوار ، و أعطى الناس دستورا من أثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس الرابع و العشرين من هذا الشهر . فانظر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب و لا الظفر بها ، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فالله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا .

---

(١)جمادى الآخرة ٥٧٩ هـ .

(٢)عفربلا : بلد بغور الأردن قرب بيسان و طبرية .

﴿ذكر غزاة أنشأها إلى الكَرك[1]﴾

ثم إنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع و سبعين . و خرج مراراً نحو الكرك و كان قد سيّر إلى الملك العادل و هو بمصر يتقدّم إليه بالاجتماع به على الكرك ، فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقائه ، وسار حتى أتى الكرك ، ووافاه الملك العادل عليها ، و قد خرج معه خلقٌ عظيم من تاجر و غير تاجر ، و ذلك رابعَ شعبان من هذه السنة، وكان قد بلغ الإفرنجَ خبرُ خروجه فساروا براجلهم و فارسهم نحو الكرك للدفع عنه ، و لما انتهى ذلك إليه سيّر الملك المظفّر تقي الدين إلى مصر و ذلك في خامس عشر شعبان . و في السادس عشر منه نزلت الإفرنج على الكَرك ، و تزحزح السلطان عنه ، بعد أنْ قاتل قتالاً عظيماً عليه ، و قتل شرف الدين برغش النوري شهيداً .

﴿ذكر إعطائه أخاه الملك العادل حلب﴾

ثم رحل السلطانُ مستصحباً أخاه الملك العادلَ معه إلى دمشق لإياسه من الكرك بعد نزول الإفرنج عليها ، فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان و أعطى أخاه الملك العادل حلب ، بعد مقامه بدمشق إلى ثاني يوم من شهر رمضان ، و كان بها ولدهُ الملك الظاهر ، ومعه سيف الدين يازكج ، يدبر أمره ، و ابن العميد في البلد . و كان

(١) الكرك : قلعة حصينة بالأردن قرب البلقاء قريبة من بيت المقدس و البحر الأحمر .

الملك الظاهر من أحبّ الأولاد إلى قلبه لما قد خصّه الله به من الشـــهامة و الفطْنة و العقل و حسن السَّمْت و الشَّغف بالملك و ظهور ذلك كلّـــه ، وكان أبرَّ الناس بوالده ، و أطوعَهم له ، و لكنْ أخذَ منه حلبَ لمصلحـــة رآها ، فخرج من حلب لمّا دخل الملك العادل هو و يازكج سائرين إلـــى خدمة السلطان ، فدفع دمشق الثامن عشر من شوال ، فأقام في خدمة أبيه لا يُظهر له إلا الطاعة و الانقياد ، مع انكسار في باطنه لا يخفـــى عـــن نظر والده ، و في ذلك الشهر وَرَدْنا على السلطان رســـلاً مـــن جـــانب المَوْصل ، و كنّا قد توسَّلْنا إلى الخليفة النَّاصر لدين الله في إنفـــاذ شـــيخ الشيوخ بدر الدين رسولاً و شفيعاً إلى السلطان ، فسيّره معنا من بغـداد ، و كان غزيرَ المروءة عظيمَ الحُرْمة في دولة الخليفة، و في سائر البــلاد، و كانت مكانته عند السلطان بحيث يتردّد إليه إذا كان عنده فـــي معظـــم الأيام .

﴿ذكْرُ وصولنا إلى خدمته رسلاً﴾

و كان الشيخ قد وصل إلى الموصل و سار منـــها فـــي صحبـــة القاضي محيي الدين بن كمال الدين ، و كان بينهم صحبة من الصِّبَـــا ، وكنتُ مع القوم ، و سرْنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلـــى لقـــاءِ الشيخ ، و نحن في خدمته ، فلقيه عن بُعْدٍ ، و كان دخولنا إلى دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعدة من هذه السنة ، و لقينا من السلطان كـــلَّ

جميل فيما يرجع إلى الإكرام و الاحترام[1] ، و أقمنا أياما نراجع في فصل حال ، فلم يتفق صلح في الوقعة ، و خرجنا راجعين إلى الموصل و خرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصر ، و اجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل ، فلم يتفق . و كان الوقوف من جانب محيي الدين[2] فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا إربل و الجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال محيي الدين لا بد من ذكرهما في النسخة . فوقف الحال . و كان مسيرنا سابع ذي الحجة . و في تلك الدفعة عرض علي السلطان موضع البها الدمشقي بمصر على لسان الشيخ ، فاعتذرت و لم أفعل خوفا من أن يحال بوقف الحال علي ، و من تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لا أعرفه إلا بعد خدمتي له ، و أقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصل رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه في الانتماء إليه ، و رسول إربل ، و حلف لهما و سار . ووصل إليه أخوه الملك العادل رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيّد ، و توجه إلى حلب المحروسة .

﴿ذكر غزاة أخرى إلى الكرك﴾

وصل ابن قره أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين ، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما ، و أصعده إلى القلعة ،

---

(١) انضم ابن شداد إلى خدمة صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ ،كما مر في المقدمة ، و أصبح من رجاله وخواصه ، و لكنه كان يعرفه من قبل ، بل التقى معه منذ عام ٥٧٩ كما يفيد هذا الخبر .

(٢) يعزو سبب إخفاق المفاوضات بين الطرفين إلى موقف القاضي محيي الدين المتعنت المتصلب ، ولاسيما موقفه حيال صاحبي إربل و الجزيرة .

وباسطه و رحل معه طالباً دمشق في السادس والعشرين منه . و كان السلطانُ قد مرض أياماً ، ثم شفاه الله . و لمّا بلغه وصول قره أرسلان خرج إلى لقائه ، و كان السلطان يكارم الناسَ مكارمةً عظيمةً ، فالتقاه على عين الجسر بالبقاع ، و ذلك في تاسع ربيع الأوّل ، ثم عاد إلى دمشق و خلّف نور الدين واصلاً مع الملك العادل ، فتأهّب للغزاة ، وخرج مبرزاً إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول ، و في الرابع و العشرين منه وصل الملك العادل و معه ابنُ قره أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياماً ثمّ رحلا يلتحقان بالسلطان مِنْ رأس الماء طالباً للكَرَك ، فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المظفَّر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل إلى خدمته ، ومعه بيت الملك العادل وخزانته فسيّرهم إلى الملك العادل ، و تقدّم إليه والي بقيّة العساكر بالوصول إليه إلى الكَرك ، فتتابعت العساكرُ إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك ، وذلك في رابع جمادى الأولى ، و ركّب المجانيق على المكان ، و قد التقت العساكر المصرية و الشامية و الجزرية أيضاً مع قره أرسلان . و لمّا بلغ الإفرنج ذلك خرجوا براجلهم و فارسهم إلى الذبّ[1] عن الكرك ، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فإنّه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة[2]،

(١) الذبّ : الدفاع . (٢) كان أول مركز للعساكر و العتاد القادمين من أوربا فى الرُها (أورفا) ،فلما استعادها عماد الدين زنكي منهم جعلوا الكرك مركز تجمّعاتهم و أثقالهم و عتادهم ،وكان هذا المركز هو المسؤول عن حماية القدس التي استحوذوا عليها في الحملة الصليبية الثأنية ،وأيضاً كان هذا الحِصْن ومعه قلعة الشّوْبك ،مأذاة للقوافل المسلمة المتنقلة بين الشّام و مصر .ولهذه الأسباب جعل صلاح الدين وُكْدَه أن يضرب هذا الحصن ،إلى أنْ تمكّن منه يوم حطين ٥٨٣ هـ .

فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر . و لما بلغ السلطان خروج الإفرنج تعبأ للقاء ، و أمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك ، وسير الثقل نحو البلاد ، و بقي العسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد العدو . و كان الإفرنج قد نزلوا بموضع يقال له "الواله" و سار حتى نزل على قرية يقال لها "حسبان" قبالة الإفرنج ، و رحل منها إلى موضع يقال له ماء عين ، و الإفرنج مقيمون بالواله ، إلى السادس و العشرين من جمادى الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العساكر وراءهم ، فقاتلهم إلى آخر النهار . و لما رأى ـ قدس الله روحه ـ تصميم الإفرنج على الكرك أمر العساكر أن دخلوا الساحل لخلوه من العساكر ، فهجموا نابلس و نهبوها و غنموا مافيها و لم يبق فيها إلا حصناها ، وأخذوا "جانين" و التحقوا بالسلطان برأس الماء ، و قد نهبوا و أسروا وأحرقوا و خربوا ، و اتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الأخرى ، و معه الملك العادل و نور الدين بن قره أرسلان فرحا مسرورا ، و أكرمه و احترمه و أحسن إليه . و في هذا الشهر وصل رسول الخليفة ، و معه الخلع فلبسها السلطان ، و ألبس أخاه الملك العادل و ابن أسد الدين خلعاً جاءت لهم ، و في الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قره أرسلان ،وأعطاه دستوراً و أعطاه العساكر ، و في هذا التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل و عسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على إربل ، و أنهم نهبوا و أحرقوا و أنه نُصِرَ عليهم و كسرهم .

﴿ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل في الوقعة الثانية﴾

و لما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد و تقدم إلى العساكر فتبعته ، و سار حتى أتى حران على طريق البيرة ، و التقى مع مظفر الدين بالبيرة ، في الثاني عشر من محرم سنة إحدى و ثمانين وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب ، أن يسير في مقدمة العساكر إلى "رأس العين" و وصل السلطان حران الثاني و العشرين من صفر . و في السادس و العشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه و حديث كان بلغه عنه رسول ، فلم يقف عليه وأنكره ، فأخذ منه قلعة حران و الرها ثم أقام في الاعتقال تأديبا إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه ، و طيب قلبه و أعاد إليه قلعة حران و بلاده التي كانت بيده ، و أعاده إلى قانونه في الإكرام و الاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ، ووعده بها ، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل و ماردين ، و أنهم على ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك ، فرحل السلطان يطلب دنيسر ، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قره أرسلان ، و معه عسكر نور الدين صاحب ماردين فالتقاهم و احترمهم ، ثم رحل من دنيسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعا يعرف بالإسماعيلان قريب الموصل ، بحيث يصل من العسكر

كلّ يوم نوبة جديدة يحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قره أرسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه فأعطاه دستوراً .

﴿ذكر موت شاه أرمن صاحب خِلاط﴾

و لما كان ربيع الآخر سنة إحدى و ثمانين توفّيَ شاه أرمن صاحب خلاط[1] ، ووَلِيَ بعده غلامه بكتمر ، و هو الذي وصل رسولاً إلى خدمة السلطان بسنجار ، فعدل و أحسن إلى أهل خلاط ، و كان متصوّناً في طريقته فأطاعه الناس و مالوا إليه . و لما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز . فلما بلغه ذلك سيّر إلى خدمة السلطان مَنْ يقرر معه تسليم خِلاط إليه و اندراجه في جملته و إعطاءه ما يرضيه ، فطمع السلطان في خِلاط ، و ارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها ، و سيّر إلى بكتمر الفقيه عيسى ، و عزّ الدين قليج لتقرير القاعدة و تحريرها ، فوصلت الرسل و بهلوان قد قارب البلاد جدّاً ، فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان إصلاحه[2]، و زوّجه ابنة له ، وولاّه و أعاد البلاد إليه ، و اعتذر إلى رسل السلطان و عادوا من غير زبدة . و كان السلطان قد نزل على ميَّا فارقين فحاصرها ، و قاتلها قتالاً شديداً ، و نصب عليها مجانيق و كان

(١)قصبة أرمينية الوسطى ، فيها بحيرة مشهورة .

(٢)أي طلب بهلوان بن الدكز مصالحة بكتمر بن شاه أرمن صاحب خِلاط . و كان البهلوان (محمد بن الدكز) صاحب بلاد الري و أصبهان و أذربيجان . مات سنة ٥٨٢ هـ .

بها رجل يقال له الأسد ، و ما قصر في حفظها ، لكن الأقدار لا تُغْلب ، فملكها السلطان في التاسع و العشرين من جمادى . و لما أيسَ من أمر خلاط عاد إلى الموصل فنزل بعيداً عنها و هي الوقعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار ، و كان الحرُّ شديداً ، فأقام مدَّةً و في هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، و اجتمع به فأعاده إلى بلده و مرض رحمه الله بكفر زمار مرضاً شديداً ، خاف من غائلته ، فرحل طالباً حرّان و هو مريض و كان يتجلّد و لا يركب محفّة ، فوصل و هو شديد المرض وبلغ إلى غاية الضعف ، و أيس منه ، و أُرجف[1] بموته ، فوصل إليه أخوه من حلب و معه أطباؤه .

﴿ذكر صلح المَوَاصلة معه﴾

و كان سبب ذلك أنّ عز الدين أتابك صاحب الموصل سيّرني إلى الخليفة يستنجده فلم يحصل منه زبدة ، فلما وصلتُ من بغداد ورددْتُ جواب الرسالة أيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة و علموا سرعة انقياده ورقَّة قلبه في ذلك الوقت فندبوني لهذا الأمر و بهاء الدين الربيب و فوّض إليَّ أمر النسخة التي حلَفَ بها ، وقالوا أمضيا ما يصل إليه جهد كما وطاقتكما . فسرنا حتى أتينا العسكر و الناسُ كلهم آيسون من السلطان ، و كان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمَنا احتراماً عظيماً ، و جلس لنا ، و كان أول جلوسه من مرضه ،

(١) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيئة .

و حلف في يوم عرفة ، و أخذنا منه بين النهرين ، و كان أخَذَهـا مـن سنجر شاه ، فأعطاها المواصلة و حلفته يميناً تامة و حلفت أخاه الملـك العادل و مات ــ قدس الله روحَه ــ و هو على ذلك الصُّلْح لـم يتغـير عنه، وسرنا معه و هو بحران و قد تماثل ، ووصله خبر موت ابن أسـد الدين صاحب حمص ، و كانت وفاته يوم عرفة ، و جلس الملك العـادل للعزاء. و في تلك الأيام كانت وقعة التركمان مع الأكراد ، و قتل بينـهم خلق عظيم . و في هذا الشهر وصل خبرُ وفاة بهلوان بن الدكز ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

﴿ذكر عود السلطان إلى الشام﴾

و لمّا وجد السلطان نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلـب ، وكان وصوله إليها رابع عشر محرم سنة اثنتين و ثمانين و كـان يومـاً مشهوداً لشدة فرح الناس بعاقبته و لقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحـل نحو دمشق و لقيه أسد الدين شيركوه محمد شيركوه[٢] بتـل السـلطان ، ومعه أخته ، و قد صحبه خدمة عظيمة ، فمنَّ عليه بحمـص ، و أقـام أياماً يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، و كان دخوله إليـها في ثاني ربيع الأول ، و كان يوماً لم ير مثله فرحاً و سروراً ، ووقعـت في هذا الشّهر وقعات كثيرة بين الـتُّرْك و الأكـراد بـأرض نصيبيـن وغيرها، و قتل من الفئتين خَلْقٌ عظيم ، و بلغ السلطان أنَّ معين الدين قد

(٢) أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه : كان صاحب حمص ، كأبيه وجدّه ، شجاعاً ، لـه علم بالحديث ، و شارك في وقائع ثغر دمياط (٦١٥-٦١٨ هـ) مات بحمص عام ٦٣٦ هـ .

عصا بالراوند ، فكتب إلى عسكر حلب أنْ حاصروه . و في ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من الراوند و قد سلمها إلى علم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمة السلطان . و في سابعَ عشَر وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، و لم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

﴿ذكر مسير الملك العادل إلى مصر ووصول الملك الظاهر إلى حلب﴾

و ذلك أن السلطان رأى ذهاب الملك العادل إلى مصر ، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفّر ، ليزيل تقاويضها بذلك[1] ، و هو على حرّان مريض ، و قد حصل ذلك في نفس الملك العادل ، فإنّه كان يحبّ الديارَ المصرية ، فلما عاد السلطانُ إلى دمشق و منّ الله بعافيته ، سيّر يطلبُ الملكَ العادلَ إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة[2] في الرابع والعشرين من ربيع الأول ، و سار حتى أتى دمشقَ ، فأقام بها في خِدْمة السلطان ، فجرت بينهما أحاديثُ و مراجعات في قواعد تقرير إلى جمادى الآخرة ، و استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر وتسليم حلب ، و سيّر الصّنيعة لإحضار أهله من حلب ، و كان الملك الظاهر أيّده الله و الملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرّت القاعدة على عَوْدِ الملك العادل إلى مصر استقرت على أن يكونَ أتابَكَ الملك العزيز ، وسلّمه والده إليه يربّي أمره ، و سلّم الملك العادل حلبَ إلى الملك الظاهر . و لقد قال لي الملك العادل إنه لما استقرت عليه هذه

---

(١) قاض البناءَ و قوّضه : هدمه .وقوّض الصفوف : فرّقها أي وجّه أخاه الملك العادل إلى مصر ليُصلّح منآدها و يلمّ شعثها ، لخبرته القديمة بأحوالها .(٢)الجريدة :خيل لا رجّالة فيها .

القاعدة و اجتمعت بخدمة الملك العزيز و الظاهر[١] ، و جلست بينهما قلت للملك العزيز يا مولاي إن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر ، و أنا أعلم أن المفسدين كثير وغداً لا يخلون مِمّن يقول عني مالا يجوز و يخوفّونك مني ، فإنْ كان لك أُذُنٌ تسمعُ فقل لي حتى لا أجيء فقال لا أسمع ، و كيف يكون ذلك ؟ . ثم التفتُّ و قلتُ للملك الظاهر: أنا أعرف أن أخاك ربمّا يسمع فيَّ أقوال المفسدين ، و أنا فمالي إلا أنت ، متى ضاق صدري من جانبه . فقال مُبارك ،و ذكر كلَّ خير . ثم إن الملك الظاهر سيّره والده إلى حلب ليعلمه أن حلب هي أصل الملك و جرثومته و قاعدته ، و لهذا دأبْتُ في طلبها ذلك الدأب . و لما جعلت أعرض عما عداها من بلاد المشرق ، و قنع منهم بالطاعة و المعونة على الجهاد ، فسلمها إليه علماً منه بحذَاقتِه و حَزْمه و حفظه و ثباته وعلو همته[٢] . فسار إليها حتى العين المباركة ، و سيّر في خدمته الشحنة حسام الدين بشارة وواليا عيسى بن بلاشوا ، فنزل بعين المباركة، و خرج الناس إلى لقائه في بكرة تاسع جمادى الأخرى ، و صعد القلعة ضحوة نهار و فرح الناس به فرحاً شديداً و مد على الناس من جناح عَدْله ، و أفاض عليهم وابل فضله . و أما الملك العزيز و الملك العادل

---

(١) يريد أنه اجتمع بالملكين : الملك العزيز و الملك الظاهر .

(٢)الملك الظاهر الأيوبي : غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب :ولد بالقاهرة،وولاّه أبوه على حلب سنة ٥٨٢هـ ،فبقي والياً لها إلى أن مات سنة ٦١٣هـ عن خمس و أربعين سنة، فدفن في قلعة حلب كان حازماً مهيباً ،عمرت دولته بالعلماء والعظماء ، وحضر معظم غزوات والده .

فإنّ السلطان قرر حالتهما و كتب إلى الملك المظفر[١] يخبره بمسير الملك العزيز و هو صحبة عمه ، و يأمره بالوصول إلى الشام ، و شق ذلك عليه حتى أظهر للناس ، و عزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقا ، فقبح ذلك عليه جماعةٌ من أكابر الدولة ، و عرّفوه أن عمه السلطان يخرجُ من يده في الحال و الله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فرأى الحقّ بعين البصيرة ، و أجاب بالسمع و الطاعة ، و سلم البلاد ورحل و اصلاً إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان إلى لقائه و فرح بوصوله فرحاً شديداً ، و ذلك في الثالث و العشرين من شعبان و أعطاه حماة ، و سار إليها ، و كان قد عقد بين الملك الظاهر و بعض بنات الملك العادل عقد نكاح ، فتمم ذلك و دخل بها في السادس و العشرين من شهر رمضان ، و دخل الملك الأفضل[٢] على زوجته بنت ناصر الدين ابن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .

﴿ذكر غزاة أنشأها إلى الكَرك﴾

و لما كان محرم سنة ثلاث و ثمانين عزم على قصد الكَرك فسيّر إلى حلب من يستحضر العسكر و برز من دمشق في منتصف محرم ،

(١) الملك المظفّر : عمر بن شاهنشاه بن أيوب ،ابن أخي صلاح الدين الأيّوبي ،ولاّه عمه حماة سنة ٥٨٢هـ ،وكانت له مواقع ضد الإفرنج ،و ناب عن عمه في الديار المصرية ،قبل ولايته على حماة ،كان له فضل و أدب و شعر . مات عام ٥٨٧ هـ .

(٢) الملك الأفضل نور الدين :علي بن يوسف (صلاح الدين) ،ملك دمشق بعد وفاة أبيه(٥٨٩هـ) ،ثم ولي صرخد لعمه العادل،و أدار شؤون مصر نيابة للمنصور بن العزيز (وهو ابن أخي الأفضل) وآخر ما قام به ولاية سميساط .كان عالي الشمائل ،أديباً كاتباً ،مات سنة ٦٢٢ هـ .

فسار حتى نزل بأرض نيطرة منتظـــراً اجتمـــاع العســاكر المصريـــة والشامية، و أمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارات علـــى مــا فـــي طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك ، و أقام بأرض الكـــرك حتـــى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، و أمنوا غائلة العدوّ ، ووصل قفل مصر الشتوي ، ووصل معه بيت الملك المظفر ، و ما كان له بالديار المصرية و تأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالإفرنج بأرض الأرمـــن من بلاد ابن لاون ، و ذلك أنه قد مات ملك الإفرنج ووصى لابن أخيـــه بالملك ، و كان الملك المظفّر بحماة ، و بلغ السلطان الخـــبر ، فـــأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو ، و إخماد ثائرتهم و سار الملك المظفر بعسكـــر حلب إلى حارم فأقام بها ، ليعلم العدوّ أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعـــاد السلطان إلى الشام ، و نزل بعشترا في السابع عشر من ربيـــع الأول ، ولقيه والده الملك الأفضل(١) و مظفر الدين بـــن زيـــن الديـــن و جميـــع العساكر . و كان قد تقدّم إلى الملك المظفَّر بمصالحة الجانب الحلبي مـــع الإفرنج ، ليتفرغ البالُ مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم في العشـــر الأواخر من ربيع الأول ، و توجّه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغـزاة التي عزم عليها ، فسار و من اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته ، و هم عسكر الموصل مقدمتهم مسعود بن الزعفراني ، و عسكر مـــاردين فلقيهم السلطانُ في العشر الأواسط من ربيع الآخر فـــأقرهم وأكرمـــهم ، وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لأمر قد عزم عليه على

---

(١) الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي والد صلاح الدين الأيوبي .

تل يعرف بتل تسيل و تقدّم إلى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم ، و إلى أصحاب الميسرة بذلك ، و إلى القلب بمثله .

﴿ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين﴾

و ذلك أن السلطان رأى أنَّ نعمة الله عليه باستقرار قدَمهِ في الملك ، و تمكين الله إياه في البلاد ، و انقياد الناس لطاعته و لزومهم قانونَ خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد و الاجتهاد ، إلى إقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر و استحضرها ، واجتمعوا إليه بعشترا ، في التاريخ المذكور ، و عرضهم ورتَّبهم ، واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في نهار الجمعة سابعَ عشر ربيع الآخر ، و كان أبداً يقصد بوقعاته الجمعَ ، سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبرّكاً بدعاءِ الخطباءِ على المنابر ، فربما كانتْ أقربَ إلى الإجابة[1]، فسار في ذلك الوقت ، على تعبية الحرب ، و كان بلغه أنّ العدوَّ لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية ، بأرض عكا ، و قصدوا نحو المصافّ معهم ، فسار و نزل من يومه على بحيرة

(١)عن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ يوم الجمعة سيد الأنام و أعظمها عند الله ، و هو أعظم عند الله من يوم الأضحى و يوم الفطر ، و فيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم ، و أهبط الله فيه آدم إلى الأرض ، و فيه تَوفَّى الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ، ما لم يسأل حراماً .." الحديث . قال المنذري : رواه أحمد و ابن ماجه ، و رواه البزار أيضاً من طريق آخر " [التقرب إلى الله تعالى للشيخ عبد الله سراج الدين (ط٢) ٣٥١] . و قيل : الساعة التي لا يسأل الله فيه العبدُ شيئاً إلاّ أعطاه إياه : هي قبل نزول الخطباء مِنْ فوق المنابر ، أي حين دعاء الخطباء يوم الجمعة ، بعد الخطبتين . و قيل : هو وقت الأصيل (أي ما بين العصر و المغرب) .

طبرية ، عند قرية تسمى الصبارة ، و رحل من هناك و نزل غربي طبرية ، على سطح الجبل ، بتعبية الحرب ، منتظرا أن الإفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم ، و كان نزوله في هذه المنزلة يوم الأربعاء الحادي و العشرين ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية و ترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ، و نازل طبرية ، و زحف عليها فهجمها و أخذها في ساعة من نهار ، و امتدت الأيدي إليها بالنهب و الأسر و الحريق و القتل ، و احتمت القلعة وحدها.

و لما بلغ العدو ما جرى على طبرية ، لم يأخذهم الصبر دون الحمية ، فرحلوا من وقتهم و ساعتهم ، و قصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الإفرنج ، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، و لحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني و العشرين[1]، و حال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف ، شاكي السلاح[2] إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين، فركب العسكران و تصادما ، و عملت الجاليشية ، وتحركت الأطلاب ، و التحم القتال و اشتد الأمر ، و ذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، و ضاق الخناق بالقوم هذا و هم سائرون ، كأنما يساقون إلى الموت و هم ينظرون . و قد أيقنوا بالويل و الثبور[3] . و أحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور . و لم يزل الحرب يلتحم . و الفارس مع قرنه

(١)أي الثاني و العشرين من شهر ربيع الثاني عام ٥٨٣هـ = [٢٢/٤/٥٨٣هـ]

(٢)شاكي السلاح : كاملي السلاح .(٣) الويل : الهلاك . و الثبور : الهلاك و الموت .

يصطدم . حتى لم يبق إلا الظفر . ووقع الوبال على مَنْ كفـــر . فحـال بينهما الليل و ظلامه ، و جرى في ذلك اليوم مـــن الوقـائع العظيمـة، والأمور الجسيمة . ما لم يُحْكِ عمّن تقدم ، و بات كل فريق في ســلاحه ينتظر خصمه في كلّ ساعة و قد أقعده التعب عن النـــهوض . و شـغله النَّصَبُ عن الَحبْو ، فضلاً عن الركوض ، حتى كان صباح السبت الـذي بورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، و علمـــت كـل طائفــة أن المـكسورة بينهما مدحورة الجنس ، معدومة النفس . و تحقق المسـلمون أنّ من ورائهم الأردن ، و من بين أيديهم بلادُ القوم و أنْ لا يُنجيــهم إلا الله تعالى ، و كان الله قد قدر نصر المؤمنين و يسَّره . و أجـــراه علـــى وَفْق ما قدّره . فحملَت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، و حَمَلَ القلـبُ، و صاحوا صيحةَ الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكـافرين . و كان حقاً علينا نَصْرُ المؤمنين . و كان القومص ذكيَّ القوم و أطغـاهم، فرأى أمارات الخِذْلان قد نزلتْ بأهل دينه ، و لم يشغلْه ظـــنّ محاســنة حبسه عن تعبية ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده و أخذ طريقه نحــو صور ، و تبعه جماعةٌ من المسلمين فنجا وحدَه . و أمِنَ الإسلامُ كيــدَه ، و احتاط[1] أهلُ الإسلام بأهل الكفر و الطغيان من كل جانب ، و أطلقــوا عليهم السّهامَ ، و عاملوهم بالصفاح ، و انهزمت منهم طائفـــةٌ ، فتبعــها أبطالُ المسلمين ، فلم ينجُ منها واحدٌ ، و اعتصمت الطائفةُ الأخرى بتــلٍّ يقال له تل حطين ، و هي قرية عنده ، و عندها قبر شُعَيْبٍ عليه الصلاة

(١)طوّق .

و السلام ، و على سائر الأنبياء ، فضايقهم المسلمون على التلّ و أشعلوا حواليهم النيران ، و قتلهم العطشُ ، و ضاق بهم الأمر حتى كلُّوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأُسِر مقدَّمُوهم ، و قُتل الباقون وأُسِرُوا ، و كان فيمن سَلِمَ و أُسِرَ مِنْ مُقدَّميهم الملك جفري و البرنس أرناط و أخو الملك ، و البرنس هو صاحب الشوبك ، و ابن الهنفري وابن صاحب طبرَية ، و مقدّم الداوية ، و صاحب جبيل ، و مقدَّم الإسبتار[١]، و أما الباقون من المقدّمين فانهم قُتلوا ، و أمّا الأدوان[٢] فانهم قُسِموا إلى قتيل و أسير ، و لم يسلم منهم إلا من أسر ، و كان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه ، و لقد حكى لي مَنْ أثقُ به أنّه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب[٣] خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً أخذهم وحده لخذلانٍ وَقَعَ عليهم . فأما الذين بَقُوا مِنْ مقدّميهم فنذكرُ حديثَهم : أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، و أصابته ذات الجنب ، فأهلكه الله بها . وأما مقدم الإسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقُتِلُوا عَنْ بَكْرةِ أبيهم . و أما البرنسُ أرناط فكان السلطانُ قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، و ذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم و قتلَهم ، فناشدوه اللهَ و الصّلحَ الذي بينه و بين المسلمين . فقال : ما يتضمن الاستخفافَ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم . و بلغ ذلك

(١)الملك ، و البرنس ، و القومص ... : ألقاب و مراتب لقادة الجيش الصليبي . و الإسبتارية والداوية من أسماء فرقهم الانتحارية الفدائية . (٢) الأدوان : جمع دون أي عناصر الجيوش الصليبية وأفرادها .
(٣) الطُّنُبُ : حبل الخيمة ، يريد أنه قد ربطهم جميعاً بحبل واحد ، مع أنه واحد و هم ثلاثون و يزيد .

السلطانَ فحمله الدّينُ و الحميّةُ على أنه نذر إن ظفر به قتله . و لما فتح الله بالنّصر و الظَّفر جلس السلطانُ في دِهليزِ الخيمة ، فإنها لم تكن نُصِبَتْ ، و الناس يتقرّبون إليه بالأسرى ، و مَنْ وجدوه من المقدَّمين ، ونُصبت الخيمة ، و جَلَسَ فرحاً مسروراً ، لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفري و أخاه و البرنس أرناط ، و ناول الملك جفري شربةً من حلاب بثلج ، فشرب منها ، و كان على أشدّ حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنتَ الذي سقيتَه ، و أما أنا فما سقيتُه . و كان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أنّ الأسيرَ إذا أكل أو شرب مِنْ ماء لمَنْ أسره أَمِنَ بذلك ، جَرْياً على مكارم الأخلاق . ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضَوا و أكلوا شيئاً ، ثم عادوا فاستحضرهم و لم يبق عنده سوى بعض الخدم و أقعد الملكَ في الدّهليز و استحضر البرنسَ أرناط ، و أوقفه على ما قال ، و قال له: ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة و السلام . ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل . ثم سلَّ النمجاة و ضربه بها فحلَّ كتفه ، و تمّم عليه مَنْ حضر ، و عجّل الله بروحه إلى النار ، فأُخِذَ و رُمِيَ على باب الخيمة . فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشكّ أنّه يثنّي به ، فاستحضره و طيَّب قلبه ، و قال : لم تجر عادة الملوك أنْ يقتلوا الملوك . و أما هذا فإنه تجاوز حدَّه ، فجرى ما جرى . و باتَ الناسُ في تلك الليلة على أتمّ سرور ، و أكمل حبور . ترتفع أصواتهم بالحمد لله و الشكر له و التكبير ، و التهليل ، حتى طلع الصبحُ في يوم

الأحد[1]، و تسلَّم ــ قدس الله روحه ــ في بقية ذلك اليوم قلعةَ طبريّــةَ ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاءِ . ثم رحل طالباً عكَّا و كان نزوله عليها يــوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر[2]، و قاتلها يــومَ الخميــس مســتهلَّ جُمــادى الأولى، فأخذ و استَنفذَ مَنْ كان فيها من الأسارى ، و كانوا زهاء أربعــة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأمــوال و الذخــائر و البضــائع والتجائر ، فإنها كانت مظنّة التّجّار ، و تفرّقت العساكر في بلاد السَّـاحل يأخذون الحصون و القلاع و الأماكن المنيعة ، و أخذوا نــابلس و حيفــا وقيسارية و صفورية و الناصرة ، و كان ذلك لخلوّها عن الرجال بــالفَتْك و الأسر. و لما استقرت قواعد عكا و اقتسم الغانمون أموالَها و أُسَــاراها سار يطلب تبنين[3]، فنزل عليها يوم الأحد ثاني عشرَ جُمادى الأولــى ، وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المجانيق ، و ضيّــق عليــها بــالزحف الخِناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينــهم[4]، فاحتــاجوا إلــى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم ، و تسلّمها ثامن عشر عَنْوةً[5]، و أســر مَنْ بقي بها بعد القتل . ثم رَحلَ منها إلى صيدا ، فنزل عليها و من الغــد تسلَّمها ، وأقام عليها بحيث قرّر قاعدتَها[6]. ثم سار حتى أتــى بــيروت فنازلها في الثاني و العشرين ، فركب عليها القتال و الزحف ، و ضيــق عليهم الأمر، حتى أخذها في التاسع و العشرين[7]، و تسلم أصحابه جُبيلاً

---

(١)فمعركة حطين استغرقت يومين : الجمعة و السبت : الثالث والعشرين والرابع والعشرين مــن ربيع الثاني ٥٨٣هــ .(٢)سلخ : آخر . (٣) تبنين : قرب بانياس الحورانية ، بين دمشق وصور. (٤)أي كان فيها نصارى متعصّبون شديدو الحرص على الدفــاع عنــها.(٥)عَنْــوةً : بــالقوّة لا بالمفاوضات ولا بالصلح .(٦)قرّر قاعدتها : أقام فيها حامية من المسلمين ، يديــرون شــؤونها ويدافعون عنها.(٧)استعاد بيروت في التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣هــ .

و هو أعلى بيروت . و لما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها و مارسها ، لأن العسكر كان قد تفرّق في الساحل ، و ذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئا ، و كانوا قد ضرسوا من القتال ، و ملازمة الحرب ، و كان قد اجتمع في صور كل أفرنجي بقي في الساحل ، فرأى قصد عسقلان ، لأن أمرها كان أيسر ، و نازلها في السادس و العشرين من جمادى الآخرة ، و تسلم في طريقه مواضع كثيرة ، كالرملة و بينا و الدارون ، وأقام عليها المنجنيقات ، وقاتلها قتالا شديدا ، و تسلمها سلخ هذا الشهر و أقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة و بيت جبرين و النطرون بغير قتال ، و كان بين فتوح عسقلان و أخذ الإفرنج لها من المسلمين خمس و ثلاثون سنة ، فإن العدو ملكها في سبعة و عشرين من جمادى الأخرى سنة ثمان و أربعين و خمسمائة .

﴿ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى﴾

ولما تسلم عسقلان و الأماكن المحيطة بالقدس ، شمر عن ساق الجد و الاجتهاد في قصده ، و اجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها[1] من النهب و الغارة ، فسار نحوه معتمدا على الله مفوضا أمره إليه ، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه صلى الله عليه وسلم بقوله " من فتح باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى

---

(١)لبانة (بضم اللام) : حاجة .

يُغْلَقُ دونه "[1] و كان نزوله عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث و ثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي و كان مشـحوناً[2] بالمقاتلـة والخيّالة و الرجالة . و لقد تجاوز أهل الخبرة عِدّة[3] من كان فيـه مـن المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساءَ و الصبيـان. ثـم انتقـل ـرحمه الله ـ لمصلحة رآها إلى الجـانب الشـمالي و نصـب عليـه المجانيق و ضايقه بالزحف للقتال و كثرة الرماة ، حتى أخذ النقب فـي السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية . و لما رأى أعـداء الله مـا نَزَل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم و ظهرت لـهم أمـارات نُصـرة الحق على الباطل و كان قد أُلقِي في قلوبهم الرُّعْبُ ممـا جـرى علـى أبطالهم و رجالهم من السَّبيِ و القَتْل والأسر ، و ما جرى على حصونهم من الاستيلاء و الأخذ ، علموا أنهم إلى ما صـاروا إليـه صـائرون ، وبالسيف الذي قُتل به إخْوانُهم مقتولون، فاستكانوا و أَخْلَدُوا إلـى طلـب الأمان ، و استقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين .

و كان تسلّمه القدس ـ قدس الله روحه ـ في يوم الجمعة السـابعَ والعشرين من رجب ، و ليلة كانت ليلة المعراج المنصوص عليها فـي القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتّفاق العجيب ، كيف يسَّر الله عَوْدَه إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيّهم صلى الله عليه وسلم ؟ وهذه علامةُ قَبُولِ هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيماً شـهده مِـنْ أهل العلم خلقٌ عظيم و من أرباب الحِرَف و الطُّرُقِ .

(١)رواه ابن المبارك عن حكيم بن عمير مرسلاً ، و ابن شاهين عن عبد الله عن أبيه عن جـدّه عن حذيفة رضي الله عنه [كنز العمال ٤٣١٣٤].(٢)مشحوناً : ممتلئاً .(٣)عدّة : عدد .

و ذلك أن الناس لما بلغهم ما يسّر الله على يده من فتوح الساحل، و شاعَ قَصْدُه القدس ، قصده العلماءُ من مصر و من الشام ، بحيث لـم يتخلَّفْ معروف[1] من الحضور ، و ارتفعت الأصوات بالضجيج والدُّعاء و التهليل و التكبير، و خطب فيه و صُلّيت فيه الجُمُعةُ يومَ فتحه . و حُطَّ الصليبُ الذي كان على قبة الصخرة ، و كان شكلاً عظيماً ، و نصـو الله الإسلام نصْرَ عزيزٍ مقتدر .

و كانتْ قاعدةُ الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عـن كـل رجـل عشرةَ دنانير ، وعن كل امرأة خمسةَ دنانير صورية ، و عن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر القطيعةَ سلَّم نفسَـه ، وإلا أُخـذ أسيراً ، و فرّج الله عمّن كان أسيراً من المسلمين ، و كان خلقاً عظيمـاً زهاءَ ثلاثة آلاف أسير ، و أقام رحمه الله يجمع الأموال و يفرّقها علـى الأمراءِ و العلماءِ ، و إيصال مَنْ دَفع قطيعتَه منهم إلـى مأمنـه و هـو صور .

و لقد بلغَني أنه رَحَل عن القدس و لم يبق له من ذلك الملك شيءٌ، و كان مئتي ألف دينار و عشرين ألف دينار ، و كان رحيله يوم الجمعـة الخامس و العشرين من شعبان[2].

---

(١)معروف : مشهور . أي لم يبق عالم و لا أمير و لا ذو شهرة إلا جاء ليدخل القدس مع جيش صـلاح الديـن ، ويفرح بهذا النصر المبين .(٢)و قال القاضي هبة الله بن سناء الملك يهنئ صلاح الدين بفتح القدس :

لستُ أدري بـأيِّ فتـح تـُهَنـّا   يـا مـنيل الإسـلام مـا قـد تـمنَّـى
أنُـهنّيـكَ إذ تمـلّكـتَ شـامـاً   أم نُـهنّيـك إذ تمـلـّكـتَ عـدْنـا
قـد ملـكتَ الجنانَ شِبْراً فشبـراً   إذْ فتـحـتَ الشـآم حـصْناً فحِصْنـا
قصَدتْ محوكَ الأعادي فـردَّ الله   مـا أمّـلّوه عـنـك و عـنّـا
لا تَخُصُّ الشآمَ مـنكَ التـهانـي   كـل صُـقْع و كـلّ قـُطْرٍ يُـهـنَّـا

﴿ذكر قصده صور﴾

و لما ثَبَتَتْ قدَمُ السلطان بملك القُدْس و الساحل قَوِيتْ نَفْسُه على قَصْد صور ، و علم أنه إنْ أخَّر أمرَها ربّما اشتدّ ، فرحل سائراً إليها حتى عكا فنزل عليها ، و نظر في أحوالها ، ثم رحل متوجّهاً إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، و سار حتى أشرف عليها و نزل قريباً منها ينتظر وصولَ آلات القتال ، و كان لما تحرّر عزمُه على قصد صور سَيَّر إلى ولده الملك الظاهر يستحضرهُ ، و كان قد تركه بحلب ، ليسدَّ ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدِمَ عليه في الثامنَ عشر ، على تلك المنزلة و سُرَّ بوصوله سروراً عظيماً .

و لما تكاملتْ عنده آلاتُ القتال من المجانيق و الدبّابات و الستائرِ و غير ذلك نزل عليها في الثامن و العشرين و ضايقها و قاتلها قتالاً عظيماً و استدعى أسطولَ مصر ، و كان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدْس ، يقرر قواعده ، فاستدعاه فوصل إليه في خامس شوال ، و سيَّر مَنْ حاصر هونين(١)، فسلمت في الثالث والعشرين من شوال .

﴿ذكر كسرة الاسطول﴾

و ذلك أنه قدم على الأسطول إنسان يقال له الفارس بدران ، وكان ناهضاً جَلْداً في البحر ، و كان رئيسُ البحريين يقال له عبد المحسن ،

(١)هُونين : بلد في جبال عاملة مطلّ على نواحي مصر .

وكان قد أكّد عليهم الوصية ، و أَخْذَ حذرهم و تيقّظهم ، لئلا تُنتهز منهم فرصةٌ فخالفوه ، و غفلوا عن أنفسهم في الليل ، فخرج أسطولُ الكفار من صُور و كبسوهم ، و أخذوا المقدَّمين مع خمس قطع ، و قتلوا خَلْقاً عظيماً من الأسطول الإسلامي ، و ذلك في السابع و العشرين من شوال، فلما علم السلطانُ ما تمَّ على المسلمين ضاق عَطَنُه[1]، و كان قد هجمَ الشتاءُ و تراكمت الأمطار و امتنع الناس من القتال من شدة المطر فجمع الأمراء و استشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذَ العسكرُ جزءاً من الرَّاحة و يستعدّوا لهذا الأمر استعداداً جديداً ، فرأى ذلك رأياً و رحل عنها ، بعد أنْ رمى المنجنيقات و سيَّرها و أحرق ما لا يمكن نقله ، و كان رحيله ثاني ذي القعدة من هذه السنة ففرّق العساكر وأعطاها دستوراً ، و سار كل قوم إلى بلادهم ، و أقام هو مع جماعة مِنْ خواصّه بعكّا ، حتى دخلت سنة أربع و ثمانين .

﴿ذكر نزوله على كوكب﴾

و لّما دخلت عليه السنة المباركة رأى الاشتغالَ بالحصون الباقية لهم مما يضعف قلوبَ مَنْ في صور ، و يُنْهي أمرَها به ، فاشتغلَ بذلك و نزل على كوكب[2] في أوائل محرّم ، و كان سبب بَدْأتِه بكوكب أنّه قد جعل حولها جماعةً يحفظونها مِنْ أنْ تدخل إليهم قوة ، فخرج الإفرنج

(١)ضاق عطنه : ضجّ و ضجر .

(٢)كوكب : اسم قلعة على الجبل المطلّ على مدينة طبريّة حصينة رصينة تشرف على الأردنّ افتتحها صلاح الدين ، ثم خربت فيما بعد .

ليلا و أخذوا غرتهم و كبسوهم بعفربلا و قتلوا مقدمـــهم ، و كـــان مـــن الأمراء يعرف بسيف الدين أخي الجاولي ، و أخـــذوا أســلحتهم فســار ــرحمه الله ــ من عكا و نزل عليها بمن معه من خواصه ، فإنه كان قـد أعطى العساكر دستورا ، و عاد أخوه إلى مصر ، وولده إلـــى حلــب ، ولقي في طريقه شدة من الثلج و البرد ، فحملته مع ذلك الحميـــة علـــى النزول عليها، و أقام يقاتلها مدة .

و في تلك المنزلة وصلت إلى خدمته ، فإني كنت قد حججت ســنة ثلاث و ثمانين ، و كانت وقعة ابن المقدم ، وجرح يـــوم عرفـــة علـــى عرفة، لخلف جرى بينه و بين أمير الحاج طســـتكين ، علـــى ضـــرب المكوس[1] والدبدبة[2]، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك ، فلـــم ينتـــه ابـــن المقدم، و كان من أكبر أمراء الشام ، و كان كثير الغزاة ، فقـــدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة ، ثم حمل إلى منى مجروحا ، و مات بمنى يـــوم الخميس يوم عيد الله الأكبر ، و صلي عليه في مسجد الخيف فـــي بقيـــة ذلك اليوم ، و دفن بالمعلا ، و هذا من أتـــم الســـعادات . و بلـــغ ذلـــك السلطان ، فشق عليه ، ثم اتفق لي العود من الحج علـــى الشـــام لقصـــد القدس و زيارته ، و الجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيـارة إبراهيم عليه الصلاة و السلام ، فوصلت إلى دمشق ، ثم خرجـــت إلـــى القدس ، فبلغه خبـــر وصولي ، فظن أني وصلت من جانب الموصل في

(١)جمع مكس ، وهو الضريبة تؤخذ من التجار الأجانب ، و تعرف أيضا بالعشور .

(٢)الدبدبة: كل صوت ، كوقع الحافر على الأرض الصلبة ، والصياح والجلبة ، ولعل العبارة : "مكـــوس الدبدبة " أي ما يؤخذ من التجار الوافدين لما يعقدونه من أسواق و صفقات ، وما تسببه تلك الأسواق مـــن جلبة و أصوات.

حديث ، فاستحضرني عندَه ، و بالغ في الإكـــرام و الاحـــترام . و لمّـــا ودّعته ذاهباً إلى القدس خرج لي بعضُ خواصّه ، و أبلغني تقدّمـــه إلـــيَّ بأنْ أعودَ أتمثّل في خدمته عندَ العَوْد من القدس ، فظننتُ أنه يوصينـــــي بُمِهِمّ إلى الموصل .

و انصرفت إلى القدس يومَ رحيله عن كوكب ، ورحل لأنّه علـــم أنّ هذا الحصنُ لا يؤخذ إلاّ بجمع العساكر عليه ، وكان حصنـــاً قويـــاً ، وفيه رجالٌ شِدادٌ من بقايا السيف ، و مِيرةٌ عظيمة ، فرحل إلى دمشـــق ، و كان دخولُه إليها في سادس ربيع الأول . و في ذلك اليوم اتّفق دخولـــي إليها عائداً من القدس ، و أقام بها خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشـــر شهراً ، و في اليوم الخامس بلغه خبر الإفرنج أنهم بجبيلا ، و اغتالوها ، فخرج مسرعاً ساعةَ بلوغ الخبر ، و كان قد سيّر إلى العساكر يســـتدعيها من سائر الجوانب ، و سار يطلبُ جبيلا ، فلما عرف الإفرنج بخروجـــه كفّوا عن ذلك ، و كان بلغه وصُول عماد الديـــن و عســـكر الموصـــل ومظفّر الدين إلى حلب قاصِدين الخِدْمة للغزاة، فسار نحو حصن الأكـــواد في طلب السَّاحل الفوقاني .

﴿ذكر دخوله السَّاحل الأعلى و أخذه اللاذقية و جبلة وغيرهما﴾

و لما كان مستهلُّ ربيع الآخر نزل على تلٍ قُبالةَ حصن الأكـــواد ، ثم سيّر إلى الملك الظاهر و الملك المظفّر أنْ يجتمعا و ينزلا بتبرين قبالة أنطاكية ، ليحفظ ذلك الجانب و سارت عساكرُ الشَّرق حتـــى اجتمعـــتْ لخدمةِ السّلطان في هذه المنزلة ، ووصلتُ إليه بها على عزم المسير إلى

الموصل ، متجهّزاً لذلك ، فلما حضَرْتُ عنده فرحَ بي و أكرمني ، وكنتُ قد جمعْتُ له كتاباً في الجهاد بدمشقَ ، مُدَّةَ مقامي فيها ، يجمع أحكامه وآدابه فقدّمْتُه بينَ يَديه ، فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته ، ومازلْتُ أطلبُ دستوراً في كلّ وقت ، و هو يُدافعُني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كلّ وقت ، و يبلّغُني على ألسنة الحاضرين ثناءه عليَّ و ذِكْره إيّاي بالجميل ، فأقام في منزلته ربيعاً الآخِرَ جميعَه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد ، و حاصرها يوم مجيئه بها ، فما رأى الوقت يحمل حصاره ، و اجتمعت العساكر من الجوانب ، و أغار على بلد طرابلس في الشهر دُفْعَتين ، و دخل البلاد مُغِيراً و مختبراً لمن بها من العساكر ، و ليقوّي العساكر بالغنائم ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر : إنا داخلون السّاحل ، و هو قليل الأزواد ، و العدوُّ يحيطُ بنا في بلاده من سائر الجوانب ، فاحملوا زاد شهر ، ثم سيَّر إليَّ مع الفقيه عيسى ، و كشف إليَّ أنّه ليس في عزمه أنْ يمكّنني من العَوْد إلى بلادي ، و كان الله قد أوقعَ في قلبي محبَّته منذ رأيته ، و حبَّه الجهاد[1]، فأحببتُه لذلك .

و خدمْتُه من تاريخ مستهلّ جُمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخولِه الساحل ، و جميعُ ما حكيتُه قبلُ إنما هو روايتي عمّن أثقُ به ممَّنْ شاهده . ومن هذا التاريخ ما سطَّرْتُ إلاّ ما شاهدتُه أو أخبرني به مَنْ أثقُ به خبراً يقارب العِيان[2]، والله الموفق.

---

(١)أي منذ رأيته و رأيت حبّه للجهاد . فكلمة " حبّه " معطوفة على الهاء في رأيته .

(٢)العيان : المعاينة ، المشاهدة .

ولما كان يوم الجمعة رابعَ جمادى الأولى ، رحل السلطان على تعبية لقاء العدو ، ورتّب الأطلاب[١]، و سارت الميمنة أوّلاً و مقدّمها عماد الدين زنكي ، و القلبُ في الوسط ، و الميسرة في الآخر ، ومقدّمها مظفر الدين ، و سار الثقل في وسط العسكر ، حتى أتى المنزل ، فبتنا تلك الليلةَ في بلد العدوّ ، ثم رحل و نزل على العُرَيْمةِ فلم يقاتلها ، و لم يتعرَّضْ لها .

ووصل في السادس إلى أنطرطوس[٢]، فوقف قُبالَتها ينظر إليها ، و كان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجبلة ، فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها فسيّر مَنْ ردَّ الميمنة ، و أمرها بالنزول على جانب البحر ، و أمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، ونزل هو في موضعه و صارت العساكر مُحْدِقةً بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ، و لها برجان كالقلْعتين حصينان، و ركب هو ، و قارَبَ البلد و أمر الناس بالزحف والقتال ، فلبسوا لأمة الحرب و القتال و الزَّحْف ، و ضايقهم ، فما استتمَّ نصبُ الخِيَم حتى صعدَ الناسُ السّورَ، و أخذوها بالسيف ، و غنم العسكر جميع مَنْ بها وما بها ، و خرج الناسُ و الأسرى و أموالُهم بأيديهم و ترك الغِلْمانُ نَصْبَ الخيم ، واشتغلوا بالنَّهب و الكسْب ، ووفَى بقوله: نتغدّى بأنطرطوس إن شاء الله. و عاد إلى خيمتِه فرحاً مسروراً. و حضرْنا عنده للْهَنَأ بما جرى

(١)الأطلاب : جمع طلب ، أي القوة المطلوبة لهذا العمل العسكري .(٢)أنطرطوس : بلد من سواحل بلاد الشام ، من أعمال طرابلس ، فيه بُرْجان حصينان ، و فتح عبادة بن الصامت رضي الله عنه هذا البلد ، وكان حصيناً ، و بنى معاوية رضي الله عنه أنطرطوس (أي حسّن في بنائها) و حصّنها .

و مدّ الطعام ، و حضر الناس و أكلوا على عادتهم ، و رتّب على البُرْجَيْنِ الباقيين الحصار ، فسُلّم أحدُهما مظفّر الدين ، فمازال يحاصره حتى أخرجه ، و أخذ مَنْ كان فيه و أمر السلطان بإخراب سور البلد ، وقسمه على الأمراء و شرعوا في إخرابه و أخذوا يحاصرون الآخر . وكان حصناً منيعاً مَبْنياً بالحجر النَّحيت[1]، و قد اجتمع من كان فيها من الخيالة و البطارقة و المقاتلة فيه ، و خندقه يدور فيه الماء ، و فيه فُروجٌ كثيرة يخرج الناس منها عن بعد و ليس له قدر يخرج عليه مسلم ، فرأى السلطانُ تأخير أمره و الاشتغال بما هو أهمُّ منه ، فاشتدَّ في إخراب السور حتى أتى عليه ، وخرب البيعة ، و هي بِيعةٌ عظيمةٌ عندهم ، محجوج إليها من أقطار بلادهم ، و أمر بوضع النار في البلد فأُحرق جميعُه حتى كان تتأجج النار في أرزه[2] و بيوته ، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فأقام عليها يخربها إلى الرابع عشر وسار يريد جبلة ، و كان عرض له ولده الملكُ الظاهر في أثناء طريق جبلة فإنه طلبه وأمره أن يُحضر معه جميعَ العساكر التي كانت بتبرين .

﴿ذكر فتوحه جبلة و اللاذقية﴾

ووصل إلى جبلةَ في الثامنَ عشرَ و ما استتمَّ نزولُ العساكر حتى أتى البلدَ ، و كان فيه مسلمونَ مقيمون فيه وقاضٍ يحكُم بينهم و كان قد عمل على البلد ، فلم يمتنعْ ، و بقيت القلعةُ ممتنعةً ، فاشتغل بقتالها ،

(١)النَّحيت : المنحوت .

(٢) أرزه : ملاجئه . أرَزَ إلى المكان : لجأ ، يأرِز (فتح كسر) .

فقاتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها ، و سلمت بالأمان في التاسع عشـو ، و أقام عليها إلى الثالث و العشرين .

و سار عنها يطلب اللاذقية ، و كان نزوله عليـــها فـــي الرابـــع والعشرين ، و هي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور . و له مينـــاء مشهورة و له قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فنزل محدقـــا بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيـهما إلا من ناحية البلد ، و اشتد القتال و عظم الزحف ، و ارتفعت الأصـوات و قوي الضجيج إلى آخر اليوم المذكور. و أخذ البلـــد دون القلعتيـــن ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، ففرق بين النـــاس الليل و هجومه .

و أصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا في أخذ النّقــوب ، و أخــذت النقوب من شمالي القلاع ، و تمكّن مــنها النقب ، حتى بلغ طوله علـــى ما حكي لي من ذرعه ستين ذراعا ، وعرضه أربعـــة أذرع ، و اشـــتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، و قاربوا السور وتواصل القتال، حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد ، فلما رأى عدو الله ما حل بهم من الصغار(١) و البوار(٢) استغاثوا بطلب الأمان عشـــية الجمعـــة الخـــامس والعشرين من الشهر ، و طلبوا قاضي جبلة يدخل إليـــهم ليقـــرر لـــهم الأمان، فأجيبوا إلى ذلك . و كان ـــرحمه الله ـــ متى طلب منه الأمان لا يبخل بـــه رفقا ، فعـــاد الناس عنهم إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب ،

(١)الصغار ، بفتح الصاد : الذل .

(٢)البوار : الهلاك .

فباتوا إلى صبيحة السبت ، و دخل قاضي جبلة إليهم و استقر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم و أموالهم خلا الغلال والذخائر و آلات السّلاح و الدّوابّ ، وأطلق لهم دوابّ يركبونها إلى مأمنهم ، ورَقِيَ عليها العَلَمُ الإسلاميُّ المنصورُ في بقية ذلك اليوم ، وأقمنا عليها إلى السابع و العشرين .

﴿ذكر فتوح صهيون﴾

و رحلَ عن اللاذقية طالباً صِهْيَون[1]، و استدارت العساكرُ بها من سائر نواحيها في التاسعِ و العشرين ، و نصب عليها ستّةَ مجانيق[2]، و هي قلعة حصينةٌ منيعة في طَرف جبلٍ ، خنادقُها أوديةٌ هائلةٌ واسعة عظيمة ، و ليسَ لها خندقٌ محفورٌ إلاّ من جانب واحد ، مقدارُ طوله سِتُّونَ ذراعاً أو أكثر ، و هو نقر في حَجرٍ ، و لها ثلاثةُ أسوار ، سورٌ دون ربَضها ، و سورٌ دون القلعة ، و سورُ القلعة ، وكان على قلعتها علمٌ طويل منصوب ، فحين أقبل العسكرُ الإسلامي شاهدْته قد وقَع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، و علموا أنّه النصر و الفتح ، واشتدّ القتالُ عليها من سائر الجوانب ، فضربها بمنجنيق الملكُ الظاهرُ صاحبُ حلب،

---

(١)"صِهْيَوْن : بكسر أوّله ، و تسكين ثانيه ، و فتح الياء ، و تسكين الواو : موضع معروف بالبيت المقدس .. و صِهْيَوْنُ أيضاً : حِصْن حصين من أعمال سواحل بلاد الشام .. و هي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل .. و كانت بيد الإفرنج منذ دهر حتى استرجعها الملكُ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب من يد الإفرنج سنة ٥٨٤هـ" معجم البلدان ٤٣٦/٣ .

(٢)مَجْنَق القوم : رَمَوْا بأحجار المنجنيق . و المنجنيق ، بفتح الميم و كسرها : آلة قديمة من آلات الحصار .

و كان نصب منجنيقاً قريباً من سورها ، فقطعَ الـوادي و كـان صـائب الحجر ، فلم يزل يضربُها حتى هدم من السور قطعة عظيمـة ، يمكـن الصاعدُ في السور الترقّيَ إليه منها ، و لما كان بكـرة الجمعـة ثـاني جمادى الآخرة عزم السلطان ، و تقدَّم ، و أمر المنجنيقـات أن تتوالـى بالضرب ، و ارتفعت الأصوات ، و عَظُمَ الضّجيج بالتكبير و التـهليل ، وما كان إلا ساعة حتى رَقِيَ المسلمون على الأسوار التـي للربـض[١]، واشتدَّ الزحفُ و عظُمَ الأمر ، و هاجم المسلمون الربض ، و لقد كنـت أشاهد الناس وهم يأخذون القُدور ، و قد استوى فيها الطعامُ فيأكلونـها ، وهم يقاتلون ، و انضمَّ مَنْ كان في الرّبض إلى القَلْعة يحملون ما أمكنـهم أن يحملوا مِنْ أموالهم ، و نهب الباقي ، و استدارت المقاتلةُ حول أسـوار القلعة ، و لمّا عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، ووصل خبرُهم إلـى السلطان ، فبذل الأمان ، و أنعم عليهم على أن يسلّموا بأنفسهم وأموالـهم، و يؤخذَ من الرجل منهم عشرةُ دنانير ، ومن المـرأة خمسـة ، و عـن الصغير ديناران ، و سُلّمت القلعة ، و أقام السلطانُ عليها حتّى تسلّم عـدة قلاع ، كالعيد ، و فيحه ، و بلاطنيس ، وغيرها من القلاع و الحصون ، تسلّمها النّوابُ[٢].

﴿ذكر فتوح بكاس﴾

ثم رحل و سرْنا حتى أتينا سادس جمادى الأخرى بكّاسَ ، و هي قلعةٌ حصينة على جانب العاصي ، و لها نهر يخرج من تحتها ، و كان

---

(١)الرَّبَض : بفتح الراء و الباء ، و بتسكين الباء : الناحية ، و ما حول المدينة .

(٢)النواب : الأشخاص الذين فوّض إليهم صلاح الدين أن يتسلّموا تلك القلاع نيابةً عنْهُ .

المنزل على شاطئ العاصي ، و صَعِدَ السلطانُ جريدةً إلى القلعة ، وهي على جبل يُطِلّ على العاصي ، فأحدقَ بها من كلّ جانب ، و قاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات و الزحف المضايق إلى تاسع الشهر ، و يسَّر اللهُ فتحَها عَنْوةً ، و أسَرَ مَنْ فيها بعد قَتْل مَنْ قتل منهم ، و غَنِمَ جميعَ ما كان فيها . و كان لها قُلَيْعةٌ تسمى الشُّغْر ، و هي في غاية المَنَعة ، ليس إليها طريقٌ ، فسُلّطت عليها المنجنيقاتُ من الجوانب ، ورأوْا أنَّهم لا ناصرَ لهم ، فطلبوا الأمانَ في الثالثَ عشرَ ، وسألوا أنْ يُؤَخّروا ثلاثةَ أيّام لاستئذانِ مَنْ بأنطاكيّة ، فأذن في ذلك ، و كان تَمامُ فَتْحِها و صعود العلَم السّلطانيّ عليها يومَ الجمعة سادسَ عشرَ[1]، ثم عادَ السُّلْطانُ إلى الثقل ، و سيَّر ولدَه الملك الظاهرَ إلى قلعة سرمانية ، فقاتلها قتالاً شديداً، و ضايقها مضايقةً عظيمةً ، و تسلَّمها يوم الجمعة الثالث و العشرين من الشهر ، فاتّفقتْ فتوحاتُ الساحل على جَبْلَة إلى سرْمانية في أيام الجمع ، و هي علامة قبُولِ دُعاء الخطباء المسلمين و سعادة السلطان ، حيث يسَّر اللهُ لنا الفُتوحَ في اليوم الذي يُضاعَفُ فيه ثوابُ الحسنات . و هذا من نوادر الفتوحات في الجُمَعِ المتوالية ، و لم يتّفقْ مثلُها في تاريخ .

﴿ذكر فتوح برزيه﴾

ثم سير السلطان جريدة إلى قلعة برزيه[2]، و هي قلعة حصينة في

(١)فتح صلاح الدين بَكاسَ ، و هي قلعة على شاطئ العاصي قريبة من الشُّغْر ، في السادس عشر من جُمادى الآخرة عام ٥٨٤هـ . (٢) بَرْزَيَه (برزُويَه) : حصن قرب السواحل الشامية، على سن جبل شاهق ، يُضْرب به المثل في الحصانة و المناعة ، يحيط به أودية سحيقة من كلّ جوانبه ، استولى عليه الإفرنج مدة حتى استعاده صلاح الدين عام ٥٨٤هـ .

غاية القوّة و المنعة على سن جبل شاهق ، يُضرَب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج و المسلمين ، تحيطُ بها أوديةٌ مِنْ سائر جوانبها ، وذَرْعُ علوِّها كان خمسمائةَ ذِراعٍ ونيفاً و سبعين ذراعاً ، ثم جدَّد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، و استدعى الثِّقْلَ ، و كان نزولُ الثقل و بقيةِ العسكر تحتَ جبلها في الرابع و العشرين من الشهر ، و في بكرة الخامس و العشرين منه صعِدَ السُّلطانُ جريدة مع المقاتلة و المنجنيقات وآلاتِ الحصار إلى الجبَل ، فأحدقت بالقلعة من سائر نواحيها ، و ركب القتال من كل جانب ، و ضرب أسوارَها بالمنجنيقات المتواترة الضربِ ليلاً و نهاراً ، و في السابع و العشرين قسم العساكرَ ثلاثةَ أقسام ، ورتّب كلَّ قسم يقاتل شطراً من النهار ، ثم يستريح و يسلّم القتال للقسم الآخر ، بحيث لا يفترُ القتال عنها أصلاً ، و كان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار ، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرِسَ الناسُ من القتال ، و تراجعوا ، واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب و تحرّك خطواتٍ عدّةً ، و صاحَ في الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، و صاحوا صيحةَ الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعضُ ساعة حتى رقيَ الناسُ على الأسوار ، وهاجموا القلعة ، و أُخذت القلعةُ عَنْوةً ، فاستغاثوا الأمان و قد تمكنت الأيدي منهم (فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا) و نُهِبَ جميعُ ما فيها، و أُسِرَ جميعُ مَنْ كان فيها ، و كان قد أوى إليها خَلْقٌ عظيم ، و كانت من قلاعهم المذكورة ، و كان يوماً عظيماً ، و عاد الناس إلى خيامهم غانمين ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحاً مسروراً ، و أحضر بين يديه

صاحب القلعة ، و كان رجلا كبيرا منهم ، و كان هو و من أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمن عليهم ورق لهم ، و أنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالة له ، فإنهم كانوا يتعلقون به و من أهله .

﴿ذكر فتوح دربساك﴾

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد ، و أقام عليه أياما ، و سار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب ، و هي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية ، فنزل عليها و قاتلها قتالا شديدا ، بالمنجنيقات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، و أخذ النقب تحت برج منها ، و تمكن النقب منه حتى وقع ، و حموه بالرجال و المقاتلة ، ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ، و لقد شاهدتهم و كلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، و هم قيام في عرض الجدار ، مكشفون ، فاشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان و اشترطوا مراجعة أنطاكية ، و كانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم و ثياب أبدانهم لا غير ، ورقي عليها العلم الإسلامي في الثاني و العشرين من رجب ، و أعطاها علم الدين سليمان بن جندر ، وسار عنها في الثالث و العشرين منه .

﴿ذكر فتوح بغراس﴾

و هي قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكيّة من دربساك ، و كانت كثيرةَ العدة و الرجال ، فنزل العسكر في مرجٍ لها و أحدقَ العسكُر بها جريدةً ، مع أنّا احتجْنا إلى يزك في تلك المنزلة ، يحفظ جانب أنطاكية ، لئلا يخرج منها مَنْ يهاجم العسكر ، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية بحيثُ لا يشذّ عنه مَنْ يخرج منها ، و أنا ممَّنْ كان في اليزك في بعض الأيام لرؤية البلد و زيارة "حبيب النجار" المدفون فيها[1] ، و لم يزل يقاتل "بغراس" مقاتلة شديدة ، حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية ، ورقَي العَلَم الإسلاميّ عليها في ثاني شعبان . و في بقية ذلك اليوم عادَ رحمه الله إلى المخيّم الأكبر ، و راسله أهل أنطاكية في طلب الصلح ، فصالحهم لشدة ضَجرِ العسكر و قوة قلَق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور . و عُقدِ الصلح بيننا و بين أنطاكية من بلاد الإفرنج لا غير ، على أنْ يُطلقوا جميع أُسارى المسلمين الذين عندهم ، و كان إلى سبعة أشهر ، فإنْ جاءهم مَنْ ينصرهم و إلاّ سلّموا البلدَ إلى السُّلْطان .

و رحل يطلُبُ دمشقَ ، فسأله ولدُه الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه ، و سار حتى أتى حلبَ حادي عشر شعبان ، و أقام بقلْعتها ثلاثة

---

(١) قال أبو حيان لدى تفسير قوله تعالى :(و جاء من أقصى المدينة، رجل يسعى) [يس ٢٠] "اسمه حبيب (أي النجار) قاله ابن عباس و أبو مجلز و كعب الأحبار و مجاهد و مقاتل .. وحبيب هذا ممَّنْ آمن برسول الله صلى الله عليه و سلم و بينهما ستمائة سنة .. فطوَّل معهم الكلام ليشغلهم عن قتل الرسل، إلى أن صرّح لهم بإيمانه فوثبوا عليه فقتلوه ..وقبره في سور أنطاكية " [البحر المحيط ٣٢٨/٧ و ٣٢٩].

أيـــام ، وولـــدُه يقوم بالضيافة حقَّ القيام ، و لم يبق للعسكر إلا من نالــه من نعمته منال ، و أكثر ظني أنَّه أشفق عليه والدُه و سار مِنْ حلب يريـدُ دمشق[1] ، فاعترضه ابنُ أخيه الملك المظفَّر تقيّ الدِّين ، و أصعده إلـــى قلعة حماة ، و اصطنع له طعاماً حسناً ، و أحضر له سماع الصُّوفيـــة ، وبات فيها ليلةً واحدة ، و أعطاه جبلة و اللاذقية ، و سار على طريـــق بعلبكّ ، حتى أتاها وَ أقام بَمرْجِها ، و دخل إلى حمَّامها ، و ســار منـــها حتى دخل رمضان ، و ما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما أمكنــه ، و كان قد بقِي له القِلاعُ القريبةُ من حَوْران التي يخاف عليها مِنْ جانبـــها كصَفَدَ وكوكب ، فرأى أن يشغل الوقتَ بفتح المكانين في الصَّوْم .

﴿ذكر فَتْحِ صفد﴾

ثمّ سار في أوائل رمضانَ من دمشقَ يريد صفَدَ ، و لم يلتفتْ إلـــى مفارقة الأهل و الأولاد و الوطن في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أيـــنَ كان فيجتمع فيه بأهله ، اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآتهِ أجـــراً عظيماً ، فسار حتى أتى صفَد ، و هي قلعة منيعةٌ قد تقـــاطعتْ حولـــها أوديةٌ من سائر جوانبها ، فأحدق العسكرُ بها ، و نصبَ عليها المجانيق

(١) قال أبو الفدا عماد الدّين إسماعيل :" و جعل طريقه لمّا رحل من حلب على قبر عمر رضي الله عنه ابن عبد العزيز ،فزاره ،وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي ،و كان مقيماً هناك وكان من عباد الله الصالحين ،وله كرامات ظاهرة .وكان مع السلطان أبو فليتة الأمير "قاسم بن مـــهنا" الحسيني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم ،وشهد معه مشـــاهده و فتوحاتـــه ،وكـــان السلطان يتبرك برؤيته و يتيمّن بصحبته و يرجع إلى قوله " [المختصر في أخبار البشر (مصر، الطبعة الأولى) ٧٥/٢].

في أثناء شهر رمضان المبارك ، و كانت الأمطار شديدة ، و الوحـــــول عظيمة ، و لم يمنعه ذلك عن جِدّه .

و لقد كنتُ عنده في خدمته ليلةً و قد عيَّنَ مواضعَ خمسةِ مجانيق، فقال : ما ننامُ حتى تُنْصَبَ الخمسة ، وسلّمَ كلّ منجنيق إلى قوم ، ورسلُه تتواترُ إليهم ، يعرّفونهم كيف يصنعون ؟ حتى أظلّـــه الصبــحُ . و قـــد فرغت المنجيقاتُ ، و لم يبقَ إلا تركيبُ جَنازيرِهــا فيــها فرويــتُ لـــه الحديثَ المشهورَ في الصحاح ، و بشّرته بمقتضاه ، و هو قوله صلى الله عليه و سلم " عينانِ لا تمسُّهما النارُ عين باتتْ تحــرس فـــي ســبيل الله وعين بكتْ من خشية الله " و في أثناء شـــهر رمضان سلمت الكرك مـن جانب نواب صاحبها ، و خلصوه بها من الأسر ، و كان قد أســـر فـــي وقعة حطين المباركة ، ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالبون[(١)] مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوال .

﴿ذكر فتوح كوكب﴾

ثم سار يريد كوكب[(٢)] ، فنزل على الجبل ، و جــــرد العســكر ، وأحدق بالقلعة ، و ضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوز نشـــاب العـــدو ونباله حائطا من حجر و طين يستتر وراءه ، حتى لا يقدر أحـــد يقف على باب خيمة إلا إن كان ملبّســاً ، و كـــانت الأمطـــار متواتـــرة والوحول عظيمة ، و عانى شدائد و أهوالاً من شـــدة الريـــاح و تراكــم الأمطار وكون العدو مسلّطاً عليهم بعلو مكانه ، و قتل و جرح جماعة ،

(١)البَوْن والبُون : مسافة ما بين الشيئين .والمقصود هنا المعاناة من الجهاد في أثناء الصوم .

(٢)كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، و هي قلعة حصينة .

و لم يزل راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها .

و لما أحس العدو المخذول أنه مأخوذ طلب الأمان فأجابهم إلى ذلك و أمنهم و تسلمها في منتصف ذي القعدة ، و نزل على الفور إلى الثقل ، و كان قد أنزله من شدة الوحل و الريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل في أشغال شخصية ، حتى هل هلال ذي الحجة و أعطي الجماعة دستورا .

و سار مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه ، فإنه كان عائداً إلى مصر ، فوصلا إليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، و صلينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة ، و صلينا صلاة العيد الأعظم بها أيضا يوم الأحد ، وسار حادي عشر طالبا عسقلان لينظر في حالها ، فقام بها أياما يلم شعثها ، و يصلح أحوالها ، فودع أخاه و أعطاه الكرك ، و أخذ منه عسقلان ، و عاد يطلب عكا على طريق الساحل ، و يمر على البلاد يفتقد أحوالها و يودعها الرجال و العدد ، حتى أتى عكا ، فقام بها معظم محرم سنة خمس و ثمانين ، و رتب بها بهاء الدين قراقوش[1] واليا ، وأمره بعمارة السور و الأطناب فيه ، و معه حسام الدين بشارة ، و سار يريد دمشق مستهل صفر سنة خمس و ثمانين .

---

(١)بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي، أبو سعيد: أمير، نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي و ناب عنه في الديار المصرية ،كان هماما مولعا بالعمران ،وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة وبنى قلعة الجبل، وقناطر الجيزة ،ولما استعاد صلاح الدين عكا ولاه عليها .وقد زور أحد خصومه "أسعد بن مماتي" أخبارا موضوعة ليصمه بالظلم و بالحماقة ،وصاغها بأسلوب فكاهي ساخر ،وأودعها كتاب "الفاشوش في أحكام قراقوش" و لم يذعه إلا بأخرة من حياة بهاء الدين ،وإذا قبل الذين يجهلون التاريخ مثل هذه الأخبار الموضوعة ،فما كان لمن يطلعون عليه أن يقبلوا ما قيل عن بهاء الدين قراقوش ،أو الرشيد أو أمثالهما من ترهات و افتراءات و مات قراقوش سنة ٥٩٧ هـ .

و أقام بدمشق حتى دخل في ربيع الأول ثلاثةُ أيام ، ووصله في أثناء ربيع الأول رسلُ الخليفة الناصر لدين الله(١) يأمره بالخطبة لولده وليّ العهد ، فخطب له وجدّد عزمه على قصد شَقيف أرنُّون ، و هو موضعٌ حَصِينٌ قريبٌ من بانياس(٢) ، وكان تبريزه(٣) في الثالث ، فسار حتى نزل مَرْج بُرْغوث ، و أقام به ينتظر العساكر إلى حادي عشر ، ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشرَ ، فخيّم به و هو قريبٌ من شقيف أرنون ، بحيث يركبُ كلَّ يوم يشارفُه و العساكر تجتمعُ و تطلبه من كلّ صَوْب و أوْب ، فأقمنا أياماً نُشْرِفُ كل يوم على الشقيف ، و العساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدةَ العددِ و العُدَدِ ، و صاحبُ الشقيف يرى ما يتيقّن معه عدمَ السلامة ، فرأى أنّ إصلاح حاله معه قد تعيّن طريقاً إلى سلامته ، فنزل بنفسه وما أحسسْنا به إلا و هو قائمٌ على بابِ خَيْمةِ السلطان ، فأذنَ له فدخل فاحترمه و أكرمه ، و كان من كبار الإفرنجية و عقلائها ، و كان يعرف بالعربية(٤) ، وعنده اطّلاع على شَيْءٍ من التواريخ ، و بلغني أنه كان عنده مسلمٌ يقرأ له و يفهمه ، و كان عنده ثانٍ ، فحضر بين يدي

(١)هو أحمد بن الحسن (٥٥٣-٦٢٠هـ) دامت خلافته خمسة و أربعين عاماً (٥٧٥-٦٢٠)

(٢) المراد بانياس التي في الجولان جنوب غربيّ دمشق .

(٣) تبريزه : بروزه ، خروجه .

(٤) بالعربية : أي يسيراً من العربية ، و الباء للتبعيض .

السلطان ، و أكل معه الطّعام ثم خلا به و ذكر له أنه مملوكه ، و أنه تحت طاعته ، و أنه يسلم المكان إليه من غير تعب ، و اشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الإفرنج وإقطاعاً بدمشق يقومُ به و بأهله ، و أن يمكّن من الإقامة بموضعه ، وهو يتردّد من الخدمة ثلاثةَ أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكّن من تخليص أهله و جماعته من صور ، فأجيب إلى ذلك كلّه وأقام يتردّد إلى خدمة السلطان في كل وقت ، و يناظره في دينه ، ونناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة و متأدّباً في كلامه ، و في أثناء ربيع الأول وصل الخبرُ بتسليم الشَّوْبك ، و كان قد أقام السلطان عليه جَمْعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغ زادهم و سلّموه بالأمان .

﴿ذكر اجتماع الإفرنج تقصد عكا﴾

و كان السلطان اشترط على نفسه حين تسلّم عسقلاّن أنه إنْ أمر الملك بتسليمها أطلقه ، فأمر بتسليمها وسلّموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ، و نحن على حِصْن الأكراد من أنطرسوس واشترط عليه أنْ لا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ، و يكون غلامَه و مملوكه و طليقه أبداً ، فنكث لعنه الله ، فجمَع جموعاً و أتى صور يطلب الدخول إليها ، فخيّم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت ، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي و بأس شديد في دينه وصرامة عظيمة ، فقال إنّني نائب للملوك الذين وراء البحر ، و ما أذنوا

لي في تسليمها إليك ، و طالت المراجعة و استقرت القاعدةُ بينهما على أنْ يتفقوا جميعاً على المسلمين ، و تُجْمع العساكر بصور وغيرها من الإفرنجية على المسلمين . و عسكروا على باب صور .

﴿ذكر الواقعة التي استشهد فيها أيبك الأخرش﴾

و ذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة(١)، بلغ السلطان من اليزك أن الإفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور و أرض صيدا ، و بقيت الأرض التي نحن عليها ، فركب السلطانُ وصاح الجاووش ، فركب العسكر ، يريدون نجو اليزك فوصل العسكر و قد انفصلت الوقعة و ذلك أنّ الإفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض لهم اليزك الإسلامي ، و كانوا في قوة و عدة فقاتلوهم قتالاً شديداً و قتلوا منهم خلقاً كثيراً ، و جرحوا أضعافَ ما قتلوا و رموا في النهر جماعة ، فغرقوا و نصر الله الإسلام و أهله و لم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان ، يعرف بأيبك الأخرش ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، و كان شجاعاً باسلاً مجرّباً في الحرب فارساً ، تَقَنْطَر به فرسه ، فلجأ إلى خشبة فقاتل بالنشاب حتى فني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، ووَجَدَ(٢) السلطان عليه لمكان شجاعته، و عاد السلطان إلى خيَمٍ كانتْ قد ضُربتْ له قريبَ المكان جريدة .

---

(١)سنة ٥٨٥ هـ .

(٢)وجد : حزن .

﴿ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين﴾

و أقام في تلك الخيم إلى التاسع عشر ، و ركب يشرف على القوم على عادته ، فتبع العسكر خلقٌ عظيم من الرَّجَّالة و الغُزاة و السُّوقة ، وحرص في ردّهم فلم يفعلوا ، و لقد أمر مَنْ ضربهم فلم يفعلوا ، وخلف عليهم ، فإنّ المكان كان حَرِجاً ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرّجّالة إلى الجسر و ناوشوا العدوّ ، و عبر منهم جماعة إليهم ، و جرى بينهم قتال شديد ، و اجتمع بهم من الإفرنج خلقٌ عظيم و هم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث علموا أنْ ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غِرّة[1] من السلطان ، فإنه كان بعيداً عنهم و لم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، و إنما ركب مستشرفاً عليهم على العادة من كل يوم ، و لما بان له الوقعةُ و ظهر له غبارها بعثَ إليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الأمر قد فرط و الإفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان و ظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة ، و جرى بينهم و بين السَرِيّة قتال شديد و أسر جماعة من الرجالة ، و قتلوا جماعةً ، و كان عدد الشهداء مائة و ثمانين نفراً ، و قُتل أيضاً من الإفرنج عِدَّةٌ عظيمة ، و غرق أيضاً منهم عِدّة ، و كان ممن قُتِلَ منهم مقدّم الألمانية ، و كان عندهم عظيماً محترماً ، و استشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصاروا ، و كان شاباً حسناً شجاعاً ، و احتسبه والده

---

(١) غِرّة : غفلة .

في سبيل الله ، و لم تقطر من عينه عليه دمعةٌ ، على ما ذكـــر جماعـــة لازموه ، و هذه الوقعة لم يتفق للإفرنج مثلها في هــــذه الوقـــائع التـــي حضرْتُها و شاهدتُها ، و لم ينالوا من المسلمين مثل هذه العِدّة ، في هـــذه المدّة .

﴿ذكر مسير جريدة إلى عكا و سبب ذلك﴾

و لما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمَـعَ أصحابه و شاورهم و قدر معهم أنه يهجم على الإفرنج ، و يعبر الجســـو و يقتلُهم ، و يستأصل شأفتهم ، و كان الإفرنج قد رحلوا مـــن صـــور ، ونزلوا قريبَ الجسر ، و بين الجسر و صور مقدارُ فرسخ و زائد علـــى فرسخ ، فلما صمم العزم على ذلك أصبحَ يوم الخميس ســـابعَ عشـــر ، وركب و سار وتبعه الناسُ و المقاتلةُ و العساكرُ ، و لمّا وصل أواخـــرُ الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائداً ، وخيامهم قد قلعت فســـئلوا عـــن سبب ذلك ، فذكروا أن الإفرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلـــى سورها ، معتصمين بقربها ، و أنّهم لما بلغهم ذلك عادوا ، و لمّـــا رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بُنِيَ مـــن ســـورها ، ويحثّ على الباقي ، فمضى إلى عكا و رتب أحوالها و أمر بتتمّة عمـــارة سورها ، و إتقانه و إحكامه ، و أمرهم بالاحتياط و الاحتراز ، و عـــاد إلى العسكر المنصور إلى مرج عيون ، منتظراً مُهْلة صاحب الشـــقيف لعنه الله .

﴿ذكر وقعة أخرى﴾

و لما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة مـــن رَجَّالة العدو يسطون و يصِلُون إلى جبل تبنين يحتطبون ، و في قلبه مـن رجَّالة المسلمين و ما جرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقـــرّر قـــاعدة وكميناً يرتّبه لهم و يأخذهم فيه ، و بلغه أنه يخرج وراءهم أيضاً خيـــلٌ تحفظهم ، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع ، ثم أنفذ إلـــى عســكر تبنيــن وتقدّم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير غائرين على تلك الرجّالـــة ، و أنّ خيل العدو إذا تَبِعَتْهم ينهزمون إلى جهة عينّها لهم ، و أن يكـــون ذلــك صبيحةَ الاثنين ثامنَ جمادى الآخرة ، و أرسل إلى عسكر عكا أن يســير حتى يكون وراءَ عسكر العدوّ ، حتى إذا تحركوا في نصرة أصحابـــهم قصدوا خيمَهم ، و ركب هو و جحفلُه سحَرَ يومِ الاثنين شاكِي الســـلاح متجرّدين ، ليس معهم خيْمة إلى الجهة التي عينّها لهزيمة عسكر تبنيــن ، و رتب العسكر ثمانيةَ أطلاب و استخرج من كل طلب عشرين فارســـاً من الشجعان الجياد الخيل ، و أمرهم أن يتراءوا للعدوّ حتـــى يظـــهروا إليهم و يناوشوهم ، و ينهزموا بين أيديهم ، حتى يصلوا إلـــى الكميـــن ، ففعلوا ذلك و ظهر لهم من الإفرنج معظمُ عسكرهم يقدُمهم الملك ، و كان قد بلغهم الخبر و تعبَّوا تعبية القتال ، و جرى بينهم و بين هذه السريـــة اليسيرة قتالٌ شديد ، و التزمت السرية القتالَ و أنفوا عن الانهزام بيـــن أيديهم و حملتهم الحمية على مخالفة السلطان و لقائهم العـــدوَّ الكثـير ،

بذلك الجمع اليسير ، و اتصل الحربُ بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم يرجع منهم أحد إلى العسكر ، ليخبرهم بما جـــرى ، و اتّصـــل الخـــبر بالسلطان في أواخر الأمر ، و قد هجم الليل ، فبعَثَ إليهم بعوثـــاً كثـــيرة حين عَلِمَ ضيق الوقت عن المصافّ و فوات الأمر ، و لما بَصُرَ الإفرنج بأوائل المدَدِ قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصين[١] على أعقابهم بعـــد أنْ جرت مقتلةٌ عظيمةٌ من الجانبين ، و كانت القتلى من الإفرنج على مـــا ذكر مَنْ حضر ، فإني لم أكنْ حاضرها ، زهاءَ عشـــرة أنفـــس و مـــن المسلمين ستة أنفار ، اثنان من اليزك و أربعة من العرب ، منهم الأمـــير رامل ، و كان شاباً تاماً حسن الشباب مقدَّم عشيرتهِ ، و كان سبب قتلـــه أنّه تقنطرتْ[٢] به فرسُه ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت منه أيضـــاً ، وأُسِرَ هو و ثلاثةٌ من أهله . و لما بصر الإفرنج بالمدد للعسكر قتلوهـــم خشيةَ الاستنقاذ ، و جُرح خلق كثير من الطائفتين و خيلٌ كثيرة . و مـــن نوادر هذه الوقعة أن مملوك السلطان أُثْخنَ بالجراح حتى وقع بين القتلـــى و جراحاتُه تشخب[٣] دماً ، و بات ليلته أجمع علـــى تلـــك الحالـــة إلـــى صبيحة يوم الثلاثاء ، ففقده أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقْده فـأنفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هـــذه الحالـــة ، فحملـــوه ونقلوه إلى المخيم على تلك الحال ، و عافاه الله و عـــادَ الســـلطان إلـــى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصوراً . فرحاً مسروراً .

---

(١)ناكصين : منقلبين .

(٢) تقنطرت : شبّت فصارت كالقنطرة .(٣) تشخب : تسيل .

﴿ذكر أخذ أصحاب الشقيف و سبب ذلك﴾

ثم استفاض بين الناس أنّ صاحب الشقيف فعل ما فعله من المُهْلة غِيلة[١] ، لا أنه صادق في ذلك و إنما قصد فيه تدفّع الزمان ، و ظهر لذلك مخائل[٢] كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة و إتقان الأبواب ، وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان و يرسل سرّاً مَنْ يمنع من دخول النجدة و الميرة إليه ، و أظهر أنّ سبب ذلك شدة حرّ الزمان ، و الفرار من وخم المرج . و كان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر[٣] و قد مضى من الليل ربعه فما أصبح صاحب الشقيف إلا و الخيمة مضروبة ، و بقي بعض العساكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه ، و علم أنه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة حدّثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان و يستعطفه و يستزيده في المدّة ، و تخيل له بما رأى من أخلاق السلطان و لطافته أن ذلك يتمّ ، فنزل إلى الخدمة و عرض المكان ، وقال المدة لم يبق منها إلا اليسير و أي فرق بين التَّسْليم اليوم أو غداً ، وأظهر أنّه بقيَ من أهله جماعة ، بصور و أنّهم على الخروج منها في هذه الأيام ، و أقام في الخِدْمة ذلك اليوم إلى الليل ، و صعد القلعة و لم يظهر له السلطان شيئاً ، و أجراه على عادته و تقضّي مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام و قد قرب انتهاء المدة و الفراغُ منها ، و طلب الخَلْوة

(١) غيلة : للاغتيال . (٢) مخائل : أمارات .

(٣)ليلة الجمعة ٥٨٥/٦/١٢ هـ .

بالسلطان ، و سأل منه أن يمهله تمام السَّنة تسعةَ أشهر ، فأحسّ السلطان منه الغدر فماطله و ما أيّسه ، و قال نتفكّر في ذلك ، و نجمع الجماعة ونأخذ رأيهم ، و ما ينفصل الحال عليه نعّرفك ، و ضرب له خيمة قريبة من خيمته و أقام عليه حرساً لا يشعر بهم ، و هو على غاية من الإكرام و الاحترام له ، و المراجعة ، و المراسلةُ بينهم في ذلك الفن مستمرة ، حتى انقضت الأيام و طُولب بتسليم المكان فكُشِفَ له أنك أضمرت الغدر وجدَّدْتَ في المكان عمائر . و حملت إليه ذخائر ، فأنكر ذلك و استقرَّت القاعدة على أن يُنفذ من عنده ثقته و ينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان ، وينظر هل تجدّد فيه شيء من البناء أم لا ؟

فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم ووجدوه قد جدد باباً للسور لم يكن فأقيم الحرس الشديد عليه و أظهر ذلك و منع الدخول إلى الخدمة . وقيل له قد انقضَت المدةُ و لا بدّ من التسليم ، وهو يغالط عن ذلك و يدافع عن الجواب عنه .

و لما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة و فيه المعترف بانتهاء المدة قال: أنا أمضي و أسلّم المكان . و سار معه جمعٌ كثير من الأمراءِ و الأجناد حتى أتى الشقيفَ و أمرهم بالتسليم فأبَوا ، فخرج إليه قسّيس وحدثه بلسانه ، ثم عاد و اشتدّ امتناعهم بعد عود القسيس إليهم فظنّ أنه أكد الوصية على القسيس في الامتناع ، و أقام ذلك اليوم و الحديث يتردّد، فلم يلتفتوا و أعيد إلى المخيم المنصور ، وسُيِّر من ليلته إلى بانياس ، و أحيط عليه بقلعتها ، فأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين ، و أقام صاحب الشقيف ببانياس إلى سادس رجب ، و اشتد

حنَقُ السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره و لم يعملوا فيها شيئاً ، فأُحضر إلى المخيم و هدّد ليلة وصوله بأمور عظيمة ، فلم يفعل و أصبح السلطان ثامن رجب ، و رُقي إلى سنام الجبل مخيّمُه ، و هو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولى و أبعد من الوخم ، و كان قد تغيَّر مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك أن الإفرنج بصور مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا ، و أن بعضهم نزل بالإسكندرية ، و جرى بينهم و بين رَجَالة المسلمين مناوشة ، و قَتَل منهم المسلمون نفرا يسيراً و أقاموا هناك .

﴿ذكر واقعة عكا﴾

و ذلك أنّه لما بلغ السلطان حركةُ الإفرنج إلى تلك الجهة عظُم عليه و لم يرَ المسارعةَ خوفاً من أنْ يكون قصدُهم ترحيلَه عن الشقيف ، لا قصدَ المكان ، فأقام مستكشفاً للحال إلى ثاني عشر رجب ، فوصل قاصد آخر أن الإفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا و نزلوا عين بصة ، ووصل أوائلهم إلى الزّيب(١) ، فعظم ذلك عنده و كتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدمون بالعساكر الإسلامية بالمسير إلى المخيّم المحروس ، وعاد فجدد الكتب و الحثّ و تقدّم إلى الثقل أن سار بالليل ، و أصبح هو صبيحةَ الثالثَ عشر سائراً إلى عكا على طريق طبرية ، إذ لم يكن ثَمَّ طريق يسع العسكر إلا هو ، و سيّر جماعة على طريق تبنين يستطلعون

(١)الزيب : قرية كبيرة (بلدة) ساحلية قرب عكا .

العدو و يواصلون بأخباره ، و سرنا حتى أتينا الحُولة[1] منتصف النهار ، فنزل بها ساعةً ثم رحل و سار طول الليل ، حتى أتى موضعاً يقال له المنية صباح الرابع عشر ، و فيه بلَغنا نزولُ الإفرنج على عكّا يوم الاثنين الثالث عشر ، و سيّر صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سُوْء صنيعه ، و سار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية[2] ، فإنّه كان واعدهم إليه ، و تقدَّم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، و لم يزلْ حتى شارف العدوّ من الخروبة ، و بعث بعض العسكر و دخل عكا على غِرّة من العدوّ تقويةً لِمَنْ فيها ، و لم يزلْ يبعثُ إليها بعثاً بَعْدَ بعث حتى حصل فيها خَلْقٌ كثير و عددٌ وافر ، و رتّب العسكر ميمنةً و ميسرة وقَلْباً، و سار من الخرّوبة[3]، و كان قد نزل عليها خامسَ عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تل كيسان[4]، في أوائل مرج عكا ، و أمر الناس أن ينزلوا على تلك التعبية ، و كان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، و آخر الميمنة مقارب تل العياضية ، فاحتاط[5] العسكر الإسلامي المنصور بالعدوّ المخذول ، و أخذ عليهم الطرف من الجوانب، وتلاحقت العساكر الإسلامية و اجتمعت ، و رتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو و حصر العدو في خيامه ، من كل جانب ، بحيث لا يقدر

---

(١)الحُولة (بضم الحاء) : كورة (بلاد) سهلية بين بانياس الداخل و صور .(٢)صفّورية : على مقربة من طبرية بالأردن .

(٣)الخرّوبة : حصن في الساحل قرب عكا . (٤) تل كيسان : موضع في مرج عكا .

(٥)احتاط : أراد طوّق .

أن يخرج منها واحد إلا و يجرح أو يقتل ، و كان معسكر العـــدو علـــى شطر مِنْ عكا و خيمة ملكهم على تل المصليين ، قريباً من باب البلـــد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، و عدد راجلهم ثلاثين ألفاً ، وما رأيـــت من أنقصهم عن ذلك ، و رأيت مَنْ حزّرهم بزيادة على ذلك ، ومددُهـــم من البحر لا ينقطع ، و جرى بينهم و بيـــن الـــيزك مقـــاتلات عظيمـــة متواترة، و المسلمون يتهافتون على قتالهم ، و السلطان يمنعهم من ذلـــك إلى وقته ، و البعوث من العســـاكر الإســـلامية تتواصـــل ، و الملـــوك والأمراء من الأقطار تتتابع ، فأول مَنْ وصل الأميرُ الكبير مظفّرُ الدّيـــن ابن زين الدين . ثم قدِم بعده الملك المظفَّرُ صاحبُ حماة . و فـــي أثنـــاء هذا الحال تُوفِّي حسام الدين سنقر الأخلاطي ، وأسف المســـلمون عليـــه أسفاً شديداً ، فإنّه كان شجاعاً ديّناً .

ثم إن الإفرنج لما تكاثروا و استفحل أمرهم استداروا بعكا بحيـــث منعوا من الدخول و الخروج ، و ذلك في يوم الخميس سلخ رجب . ولما رأى السلطانُ ذلك عظُم لديه و ضاق صدرُه ، و ثارت همتـــه العليّـــة ، وفتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلةُ إليها بالميرة و النجدة و غير ذلك ، فأحضر أمراءه و أصحاب الرأي من دولته و شاورهم في مضايقة القوم، و انفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة ، بحيث ينفصل أمرهـــم بالكلية و يفتح الباب و الطريق إلى عكا ، فبـــاكرهم صبيحـــة الجمعـــة مستهل شعبان و سار مع العسكر و قد رتبه للقتال ميمنة و ميسرة و قلباً، و ضايقهم مضايقة شديدة ، و كانت الحملة بعد صلاة الجمعـــة اغتنامـــاً لدعاء الخطباء على المنابر ، و جرتْ حملات عظيمة و قَلبات كثـــيرةٌ ،

واتصل الحربُ إلى أن حال بين الفئتين هجومُ الليل ، و بات الناس على حالهم من الجانبين ، شاكي السلاح تحرُس كلٌّ طائفة نفسها من الطائفة الأخرى .

﴿ذكر فتح الطريق إلى عكا﴾

و لما كانت صبيحة السبت[١] أصبح الناس على القتال و أنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا و لم يكن هناك للعدو خيم لكن العسكر كان قد امتد جريدة إلى البحر فحملوا عليهم فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة و قتلوا منهم جمعاً كثيراً ، وانكفّ السالمون منهم إلى خيامهم ، و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ، و انفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسمّاة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده و صار الطريق مَهْيَعاً[٢] يمر فيه السُّوقي ومعه الحوائج ، و يمر به الرجل الواحد و المرأة و اليزك بين الطريق وبين العدوّ ، مانعاً من يخرج من عسكرهم أو يدخل ، و دخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا ، ورَقِيَ على السورَ و نظر إلى عسكر العدو تحت السور ، و فرح المسلمون بنصر الله ، وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان ، و استدار العسكر الإسلامي حولَ العسكر الإفرنجي ، وأحدقوا بهم مِنْ كل جانب .

---

(١)السبت ٢/٨/٥٨٥هـ .

(٢)مَهْيَع (كمقْعد) بيّن واضح (لاحِب) .

و لما استقرّ به ذلك تراجع الناسُ عن القتال، و ذلك بعد الظـــهر لسَقْي الدّواب ، و أخْذِ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حـــظاً مــن الراحة عادوا إلى القتال لمناجزة القوم ، و ضاق الوقـــت و أخـذ الضجر و التعب من الناس فلم يرجعوا إلى القتال في ذلك اليوم ، و بـات الناس على أنهم يصبّحونهم بُكْرةَ الأحد إلى القتال رجاء المناجزة بالكلّيّة، و اختفى العدوّ في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد . و لما كانت بكـــرةُ الأحد ثالث شعبان تَعبَّى الناس للقتال ، و أحدقوا بالعدو و عزموا علـــى مهاجمة القوم ، و على أن يترحل الأمراء و معظم العسكر ، و يقـــاتلوا العدو في خيامه ، فلما تهيَّؤوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلـــى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كلّه إلـــى داخـــل عكـــا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائــه ، و تركب العساكر الإسلامية من خارجٍ مِنْ سائر الجوانـــب ، و يحملـــوا حملة الرجل الواحد ، و السلطان يوالي هذه الأمور بنفســـه و يكافحـــها بذاته، لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات ، و هو من شـــدة حِرْصـــه ووفور همته كالوالدة الثكلى .

و لقد أخبرني بعضُ أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحـد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً ، لفَرْط اهتمامه ، و فعلوا مـــا كـــان عزم عليه ، واشتدّت منعة العَدْوى ، و حَمى نفسه في خيامه ، و لم تـزل سوق الحرب قائمة ، تباع فيها النفوسُ و النفائسُ . و تمطر سماء حربـها الرؤوسَ من كل رئيس و مترائس ، حتى كانَ يومُ الجمعة ثامن شعبان .

﴿ذكر تأخُّر الناس إلى تلّ العياضية﴾

و لما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم و فارسهم و امتدوا على التلول و ساروا الهوينى غير مفرطين في أنفسهم و لا خارجين من راجلهم ، حيث كانت الرّجّالة حولَهم كالسور المبنيّ يتلو بعضهم بعضاً ، حتى قاربوا خيام اليزك . و لما رأى المسلمون ذلك و إقدامَ العدوّ عليهم شدوا و تنازعت الشجعان ، و تنازلت الكماة إلى الأقران . و صاح السلطانُ بالعساكر الإسلامية ، يا للإسلام ، فركب الناسُ بأجمعهم ،ووافق فارسُهم راجلهم ، و شابّهم شيخَهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول ، فعاد ناكصاً على عقبيه ، و السيف يَعْمَلُ فيهم ، و السالم منهم جريح ، و العاطب طريح ، مشتدون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ، و لا تلوي الجماعة منهم على قتيلهم ، حتى لحق الخيامَ مَنْ سَلِمَ منهم ، و انكفّوا عن القتال أياماً ، وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسَهم . و يحرسوا رؤوسهم .

و استقر فتح طريق عكا و المسلمون يتردّدون إليها ، و كنت ممّنْ دَخَلَ ، ورَقِيَ على السور، و رمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور و دام القتال بين الفئتين متصلاً الليل و النهار ، حتى كان الحادي عشر من شعبان ، و رأى السلطان توسيعَ الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، و هو تل قبالة تل المصليين ، مشرف على عكا وخيام العدو . و في هذه المنزلة تُوفّي حسام الدين ظمآن ، و كان من الشجعان ، و دفن في سفح هذا التل ،

وصلَّيْتُ عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصفِ شعبان ، و قد مضي من الليل هَزِيْعٌ(١) رحمه الله .

﴿ذكر وقعة جرَتْ للعرب مع العدوّ﴾

و كان سببُ ذلك أنَّه بلغنا أنَّ جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرَف النهر ، مما يَنْبُتُ عليه ، فأكمن السلطانُ لهم جماعةً من العرب ، و قصد العرب لخفّتهم على خيلهم ، و أمْنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم ، فهجموا عليهم ، و قتلوا منهم خلقاً عظيماً ، و أسروا جماعة و أحضروا رؤوساً عديدة بين يديْه ، فخلع عليهم و أحسنَ إليهم ، و كان ذلك في السادسَ عشرَ(١). و في عشيَّةِ ذلك اليومِ وقع بين العدوّ وبينَ أهل البلد حربٌ عظيمٌ(٢)، قُتِلَ فيه جُمْعٌ عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفئتين و ما يخلو يومٌ من قتل و جرح و سَبْي و نهب، وأنِسَ البعض بالبعض ، بحيث إن الطائفتين كانا يتحدثان و يتركان القتال ، وربما غنّى البعضُ و رقص البعضُ لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة . و كان الرجالُ يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال، فقالوا : إلى كم تقاتل الكبار و ليس للصغار حظٌّ ؟ نريد أن يتصارع صبيانٌ منا و منكم ، فأخرج صبيّان من البلد إلى صبيّين من الإفرنج ، واشتد الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين ، فاختطفه و ضرب به الأرض و قبضه أسيراً ، فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين ، و قالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين و أطلقه ، و هذه نادرة

(١)هزيع : قطعة ، قسم .

(١)١٦/٨/٥٨٥هـ .(٢)كلمة "حرب" تذكّر و تؤنّث.

غريبة ، ووصل للفرنج مركبٌ فيه خيلٌ ، فهرب منها فرس ووقع في البحر ، و ما زال يسبح و هم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكّا و أخذه المسلمون .

﴿ذكر المصافّ الأعظم على عكا﴾

و ذلك أنه لما كان يومُ الأربعاء الحادي و العشرون تحرّكت عساكرُ الإفرنج حركة لم تكنْ لهم بمثلها عادة ، فارسُهم و راجلُهم وكبيرُهم و صغيرُهم ، فاصطفّوا خارج خيمهم قلباً و ميمنة و ميسرة ، وفي القلب الملك ، و بين يديه الإنجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس ، مغطّى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، و هم يسيرون بين يدي الملك[١] ، و امتدّت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام ، من أوّلها إلى آخرها ، و كذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، و كان طرف ميمنتهم إلى النهر[٢]، وطرف ميسرتهم إلى البحر ، و أما العسكر الإسلامي المنصور فإن السلطان أمر الجاويش أنْ نادِ في الناس ياللإسلام و عساكر الموحِّدين ، فركب الناسُ و قد باعوا أنفسَهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدي خيامهم و امتدَّت الميمنةُ إلى البحر و الميسرة إلى النهر كذلك أيضاً ، و كان رحمه الله قد أنزل الناسَ في الخيم ميمنةً و ميسرةً و قلباً ، تعبية الحرب حتى إذا وقعت صيحةٌ لا

(١)" و صوّروا صورة المسيح ، و صورة عربي يضرب المسيح ، و قد أدماه ، و قالوا : هذا نبيّ العرب يضرب المسيح" [المختصر من أخبار البشر ٧٦/٢] .

(٢)نهر صغير (نُهَيْر) ينحدر من الجهة الجنوبية الشرقية ، و يصب قريباً من عكا ، من جنوبها، في خليج عكا . و هو أشبه بالوادي .

يحتاجون إلى تجديد ترتيب ، و كان هو في القلب و في ميمنة القلب ولدُه الملك الأفضل ، ثم عسكر الموَاصلة يقدُمهم ظهرُ الدين بن البَلَنْكَرِي ، ثـم عـسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ، ثـم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، و كان فـي طرفـها الملـكُ المظفّر تقيُّ الدين بجحفله و عسكره ، و هو مطلّ على البحر .

و أمّا أوائلُ الميسرة فكان مما يلي القلـبَ سـيفُ الديـن علـيّ المشطوب ، و عليّ بن أحمد من كبار ملوك الأكراد و مقدَّميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية و الهكارية و مجاهد الدين برتقش مقدم عسـكر سنجار وجماعة من المماليك ، ثم مظفّر الدين بن زين الدين بجحفلـه و عسكره ، و أواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يا زكج و رسلان بغا و جماعة الأسدية الذين يضرب بهم المثل ، و مقـدّم القلـب الفقيهُ عيسى وجمعهُ .

هذا و السلطان يطوفُ على الأطلاب بنفسه يحثّهم على القتـال ، ويـدعوهم إلى النزال ، و يرغبهم في نصر دين الله ، و لم يزل القـوم يتقدّمون ، و المسلمون يُقدمون حتى علا النهار ، و مضى فيـه مقـدارُ أربع ساعات ، و عند ذلك تحرّكت ميسرةُ العدوّ على ميمنة المسـلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، و جـرى بينـهم قلبـات كثـيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، و كان في طَرف الميمنـة علـى البحـر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم ، لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منـهم غـرضاً ، فلما رأى السلطان ذلك ظنّ به ضعفاً و أمدّه بأطلاب عدّة من

القلب حتى قَوِيَ جانبه ، و تراجعتْ ميسرة العدوّ ، و اجتمعتْ على تـلّ مشرف على البحر ، و لما رأى الذين في مقابلة القلب ضعفَ القلب ومَنْ خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمعُ و تحركوا نحـو ميمنـة القلـب ، وحملوا حملةَ الرجل الواحد راجلُهم و فارسُهم ، و لقد رأيـت الرّجّالـة تسير سير الخيّالة ، و هم يسبقون حيناً ، و جاءت الحملةُ علـى الديـار البكرية كما شاء الله تعالى ، و كان بهم غِرّةٌ عن الحرب فتحرّكوا بيـن يدي العدوّ و انكسروا كسرةً عظيمة ، و سرى الأمر حتى انكسر معظـم الميمنة ، واتّبع العدوُّ المنهزمين إلى العياضية ، فإنهم اسـتداروا حـول التلّ، و صعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان ، فقتلوا طشـت دار(١) كان هناك . و في ذلك اليوم استُشهد إسماعيل المكبس و ابـن رواحـة رحمهما الله .

و أما الميسرةُ فإنها ثبتت ، لأنّ الحملـة لـم تصادفْـها ، و أمـا السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فيُنهضهم و يَعِدُهم الوعودَ الجميلـة ، و يحثّهم على الجهاد ، و ينادي فيهم ياَلَلإسلام ، و لم يَبْقَ معه إلا خمسـة أنفس ، و هو يطوف على الأطلاب ، و يخرقُ الصفوف و يـأوي إلـى تحت التل الذي كان عليه الخيام . و أما المنهزمون من العسـكر فإنـهم بلغت هزيمتهم إلى الفخوانة قاطع جسر طبرية ، و أمَّ منهم قومٌ محروسةَ دمشـق ، فأما المتَّبِعون لهم فإنهم اتبعوهم إلى العياضية ، فلما رأوهم قد صـعِدُوا إلى الجبل رجعوا عنهم و جاؤوا عائدين إلى عسكرهم ، فلقيهم جمـاعة من الغلمان و الخريندية و السَّاسة منهزمين على بغال الحمل ،

(١)طشت دار : خادم المغاسل . و الذي يسكب الماء لغسل اليدين .

فقتلوا منهم جماعة ، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة ، وقُتـــل منهم جماعة ، فإن السوق كان عظيماً و لهم سلاح . و أما الذين صعـدوا إلى الخيام السُّلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، و هم ثلاثة نفر ، و رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أنّ الكســرة لا تتمّ فعادوا منحدرين من التلّ يطلبون عسكرهم .

و أمَّا السُّلطان فإنّه كـــان واقفاً تحت التلّ و معه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدوّ ، فلما رأوا الإفرنجَ نـــازلين من التلّ أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أنْ ولّوا ظهورهم و اشـــتدّوا يطلبون أصحابَهم فصاحَ في الناس ، فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعةً، فاشتدّ الطمع فيهم وتكاثرَ النَّاسُ وراءهم حتى لحقوا أصحابَهم ، و الطـودُ وراءهم ، فلما رأوهم منهزمين و المسلمون وراءهم في عدد كثير ظنّـوا أن من حمل منهم قد قُتِلَ ، و أنهم إنّما نجا منهم هذا النفر فقـــط ، و أن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدّوا في الهرب و الهزيمـــة ، و تحركــت الميسرة عليهم، و عاد الملك المظفر بجمعه مـــن الميمنـــة ، و تجمّعــت الرجال و تداعتْ ، و تراجعَ الناسُ من كل جانب ، و كذَّب الله الشيطانَ، و نصرَ الإيمان ، و ظلّ الناس في قتل و طَرْح و ضَرْب و جَرْح إلى أن اتّصل المنهزمون السالمون ، إلى عسكرهم فهجم عليهم فـــي الخيـــام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدّوها خشيةً من مثل هذا الأمـــر ، مستريحةٌ، فردُّوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس ، و العرق قد ألجمـــهم ، فرجِع الناسُ عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى و دمائهم إلـــى خيامهم فرحين مسرورين ، و عاد السلطان في ذلك اليوم إلـــى خيمتـــه

فرحاً مسروراً ، وجلسوا في خيمته يتداركون مَنْ فُقِدَ من الغلمان ، وكان مقدارُ مَنْ فقد من الغلمان المجهولين مائةً و خمسين نفراً ، و من المعروفين استشهد ظهرُ الدين أخو الفقيه عيسى ، و لقد رأيته و هو جالس يضحك و الناس يعزّونه و هو ينكر عليهم ، و يقول هذا يومُ الهناء[1] لا يوم العزاء ، وكان هو قد وقع عَنْ فرسه و أركبه ، فرأيته وقُتل عليه جماعة مِنْ أقاربه ، و قُتل في ذلك اليوم الأمير مجلي . هذا الذي قُتِلَ من المسلمين. و أما من العدو المخذول فحُزِر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، و رأيتهم و قد حملوهم إلى شاطئ النهر لُيُلْقَوا فيه ، فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

و لمّا تمّ على المسلمين من الهزيمة ما تمّ ، و رأى الغلمان خلوّ الخيام عمن يعترض عليهم ، فإنّ العسكر انقسم إلى قسمين : منهزمين ومقاتلين ، فلم يبق في الخيم أحدٌ وراءنا فظنّوا أن الكسرة تتم ، و أنّ العدو ينهب جميع ما في الخيام ، فوضعوا أيديَهم في الخيام ، و نهبوا جميعَ ما كان فيها ، و ذهب من الناس أموالٌ عظيمة ، و كان ذلك أعظمَ من الكسرة وقعاً .

ولمّا عاد السلطانُ إلى الخيم و رأى ما قد تمّ على الناس من نَهْب الأموال و الهزيمة سارعَ إلى الكتُب و الرسل في ردّ المنهزمين ، وتتبُّع مَنْ شذ من العسكر، و الرسل تتابَعَ في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيتق، وأخذوهم بالكُرْه إلى عسكر المسلمين ، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكفّ الغلمان إلى خيمته حتى جِلالات الخيل ، و المخالي بين يديه في

(١)الهناءة : بالتاء المربوطة ، اللّذاذة و الإساغة . و الهناء : اسم هَنَأه .

خيمته ، و هو جالس و نحن حوله و هو يتقدَّم إلى كل مَنْ عرف شيئاً ، وحلف عليه يسلّم إليه ، و هو يلقى هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه منبسط ، و رأي مستقيم غير مختبط ، و احتساب لله تعالى ، و قوّة عزم في نُصْرة دين الله .

و أما العدو المخذول فإنّه عاد إلى خيمته و قد قُتل شجعانهم وطُرِحت مقدّموهم ، و فُقدت ملوكهم، فأمر السلطانُ أنْ خرج من عكا عَجلٌ[1] يسحبون عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليُلْقوا فيه . و لقد حكى لي بعضُ من وَلِيَ أمر العجل أنه أخذ خيطاً ، و كان كلّما أخذ قتيلاً عقد عقدة ، فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعةَ آلاف و مائة و كسوراً ، و بقيَ قتلى الميمنة و قتلى القلبِ لم يعدَّهم ، فإنه ولي أمرَهم غيرُه ، و بقي من العدوّ بعد ذلك مَنْ حمى نفسه، و أقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم ، وتشتّت من عساكر المسلمين خلْقٌ كثير سببَ الهزيمة ، فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سبيلهم ، و أخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة و أعادها إلى أصحابها ، و أقام المناداة في العساكر ، و قرنَ النداءَ بالوعيد و التهديد، وهو يتولّى تفرقتَها بنفسه بين يديه ، و اجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته ، حتى إنّ الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر ، و أقام مَنْ ينادي على من ضاع منه شيءٌ ، فحضر الخلْقُ ، وصار من عرَّف شيئاً و أعطَى علامته حلَفَ وأخذه ، من الحبْل والمخْلاة إلى الهِمْيان[2] و الجوهر ، و لقي من ذلك

(١)عربة ذاتُ عجلات .(٢)الهِمْيان : المنطقة . كيس للنفقة يشدّ في الوسط . جمعه : هماين و همايين .

مشقة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نعمةً من الله تعـالى يُشْكَرُ عليـها .
ويسابق بيد القَبُول إليها. ولقد حضرت يومَ تفرقةِ الأقمشة على أربابـها فرأيتُ سوقاً للعدل قائمةً لم يُرَ في الدنيا أعظمُ منها ، و كان ذلك في يـوم الجمعة الثالث و العشرين من شعبان ، و عنـد انقضـاء هـذه الواقعـة وسكون ثائرتها أَمرَ السلطان بالثّقل حتى تراجع إلى موضـع يقـال لـه الخرّوبة[1]، خشيةً على العسكر من روائح القتلى و آثار الوخـم[2] مـن الوقعة ، و هو موضع قريبٌ من مـكان الوقعة ، إلا أنه أبعدُ عنها مـن المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل ، وضُربت له خيمة عند الثقل ، و أمـر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه ، و ذلك في التاسـع و العشرين واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشـهر ، ثـم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنتُ من جملة الحاضرين .

ثم قال :" بسم الله و الحمد لله ، والصـلاةُ علـى رسـول الله .
اعلموا أنّ هذا عدوّ الله و عدوُّنا قد نزل في بلادنا ، وقـد وَطِـئَ أرضَ الإسلام . و قد لاحتْ لوائحُ النصر عليه إنْ شاء الله تعالى ، و قد بقـي في هذا الجمع اليسير و لا بدَّ من الاهتمام بقلعه ، و اللهُ قد أوجب علينـا ذلك ، و أنتم تعلمون أنّ هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدةٌ نَنْتَظِرها سـوى الملك العادل ، و هو واصلٌ ، و هذا العدوُّ إنْ بقي و طال أمره إلـى أنْ يفتح البحر جاءه مددٌ عظيم ، و الرأيُ كلُّ الـرأي عنـدي مناجزتُـهم ، فلينجزْنا كلٌّ منكم ما عنده في ذلك .

(١)الخرّوبة : حصن بسواحل الشام مشرف على عكّا .

(٢)الوَخَمُ : تعفّن الهواء المورث للأمراض الوبائية . و الضّرر و الوسخ .

و كان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية ، وامتخضت الآراء ، و جرى تجاذبٌ في أطراف الكلام ، و انفصلت آراؤهم إلى أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخرّوبة ، و أن يبقى العسكر أياماً حتى يستجمّ من حمل السلاح ، و ترجع النفوس إليهم ، فقد أخذ التعبُ منهم و استولى على نفوسهم الضجرُ ، و تكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القُوَى لا تُؤْمَنُ غائلته . و الناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوقَ الخيل ، و الخيلُ قد ضجِرَتْ من عرك اللُّجُمِ ، و سئمت نفوسُها ذلك .

و عند أخذ حظّ من الراحة ترجع نفوسُها إليها ، و يصل الملكُ العادل و يشاركنا في الرأي والعمل ، و سنعيدُ مَنْ شذّ من العساكر ، ونجمع الرّجّالة ، ليقفوا في مقابلة الرجالة ، و كان بالسلطان التياثٌ مزاجيٌّ قد عراه مِنْ كثرة ما حَملَ على قلبه ، و ما عاناه من التعب بحمل السلاح و الفِكْر في تلك الأيام ، فَوقَّعَ ما قالوه و رأوه مصلحة . وكان انتقالُ العسكر إلى الثقل ثالث رمضان ، و انتقال السلطان تلك الليلة ، و أقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر ، و ينتظر أخاه ، إلى عاشر رمضان(١).

﴿ذكر وصول خبر الألمان﴾

و لما دخل رمضان من شهور سنة خمس و ثمانين و خمسمائة وَصلَ مِنْ جانب حَلبَ كتبٌ من ولده الملك الظاهر عزّ نصره يخبر فيها

(١)على أنّ اضطرار العسكر إلى الانتقال عن عكا إلى الخرّوبة أتاح للإفرنج فرصة محاصرة عكا . و في هذه الفترة وصل الملك العادل بعسكر مصر .فانضمّوا إلى الجيش الإسلامي المقاتل.

أنه قد صحّ أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية في عُدّة عظيمة . قيل : مائتا ألف . و قيل : مائتان و ستون ألفاً . يريد البلاد الإسلامية ، فاشتدّ ذلك على السلطان ، و عظُم عليه ، و رأى استسيار الناسِ للجهاد و إعلامَ خليفةِ الوقت بهذه الحادثة . فاستدعاني لذلك و أمرني بالمسير إلى صاحب سنجار و صاحب الجزيرة و صاحب الموصل و صاحب إربل ، و استدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم و عساكرهم ، و أمرني بالمسير إلى بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك ، و تحريكِ عزمه على المعاونة . وكان الخليفةُ إذ ذاك الناصرَ لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيءِ بأمر الله ، و كان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضانَ ، ويسّر الله تعالى الوصولَ إلى الجماعة و إبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا بنفوسهم ، و سار عمادُ الدين زنكي صاحبُ سنجار بعسكره و جمعه في تلك السنة[1]، و سار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجرّ عسكره ، و سيّر صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرّم شاه بمعظم عسكره . و حضرتُ الديوان السعيد ببغداد و أنهيْت الحالَ كما رسم ، ووَعَد بكلّ جميل .

و عُدْتُ إلى خدمته رحمة الله عليه ، و كان وصولي إليه في يوم الخميس خامسَ ربيع الأول من شهور سنة ستّ و ثمانين ، و كنتُ قد سبقتُ العساكر و أخبرته بإجابتهم بالسمع و الطاعة وباهتمامهم بالمسير ، فسرّ بذلك و فرح فرحاً شديداً .

---

(١)سنة ٥٨٥ هـ .

﴿ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا﴾

و لما كان صفرُ من تلك السّنة خرج السلطان يتصيَّدُ مطمئنَّ النفس ببُعْدِ المنزلة عن العدوّ ، فأوغل في الصيد ، و بلغ ذلك العدوّ فأخذوا غِرّة العسكر و اجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الإسلامي فأحسّ بهم الملكُ العادلُ ، فصاح بالناس و ركبت العساكرُ مِنْ كل جانب ، و حمل على القوم ، و جرت مقتلةٌ عظيمة قتل و جرح بينهما منهم خَلْقٌ عظيم ، و لم يقتل من معروفي المسلمين إلا مملوكٌ للسلطان يقال له أرغش ، و كان رجلاً صالحاً استُشْهد في ذلك اليوم ، وبلغ الخبرُ إلى السلطان فعاد منزعجاً فوجد الحرب قد انفصل ، وعاد كلٌّ فريق إلى حزبه ، و عاد العدوّ خائباً خاسراً ، و لله الحمد و المِنّة .

و ما مضى من الوقعات شاهدتُ منها ما يشاهده مثلي ، و عرفتُ الباقي معرفةً خاصة في هذه الأمور . و من نوادر هذه الواقعة أنّ مملوكا كان للسلطان يُدْعى قره سنقر و كان شجاعاً قد قتل من أعداء الله خلقاً عظيماً وفتك فيهم ، فأخذوا قلوبهم من نكايته فيهم ، و تجمعوا له وكمنوا له وخرج إليه بعضُهم و تراءوا له فحمل عليهم ، حتى صار بينهم فوثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسك واحدٌ منهم بشعره و ضرب الآخر رقبتَه بسيفه ، فإنه كان قتل له أقرباء ، فوقعت الضربةُ في يد المُمْسِكِ بشعره فقَطَعتْ يده ، و خُلّي سبيلُه فاشتد هارباً ، حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداءُ الله يشتدّون عَدْواً خَلْفَه ، لم يلحقْه منهم أحدٌ ، و عاد سالماً ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً .

﴿ذكر وفاة الفقيه عيسى﴾

و هي مما بلغني و لم أكن حاضرها ، و ذلك أنّه مرض مرضاً يتعاهده ، و هو ضعيف النفس ، و عرض له إسهال أضعفه فلم تقطع صلابته ، و لم يغب ذهنه عنه ، إلى أنْ مات ، و كان رحمه الله كريماً شجاعاً حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين ، تُوفي رحمه الله طلوع فجرِ الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهور سنة خمسٍ وثمانين[١] .

﴿ذكر تسليم الشقيف سنة ست و ثمانين﴾

و لما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول علم الإفرنج المستحفظون بالشقيف أنّهم لا عاصمَ لهم من أمر الله ، و أنهم إن أخِذوا عَنْوةً ضُربت رقابُهم ، فطلبوا الأمان و جرتْ مراجعات كثيرة في قاعدة الأوان ، و كانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب ، فاستقرّت القاعدة على أنّ الشّقيف يُسَلّم ، و يطلق صاحبه وجميع منْ فيه من الإفرنج ، و يترك ما فيه من أنواع الأموال و الذخائر ، و عاد صاحب صاحب صَيْدا و الإفرنج الذين كانوا بالشقيف إلى صور .

و لما رأى السلطان من اهتمام الإفرنج من أقطار بلادهم بالمكان و تصويب عزائمهم نحوه اغتنم الشتاءَ و انقطاعَ البحر و جعل في عكا من الميرةِ و الذخائر و العُدد و الرجال ما أمِنَ معه عليها مــعَ تقدير الله

---

(١) عيسى بن محمد الهكّاري ، ضياء الدين : مستشار السلطان صلاح الدين الأيوبي ، كان في مبدأ أمره يشتغل بالفقه في حلب ــ و اتصل بالأمير أسد الدين شيركوه فصار إمامه ، وتوجّه معه إلى مصر، ولما توفّي شيركوه سعى الهكّاري إلى أنْ يحلّ صلاح الدين محل عمّه في الوزارة ، فلما بلغ صلاح الدين من السُّلطة ما بلغ لم ينسَ لذلك الفقيه سابقته ، فكان محل ثقته و استشارته ، حتى مات الفقيه عيسى بقرب عكا سنة ٥٨٥ هـ

تعالى ، وتقدم إلى النواب بمصر أن عَمّروا لها أسطولاً عظيماً يحمل خلقاً كثيراً و سار حتى دخل عكا مكابرةً للعدو و مراغمةً له ، و أعطى العساكر دستوراً طولَ الشتاء يستجمعون و يستريحون ، و أقام هو مع نفر يسير قُبالةَ العدوّ ، و قد حال بين العسكرين شدة الوحول و تعذر بذلك وصولُ بعضهم إلى بعض .

﴿ ظريفة ﴾

كان لما بلغ خبر العدوّ و قصدِه عكا جَمَعَ الأمراء و أصحاب الرأي بمَرْج عُيون و شاورهم فيما يصنع ،وكان رأيه أن قال: المصلحة مناجزة القوم و منعُهم من النزول إلى البلدِ و إلاّ فإن نزلوا جعلوا الرّجّالة سُوراً لهم و حفروا الخنادق و صعب علينا الوصول إليهم و خيف على البلد منهم ، و كانت إشارة الجماعة أنَّهم إذا نزلوا و اجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد و كان الأمر كما قال السلطان ، و الله لقد سمعت هذا القول و شاهدْتُ الفعل كما قال السلطان . و هو يوافق قوله صلى الله عليهِ و سلم" إنّ من أمتي لمحدَّثين و مكلَّمين ، و إن عمرَ لمنهم" (١)

﴿ ذكر وصول رسول الخليفة ﴾

و لم يزل السلطان مجدّاً في الإنفاذ إلى عكا بِالميرة و العُدَدِ

(١) أخرج الإمام البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدّثون ، و إنّه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب " (صحيح البخاري : الأنبياء ، باب حديث الغار ٣٢٨٢ . و مسلم : فضائل الصحابة ، باب :من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه ٢٣٩٨ و الترمذي : المناقب : باب :" إن يكن محدّثون فعمر " ٣٦٩٤ . و هو في إتحاف السادة المتقين للزبيدي (تصوير بيروت) ٢٥٩/٧ بلفظ : " إن من أمتي محدّثين و مكلّمين ، و إنّ عمر منهم " .

و الأسلحة و الرجال حتى انقضى الشتاءُ ، و انفتح البحر ، و حان زمان القتال فكتب إلى العسكر يستدعيها من الأطراف ، و لما تواصل أوائلُ العساكر و قوِيَ جيشُ الإسلام رَحَلَ السُّلطانُ نحو العدوّ ، و نزل على تلّ كَيْسان و ذلك في ثامن عشر ربيعِ الأوّل سنة ست و ثمانين ، و رتّب العسكر قلباً و ميمنَةً و ميسرة ، و أخذت العساكرُ في التواصُلِ و النَّجْدَة في التواتر، فوصل رسولُ الخليفةِ ، و هو شاب شريفٌ ،و وصل معه حِمْلان من النِّفْط و جماعةٌ من النفَّاطين و الزَّراقين و وصل معه من الديوان العزيز النبويّ مجَّده اللهُ تعالى رقعةٌ تتضمن الإذنَ للسلطان أنْ يقترض عشرين ألف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ، و يحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميعَ ما وصل مع الرّسول و استغنى عن الرُّقعة و التثقيل بها .

و في ذلك اليوم بلغ السلطانَ أنّ الإفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم لشغلهم بالقتال عن البلد و قاتلهم قتالاً شديداً إلى أنْ فَصَل بين الطائفتين الليلُ ، و عاد كلُّ فريق إلى أصحابه ، و رأى السلطانُ قوّةَ العساكر الإسلامية و بُعْد المكان عن العدوّ فخاف أنْ لا يهجم البلد و يَتمّ عليه الأمر ، فرأى الانتقالَ إلى تل العجول بالكلّيَة فانتقل بالعسكر و الثقل في الخامس و العشرين (١) ، و في صبيحة هذا اليوم وصلت كتب أن قد طمَّ العدوُّ بعض الخندق ، و قوِيَ عزمُه على منازلة البلد و مضايقته ، فجدَّد الكتبَ إلى العساكر بالحثّ على الوصولَ و عُبّي العسكر تعبئةَ لقتال ، و زحف إلى العدو ليشغله عن ذلك .

(١) ٢٥/٣/٥٨٦ هـ

و لما كان سحر ليلة الجمعة السابع و العشرين وصل ولدُه الملكُ الظّاهر غياثُ الدين غازي صاحب حلب جريدة إلى خدمته معاجلة للبِرّ[1] و ترك عسكره في المنزلة ، و خدم والده وبَلَّ شوقَه منه ، و عاد إلى عسكره في الثامن و العشرين ، و سار حتَى وصل في ذلك اليوم بجحفله، وقد أظهروا الزينة و لبسوا لأمة الحرب ، و كثرت الأعلام والبيارق، و ضربت الكؤوسات ، و نعَقت البوقات ، و عرضَ بين يدي والده ، وكان قد ركب إلى لقائه في المرْج،وسار بهم حتى وقف بهم على العدوّ ، و شاهدوا من جند الله ما أزعجهم و أقلقهم .

و في أواخر هذا اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضاً مسارعةً للخدمة ، ثم عادَ إلى عسكره في لأمة الحرب ، فعرضهم السلطانُ حتى وقف بهم على العدوّ .

و كان ما تقدّم عسكر إلا يعرضهم و يسيّرهم إلى العدوّ، و ينزل بهم في خيمته يمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما يُطيِّب به قلوبهم إذا كانوا أجانبَ ، ثم تُضْرَب خيامهم حيث يأمر و ينزلون بها مُكَرّمين .

﴿ لطيفة تدلُّ على سعادة ولده الملك الظاهر عزَّ نصره ﴾

و ذلك أن العدوّ كان قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب و حديد و ألبسها الجلود المسقاة بالخلّ على ما ذكر ، بحيث لا تنفذ فيها النيران ، و كانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عاليةً على سور البلد ، و هي مركبة على عجل يسع الواحدُ منها من المقاتلة ما يزيد

(١) جاء الملك الظاهر غازي في فرقة قبل الجيش ليسارع إلى خدمة أبيه براً به .

على خمسمائة نفر ، على ما قيل ، و يتسع سطحُها ، لأنْ ينصب عليه منجنيق ، و كان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين ، و أودعها من الخوف ما لا يمكن شرحه ، و أيس الناس من البلد بالكلّيّة ، و تقطَّعت قلوبُ المقاتلة فيه ،و كان فَرَغَ مِنْ عملها و لم يبق إلاّ جرُّها إلى قريب للسور، و كان السلطان قد أعمل فكره في إحراقها و إهلاكها ، و جمع الصناع من الزرّاقين و النفّاطين و حثهم على الاجتهاد في إحراقها ، و وعدهم عليه بالأموال الطائلة و العطايا الجزيلة ، و ضاقت حيلُهم عن ذلك،وكان من جملة مَنْ حضر شاب نحّاسٌ دمشقّي ذُكِرَ بين يديه أنّ له صناعةً في إحراقها ، و أنّه إنْ مُكّن من الدخول إلى عكا و حَصَلَتْ له الأدويةُ التي يعرفُها أحرقَها، فحَصَلَ له جميعُ ما طلبه ، و دخل إلى عكا و طبخ الأدوية مع النفط في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار.

ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أنْ وقعتْ فيه فاشتعل من ساعته ووقته ، و صار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء و استغاث المسلمون بالتهليل ، و علاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب ، و بينما الناس ينظرون و يتعجبون إذ رُمِيَ البُرْجُ الثّاني بالقِدْر الثانية ، فما كان إلا أنْ وصَلَتْ إليه و اشتعلت كالتي قبلها ، فاشتدّ ضجيجُ الفئتين ، و انعقدتِ الأصواتُ إلى السّماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضُرِبَ الثالث ، فالتهب و غشِيَ الناس من الفرح والسرور ما حرَّك ذوي الأحلام و النُّهَى منهم حركةَ الشباب الرُّعَنا ، وركِبَ السُّلطانُ و ركبت العساكرُ ميمنةً و ميسرةً و قلْباً ، و كان أواخر النهار ، و سارَ حتى أتى عسكرَ القوم و انتظر أن يخرجوا فيناجزهم ،

عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم " مَنْ فتح باباً من الخير فلينتهزْه " (١) فلم يظهر العدوُّ من خيامهم ، و حال بين الطائفتين الليل ، و عاد كلٌّ فريق إلى حزبه ، و رأى الناسُ ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر ، و استبشر والدُه بغرّته ، و علم أن ذلك بيُمْن صلاح سريرته ، و استمرَّ ركوبُ السلطان إليهم في كل يوم ، و طلب نزالهم و قتالهم ، و هم لا يخرجون مِنْ خيامهم ، لعلمهم ببشائرِ النصر و الظفر بهم و العساكر الإسلامية تتواتر و تتواصل .

﴿ ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحبِ سنجار و غيرِه ﴾

و لما كان الثاني و العشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار يجرّ عسكره ، ووصل بتجمّل حَسَنٍ وعسكر تام ، ولقيه السلطان بالاحترام و التعظيم ، و رتّب له العسكر في لقائه ، و كان أوّل مَنْ لقيه من العسكر المنصور قضاته و كتّابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان ، ثم سارَ به حتى أوقفه على العدوّ ، وعاد معه إلى خيمته ، و أنزله عنَده ، و كان صنع له طعاماً لائقاً بذلك

(١)أخرجه ابن المبارك عن حكيم بن عمير مرسلاً ، و ابن شاهين عن عبد الله بن عثمان بن خليفة بن أوس عن أبيه عن جدّه عن حذيفة رضي الله عنه ، و لفظه : " مَنْ فُتِحَ له بابٌ من الخير فلينتهزْه ، فإنّه لا يدري متى يُغلق عنه " [كنز العمّال : الكتاب الخامس من حرف الميم في المواعظ و الحكم ، الباب الأول في المواعظ و الترغيبات (الترغيب الأحادي من الإكمال ، رقم ٤٣١٣٤] .

اليوم فحضر هو و جميع أصحابه ، و قدم له من التحف واللطائف مالا يقدرُ غيره عليه ، و كان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه ، و بُسط له ثوبٌ أطلس عند دخوله ، و ضرب له خيمة على طرف الميسرة ، على جانب النهر .

و لما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصل سنجرشاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ووصل في عسكر حسن ، فلقيه السلطان واحترمه ، وأكرمه و أنزله في خيمته وأمر أن تضرب خيمته إلى جانب عماد الدين .

و في تاسع الشهر وصل علاء الدين بنُ مسعود صاحبُ الموصل مقدّماً على عسكره ، ففرح السلطان بقدومه فرحاً شديداً ، و تلقّاه عن بُعْدٍ هو و أهله ، و استحسن أدَبه ، و أنزله عندَه في الخيمة ، و كارمه مكارمه عظيمة ، و قدم له تُحَفاً حسنة ، و أمر بضرب خيمته بين ولدَيْه الملك الأفضل و الملك الظاهر ، و ما من أهله إلا مَنْ بَسَطَ له من ضيافته وجهاً مضيئاً .

ولما كانت ظهيرةُ ذلك اليوم ظهرت في البحر قلوعٌ كثيرة ، وكان رحمه الله في نظره وصول الأسطول من مصر ، فإنّه كان قد أمر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، فركب السلطان وركب الناس في خدمته ، و تعبّى تعبية القتال ، و قصد مضايقة العدو، ليشغله عن قصد الأسطول ، و لما علم العدوُّ وصولَ الأسطول استعدّوا له و عمروا أسطولاً لقتاله و منْعِه مِنْ دخول عكا ، و خرج اسطول العدوّ ، واشتدّ السلطان في قتاله من خارج ، و سار الناسُ على جانب البحر تقوية

للأسطول ، و إيناساً لرجاله ، و التقى الأسطولان في البحر، و العسكران في البر ، و اضطرمتْ نيرانُ الحرب و استعرت ، و باع كـــل فريــق روحه براحته الأخروية ، و رجّح حياته الأبدية على حياتــه الدنيويــة ، وجرى بين الأسطولين قتال شديد انقشع عن نصرة الأسطول الإسلامي ، و أخذ من العدو الشواني[1]، و قَتلَ مَنْ به ، و نهَبَ جميع ما فيه و ظفـو من العدو بمركب أيضاً كان واصلاً من قسطنطينية ، ودخل الأســـطول المنصور إلى عكا ، و كان قد صحبه مراكبُ من الساحل فيــها مِـيَرٌ[2] وذخائرُ ، و طابت قلوبُ أهل البلد و انشرحت صدورهم ، فإنّ الضائقــة كانت قد أخذت منهم ، و اتّصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلــى أن فصل بينهما الليل ، و عاد كلٌ فريق إلى خيامه ، و قد قُتِلَ من عــدوّ الله و جُرِح خلق كثيرٌ عظيمٌ ، فإنّهم قاتلوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهـــل البلد اشتدّوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأســـطول أيضـــاً ، والأســـطولان يتقاتلان و العسكر يقاتلهم من البر ، وكان النصر للمسلمين في الأمــاكن كلِّها .

ثم كان وصولُ زين الدين صاحبِ إربل في العشر الأواخر مـــن جمادى الأولى و هو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين، قدم بعســكر حسن و تجمّل جميل ، فاحترمه السلطانُ و أكرمه و أنزله في خيمتـــه ، وأكرم ضيافته و أمر بضرب خيمته إلى جانب أخيه مظفّر الدين .

---

(١)من المراكب البحرية .

(٢)جمع ميرة و هي التموين و المواد الغذائية .

﴿ذكر خبر ملك الألمان﴾

ثم تواترت الأخبارُ بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان ، و أنه نهض للقائه جمعٌ عظيم من التركمان ، و قصدوا مَنْعَهُ من عبور النهر ، و أنه أعجزهم لكثرة خَلْقه و عدم مقدَّم لهم يجمع كلمتَهم ، و كان قليج أرسلان أظهرَ شِقَاقه و هو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عَبرَ إلى البلاد أظهر ما كان أضمر ، ووافقه و أعطاه رهائنَ منه على أنْ يُنْفِذَ معه مَنْ يُوصله إلى بلاد ابن لاون ، و أنفذ معه أدلاء ، و اعتراهم في الطريق جوعٌ عظيم حتى ألقوا بعضَ أقمشتهم . و لقد بلغنا ــ والله أعلم ــ أنهم جمعوا عُدَداً كثيرة من زرديّات و خُوَذٍ و آلاتِ سلاح عجزوا عَنْ حملها و جعلوها سِداراً[١] واحداً و أضرموا فيها النار لتتلف، و لا ينتفع بها أحدٌ ، و أنها بقيت بعد ذلك تلاًّ من حديد ، و ساروا على هذا الحال حتى أتوا إلى بلد يقال لها طرسوس ، فأقاموا على نهر ليعبروه . و أما ملكهم فعن له أنْ يسبحَ فيه ، و كان ماؤه شديد البرد ، وكان ذلك عُقَيْبَ ما ناله من التَّعب و النَّصب و المشقَّة و الخوف ، و أنه عرَضَ له بسبب ذلك مرضٌ عظيم اشتدّ به إلى أنْ قَتَله . و لمّا رأى ما حلَّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته ، و لما مات أجمعوا رأيَهم إلى أنْ سَلَقُوه في خَلّ ، وجمعوا عظامَه في كيس ، على أن يحملوه إلى القدس الشريف حرسَه الله ، و يدفنوه في القدس ، و ترَتّبَ ابنُه مكانَه على خُلْفٍ[٢]

---

(١)يريد كُومة ، يقال تسدَّر بالثوب إذا تجلَّل به ، و السِّدار : شبه الكِلّة تعرض في الخباء .

(٢)خُلْف : اختلاف . تولّى ابنه قيادة الجيش مكانَ أبيه على اختلاف من أمراء ذلك الجيش الألماني وعناصره ، ففريق منهم وافق على ذلك ، و فريق عارض لميله إلى الابن الأكبر لملك ألمانيا ، الذي بقي فيها .

مـــن أصحابه ، فإنّ ولـــده الأكبر كان قد خلفه في بلاده و كان جماعـــة من أصحابه يميلون إليه ، و استقرَّ قدمُ ولده الحاضر في تَقْدِمَةِ العسكر.

ولما أحسَّ ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل ، و ما حلّ بـــــهم من الجوع و الموت و الضعف بسبب موت ملكـــــهم ، رأى أن لا يلقـــيَ بنفسه بينهم ، فإنّه لا يعلم كيفَ يكون الأمر ، و هـــم إفرنـــج ، و هـــو أرمنيّ، فاعتصم هو عنهم في بعضِ قلاعه المنيعة .

﴿صورة كتاب الكايفكوس الأرمني﴾

و لقد وصل إلى السلطان كتاب من الكـــايفكوس ، و هـــو مقـــدم الأرمن ، و هو صاحب قلعةِ الروم التي على طرف الفرات ، نسخة هذه ترجمتها : " كتاب الداعي المخلص الكايفكوس ما أطالعُ به علم مولانـــــا ومالكِنا السلطان الناصر جامعِ كلمة الإيمان . رافع علَم العَدْل والإحسان، صلاح الدنيا و الدين . سلطانِ الإسلام و المســـلمين ، أدام الله إقبالـــه . وضاعف إجلاله . و صان مهجته ، و كمَّـــل نهايـــة آمالـــه ، بعظمتـــه وجلاله، مِنْ أمر مَلِكِ الألمان ، و ما جرى له عند ظهوره ، و ذلك أنّـــه أوّل ما خَرجَ من دياره و دخل بلاد الهنكر غصباً ، غصَبَ مَلِكَ الـــهنكر بالإذعان و الدخول تحت طاعته ، و أخذ مِنْ ماله و رجاله ما اختارَ ، ثم إنه دخَلَ أرض مقدم الروم ، و فَتَحَ البلاد و نهبها ، وأقام بـــها وأخــرج ملك الروم إلى أنْ أطاعه و أخذ رهائنه ، ولده و أخاه و أربعين نفراً منْ خلصائه ، و أخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً ، و خمسين قنطـــاراً فضـــة ، وثياب أطلس بمبلغ عظيم ، و اغتصب المراكبَ و عاد بـــها إلـــى هـــذا

الجانب ، و صحبته الرهائن ، إلى أنْ دخل حـدودَ بـلاد الملـك قليـج أرسلان ، و رد الرهائن ، و بقي سائراً ثلاثةَ أيام و تركمان الأوج يلقونه بالأغنام والبقر و الخيل و البضائع ، فداخلهم الطمع و جمعوا جموعاً من جميع البلاد ووقع القتلُ بين التركمان و بينه ، و ضايقوه ثلاثةً وثلاثيـن يوماً ، و هو سائر ، و لما قرب من قُونية جمع قطب الدين ولـد قليـج أرسلان العساكر ، و قصده و ضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان و كسره كسرة عظيمة ، و سار حتى أشرف على قونية فخـرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين ، و هجَم على قُونيـة بالسّيف و قتل منهم عالماً عظيماً من المسلمين و الفُرْس ، و أقـام بـها خمسةَ أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الأمان ، فأمّنه الملـك ، و استقر بينهم قاعدة أكيدة ، و أخذ الملك منه رهائنَ عشرين من أكابر دولتـه ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طَرَسـوس[١] و المصّيصـةِ[٢]، ففعل ، و قَبِلَ منه ، و قَبْلَ وصوله إلى هذه الدّيـار اختيـاراً أو كُرْهـاً اقتضى الحالُ إنفاذ المملوك حاتم و صحبته مـا سـأل ، و معـه مـن الخواصّ جماعةٌ ، للقاء الملك و جواب كتابـه ، و كـانت الوصيـة أن يمرّوا به على بلاد قليج أرسلان إنْ أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبيـر وأعادوا عليه الجواب عرّفوه الأحوال بالانحراف ، ثـم كـثرتْ عليـه العساكرُ و الجموعُ ، و نزل على شطّ بعض الأنهار ، و أكل خبزاً ونام،

---

(١)طرَسوس (بفتح الطاء والرّاء) " مدينة بثغور الشام بين أنطاكية و حلب و بلاد الروم " [معجم البلدان ٢٨/٤]. (٢) المصيصة : " مدينة .. من ثغور الشام بين أنطاكية و بلاد الروم ، تقـارب طرسوس " [معجم البلدان ١٤٥/٥] .

و انتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البـــارد ، ففعـل ذلــك ، وخرج، و كان من أمر الله أنْ تحرّك عليه مرضٌ عظيم من الماء البـارد فمكث أياماً قلائلَ و مات .

أما ابنُ لاون فإنه كان سائراً يلقى الملك فلما جرى هذا المجـــرى هرب الرسل من العسكر و تقدّموا إليه و أخبروه في الحال ، فدخل فـــي بعض حصونه و احتمى هناك .

و أمّا ابنُ الملك فكان أبوه منذ توجَّه إلى قصد هذه الديار نصَّـــب ولده الذي معه عِوَضَه ، واستقرّت القاعدة ، و بلغه هرب رسل ابن لاون فأنفذ و استعطفهم وأحضرهم ، و قال إنّ أبي كان شيخاً كبيراً و ما قصد هذه الديارَ إلاَّ لأجل حجّ بيت المقْدِس ، و أنا الذي دبّرت الملك و عـلينت المشاقّ في هذه الطريق ، فمن أطاعني و إلاّ قصدتُ ديارَه ، و استعطف ابن لاون واقتضى الحالُ الاجتماعَ ضرورةً .

و بالجملة فهو في عددٍ كثير . لقد عرضَ عسكَره ، فكان اثنيـــن وأربعين مجفجفاً[1]، و أمّا الرَّجَّالة فما يُحْصى عددُهم ، وهــــم أجنـــاس متفاوتة على قصد عظيم وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة ، حتـــى إنَّ مَـــنْ جَنى منهم جنايةً فليس له جزاءٌ إلا أنْ يُذبح مثلَ الشاة . و لقد بلغَهم عـــن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضَربِهِ فـــاجتمعت القسوسُ للحُكم ، فاقتضى الحال و الحكمُ العامّ ذبحَه ، وشفع إلى الملـــك منهم خلقٌ عظيم فـــلم يلتفتْ إلـــى ذلك و ذبحَه ، وقد حرّموا الملاذَّ على

(١)أي اثنتين و أربعين سرية خيّالة ، يقال : جفجف النَّعَم : إذا ساقها بعنف فكانت لها حركة . وجفجـف الماشية : جمعها . و التِّجفاف : (بكسر التاء) آلة للحرب يُلْبسونها الفرس ، وجفَّفَ الفرَس: ألبسه إيّاها .

أنفسِهم ، حتى إنّ مَنْ بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه و عزّروه ، كل ذلــــك كان حُزْناً على البيت المقدس . و لقد صحَّ عَنْ جمع منهم أنهم هجـــروا الثيابَ مُدّةً طويلةً ، و حرّموا ما حلَّ ، و لم يلبَسُوا إلا الحديدَ ، حتى أنكر عليهم الأكابرُ ذلك ، و هم من الصبر على الشقّاء و الذلّ و التعب فـــي حال عظيم . طالعَ المملوكُ بالحال ، و ما يتجدّد بعد ذلك يطالعُ بــــه إن شاء الله تعالى)) هذا كتاب الكايفكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، و اسمه بركري كور بن باسيل .

﴿ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد في طريق ملك الألمان﴾

و لما تحقّق السلطانُ وصول ملك الروم إلى بلاد ابن لاون وَقُرْبَـهُ إلى البلاد الإسلامية جمع أمراءَ دولتِه و أربابَ الآراء و شاورهم فيمـــا يصنع ، فاتّفق الرأيُ على أن العسكرَ بعضُه يسير إلى البلاد المتاخمــــة لطريق عسكر العدوّ الواصل ، و أنْ يقيمَ على منازلـــــة العـــدوّ ببـــاقي العسكر المنصور .

و كان أول مَنْ سار صاحب منبج ، و هو ناصر الدين بن تقــــي الدين ، ثم عز الدين بن المقدّم صاحب كفْرطاب و بارين و غيرهما، ثـــم مجد الدين صاحب بعلبكّ ، ثم صاحب شيزر سابق الدين ، ثم الباروقيّـــة من جُملة عسكر حلب ، ثم عسكر حماة .

و سار ولدُه الملكُ الأفضل مع مرض عَرَضَ له ثم بدر الديـــن شحنة دمشق[1]، مع مرض عَرَض له أيضاً ، و سار بعدَ ذلك ولدُه الملك

(١)صاحب شرطتها .

الظاهر إلى حلب لإبانة الطريق و كشفاً لأخباره و حفظاً لما يليه من البلاد ، و سار بعدّه الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، و تدبير أمر العدوّ المجتاز .

و لما سارتْ هذه العساكرُ خفّت الميمنة ، فإنّ معظمَ مَنْ سار منها، فَأَمَرَ ـ رحمه الله ـ الملكَ العادلَ أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة .

ووقع في العسكر مرض عظيمٌ فمرض مظفّرُ الدين صاحب حرّان و شُفي ، و مرض بعده الملك الظافر و شُفي ، و مرض خَلْقٌ كثيرٌ من الأكابر و غيرهم ، إلاّ أنّ المرضَ كان سليماً بحمد الله ، و كان الموض عند العدوّ أكثرَ و أعظم، و كان مقروناً بمَوَتانٍ[1] عظيم ، و أقام السلطانُ مصابراً على ذلك مرابطاً للعدوّ .

﴿ذكر تمام خبر ملك الألمان﴾

و ذلك أنّ ولده الذي قام مقامه مرض مرضاً عظيماً أقام بسببه بموضع مِنْ بلاد ابن لاون ، و أقام معه خمسةٌ و عشرون فارساً وأربعون داويّاً ، و جهّز عسكره نحو أنطاكيّة حتى يقطعوا الطريق ، ورتّبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ، يقدمها كِنْدٌ عظيم عندهم ، و إن عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مئتي رجل قهراً و نهباً ، و كُبِتَ جُزْءٌ منهم بالضعف العظيم والمرض الشديد و قلة الخيل و الظَّهر و العدد و الآلات .

---

(١)موَتان : (بفتح الواو) ضدّ حيوان ومَوْتان (بتسكينها) موت يقع في الماشية . يريد أن العدوّ قد مُنِيَ بالمرض و الموت ، في أعداد كبيرة من عناصره .

و لما اتصل هذا الخبر بالنّوّاب في البلاد الشامية أنفذوا إليهم عسكراً يكشف أخبارَهم، فوقع العسكرُ على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة ، و قتلوا و أسروا ، و كان مقدارُ ما أخذوه و قتلوه على ما ذكره المُخْبِرون في الكتب زُهاءَ خمسمائة نفس .

و لقد حضرت رسالةُ رسول ثانٍ من كبغا الفرس بين يدي السلطان و هو يذكر خبرهم ويقول هم عدد كثير ، لكنّهم ضعافٌ قليلو الخيل و العدّة ، و أكثر ثقلهم على حمر و خيل ضعيفة . قال: و لقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعتبرَهم، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقةً و لا رُمْحاً إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك فقالوا: أقمنا بمرج و خم أياماً فقلَّ زادنا و أحطابنا ، و أوقدْنا معظم عدَدِنا ، و ماتَ منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحْناها و أكلْناها وأوقدْنا الرّماحَ و العُدَدَ لإعواز الحطَب . و أمّا الكندُ الذي وصل إلى أنطاكية في مقدمة العسكر فإنه مات .

و ذكر أنّ ابن لاون لما أحسَّ منهم بذلك الضّعف طَمِعَ فيهم ، حتى إنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه و ضعفه و قلة جَمْعه الذي تخلّف معه ، و إنّ البرنس صاحب أنطاكية لمّا أحسّ منهم بذلك أرسل إلى ملك الألمان مَن التقطه إلى أنطاكية طمعاً في أن يموت عنده و يأخذ مالهَ ، و لم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف و المرض إلى أنْ وقعتْ وقعةُ العادل على طرف البحر .

﴿ذِكْرُ الوقْعةِ العادليّة﴾

و لما كان يومُ الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة علم عدو الله أنّ العساكر قد تفرّقتْ ، و أنَّ الميمنة قد خفَّتْ ، لأنّ معظم مَنْ سافر كان منها ، بحُكْم قرب بلادهم من طريق العدوّ ، فأجمعوا رأيَــــهم و اتّفقــتْ كلمتُهم على أنهم يخرجون بَغْتةً ، و يهجمون على طرف الميمنة فجــأةً ، و تلاعبتْ بهم آمالُهم ، فخرجوا ظهيرةَ النّهار و امتدوا ميمنة و ميســـرة وقلباً ، و انبثّوا في الأرض ، و كانوا عدداً عظيماً و اســـتخفّوا طــرفَ الميمنة ، و كانَ فيها مخيَّمُ الملك العادل ، فلمّا بَصُرَ الناسُ بهم قد خرجوا في تعبية القتال صاح صائحُهم و خرجوا مــن خيامِــهم كالأســود مــن آجامِها، وركب السّلطانُ و نادى مناديه يا للإسلام ، و ركبت الجيـــوش وطُلبت الأطلابُ ، و لقد رأيتُه ــرحمه الله ــ قد ركَبَ مِنْ خيمته وحولَه نفرٌ يسيرٌ من خواصّه ، والناسُ لم يستتمّ ركوبُهم ، و هو كالفاقدة ولدَها . الثاكلِة واحدَها . ثم ضرب الكؤوس و أجابته كؤوســـات الأمــراء مــن أماكنها و ركب الناسُ .

و أمَّا الإفرنج فإنّهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلـــوا إلى خيمة الملك العادل و دخلوا في طاقه ، و امتدَّت أيديْهم في السُّــــوق وأطرافِ الخيم بالنَّهْب و الغارة ، و قيل وصلوا إلــــى خيمــة الخــاص وأخذوا من شراب خاناتها شيئاً .

و أما الملك العادل فإنّه لما علم بذلك ركِبَ و خَرَجَ من خيمتـــه ، واستركب مَنْ يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي ، و من يجــري

مجراه من أسود الإسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يُوغل بهم طمعُهم في الخيَم ، ويشتغلوا في النهب و كان كما ظنّ ، فإنهم عاثتْ أيديهم في الخيام و الأقمشة والفواكهِ والمطاعم ، فلمّا علم اشتغالَهم بذلك صاح بالناس و حمل بنفسه وحمل حملَتَه مَنْ كان يليه من الميمنة ، و اتّصل الأمرُ بجميع الميمنة حتى وصل الصائحُ إلى عسكر الموصل و هجموا على العدوّ هجمةَ الأُسُود على فريستها ، و أمكنَهم اللهُ منهم ، ووقعت الكَسْرةُ ، فعادوا يشتدّون نحو خيامهم هاربين ، و على أعقابهم ناكِصين ، و سيفُ الله فيهم يلتقط الأرواحَ مِن الأشباح . و يفصل بين الأجساد والرؤوس ، ويفرق بين الأبدان و النفوس .

و لما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفعَ ممّا يلي خيام أخيه ثارتْ في قلبه نارُ الإشفاق و حركت الحميّة أُخُوّته ، وأنهضت لرغبةٍ في نصرة دين الله و الخوف على أوليائه عزيمته . وصاح صائحُه في الناس يا للإسلام و أبطال الموحدين ، هذا عدوٌّ الله قد أمكن اللهُ منه ، وقد داخله الطمعُ حتى غشيَ خيامَكم بنفسه .

فكان من المبادِريْنَ إلى إجابة دعوته جماعةٌ من مماليكه وخاصّته و حلقته ، ثم طلَبُ عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلَبي ، و تتابعت العساكرُ و تجاوبت الأبَطال ، ووقف هو رحمه الله في القلب خشيةَ أن يستضعف العدوٌّ القلب، بحكم ما أنفذ منه من العساكر ، فينال غرضاً ، فتواصلت العساكر و اتّصل الضربُ ، وقامت سوقُ الحرب .

فلم يكنْ إلا ساعة حتى رأيتَ القوم صرعى كأنهم أعجازُ نخْلٍ خاويةٌ ، و امتدّوا مطروحين من خيام الملك العادل إلى خيامهم ، أولُّهم في الخيم الإسلامية ، و آخرهم في خيم العدو صَرْعى على التِّلالِ والوِهاد ، و شربت السيوفُ مِنْ دمائهم حتى رَوِيَت . وأكلتْ أُسدُ الوغَى بأسنانِ الظَّفَرِ منهم حتى شبعت ، و أظهر الله كلمته ، وحقَّق لعبده نُصْرته ، و كان مقدارُ ما امتدّ فيه القتلى فيما بين الخيامين فَرْسخاً، وربما زاد على ذلك .

و لم ينجُ من القوم إلاّ النادر ، ولقد خُضْتُ في تلك الدماء بدابتي، و اجتهدتُ في أنْ أَعُدَّهم فما قدرْتُ على ذلك لكثرتهم و تَفَرُّقِهِم ، و شاهدتُ فيهم امرأتين مقتولتَيْنِ .

و حكى لي مَنْ شاهدَ أربع نسوةٍ يقاتلْنَ و أُسِرَ منهنّ اثنتان ، وأُسر من الرجال في ذلك اليوم نَفَرٌ يسير ، فإن السّلطان كان أمرَ الناسَ أن لا يَسْتبقوا أحَداً .

هذا كلُّه في الميمنة و بعض القلب ، و أما الميسرةُ فما اتّصل الصائحُ بهم إلا وقد نَجَزَ الأمرُ ، و قُضي القضاء على العدوّ ما بين الظهر و العصر ، فإن العدوّ ظهر قائم الظهيرة و انفصلت الحرب بعد صلاة العصر .

و انكسر القومُ حتى دخلتْ طائفةٌ من المسلمين وراءهم إلى مخيَّمهم على ما قِيل ، و لم يُفْقَدْ من المسلمين أحدٌ في ذلك اليوم ، سوى عشرة أنفسٍ غيرِ معروفين .

ولما أحسّ جندُ الله بعكّا بما جرى من الوقعة . فإنّهم كانوا يشاهدون الوقعةَ من أعالي السُّور . خرجوا إلى مخيّم العدوّ ، وجرَتْ بينهم مقتلة عظيمة ، و كانت النصرةُ للمسلمين ، بحيث هجموا خيامَ العدو و نهبوا منها جَمْعاً من النسوان و الأقمشة ، حتى القدور فيها الطعام ، ووصل كتابٌ من المدينة يخبر بذلك ، و كان يوماً على الكافرين عسيراً .

و اختلف الناسُ في عدد القتلى منهم ، فذكر قومٌ أنّهم ثمانية آلاف. و لقد شاهدتُ منهم خمسةَ صفوف ، أولّها في خيم العادل، و آخرُها في خيم العدو . و لقد لقيت إنساناً جندياً عاقلاً يسعى بينَ صفوف القتلى ، ويعدّهم ، فقلت له : كم عددْتَ ؟ فقال لي: هاهنا أربعةُ آلافٍ و نيّفٌ وستون قتيلاً . و كان قد عدَّ صفين ، و هو في الصف الثالث ، لكنْ ما مضى من الصفوف كان أكثرَ عدداً من الباقي ، و انجلى يومُ الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الإسلام .

و لمّا كانَ يومُ الخميس الحادي و العشرون من جمادَى المذكورة[1]. ورَدَ في عصره نجاب[2] من حلب له خمسة أيام ، يتضمن كتابُه أن جماعة عظيمة من العدو الشّمالي خرجوا لنهْب أطراف البلاد الإسلامية ، و نهض العسكر الإسلامي من حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريقَ و لم ينجُ منهم إلاّ مَنْ شاء الله ، و كان وقْعُ هذا الخبر عُقَيْبَ هذه الوقعة المباركة وقعاً عظيماً، و ضربت البشائر ، و لم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصَّبيحة .

---

(١)جمادى الآخرة سنة ٥٨٦هـ .(٢) مبعوث موفد اختير لنجابته وفضله وكونه محلاً للثقة .

و جاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك قايماز الحرَّانـــي ، و ذكــر أنّ العــدو قد سأل من جانب السلطان مَنْ يصلُ إليهم ليسمع حديثاً في سؤال الصلح لضعفٍ حلَّ بهم ، و لم يزلْ عدوٌ الله من حينه مكسورَ الجنَاح من الجانبين حتى وصلهم كِنْد يقال له كندهري .

﴿ذكر وصول الكندهري﴾

و هذا المذكور من ملوكهم و أعيانهم وصل في البحر في مراكـبَ عدَّة ، و معه من الأموال و الذخائر و المِيرة و الأسلحة و الرِّجال عَــدَدٌ عظيم ، فقوِيَ بوصوله عزمُهم و اشتدّ أزْرُهم و حدّثتْهم نفوسُهم بطلـــب العسكر الإسلامي المنصور ليلاً ، و كثر ذلــك الحديــث علـــى ألســنة المستأمنين و الجواسيس ، فجمع السلطانُ الأمـــراء و أربــاب الــرأي واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخــر الــرأي أنــهم يوســعون الحلقـــة ، ويتأخّرون عن العدوّ رجاء أنْ يخرج العدو و يبعد عن خيمه ، فيمكن الله منهم . ووافقهم السلطان على ذلك ، و أوقعه الله في قلبه .

فرحل إلى جبل الخرّوبة بالعساكر بأسرها ، و ذلك في الســـابع والعشرين من جمادى الأخرى ، و ترك بقيّةً من العسكر في تلك المنزلـةَ كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النَّوْبة .

هذا و الكتبُ متواصلةٌ من عكا و منّا إليها على أجنحـــة الطيــور وأيدي السبّاح و المراكب اللِّطاف ، تخرج ليلاً و تدخل سَرِقةً من العدو . هذا و أخبارُ العدو الواصل من الشمال متواصلةٌ بقلّة خيله و عدده و مـــا قد عراهم من الموت و المرض ، وأنّهم قد اجتمعوا بأنطاكية ، و أنهم قد

بقوا رَجّالة ، و أنّ أصحابَنـــا عَسْــكرَ حلــبَ يتخطّفــون حُشاشَــتهم[1] وعلاقتهم[2]، و مَنْ يخرج منهم .

﴿ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسّر الله فتحها﴾

و كان بين السلطان و بين ملك قسطنطينية مراســلةٌ و مكاتبــة ، وكان وصل منه رسولٌ إلى الباب السُّلطاني بمرج عيون في رجب ســنة خمس و ثمانين و خمسمائة ، في جواب رسول كان أنفذه السّلطانُ إليـــه بعد تقرير القواعد و إقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضـــى الرسولُ و ألقى الخطبة ، و لقي احتراماً عظيماً و إكراماً زائداً ، و كـــان قد أنفذ معه في المراكب الخطيبَ و المنبرَ و جَمْعاً من المؤذّنين والقُرّاء، و كان يومُ دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإســـلام ، شـــاهده جمعٌ كثير من التجار ، ورَقِيَ الخطيبُ المنبر ، و اجتمع إليه المســـلمون المقيمون بها و التُّجار ، و أقام الدعوة الإسلامية العباسية ، ثم عاد ، فعاد معه هذا الرسولُ يخبرنا بانتظام الحال في ذلك فأقام مدة . و لقد شـــاهدته يبلّغ الرسالة و معه ترجمان يترجم عنه و هو شيخٌ أحسن ما يُفــرضُ أنْ يكون من صُوَر المشايخ ، و عليه زِيّهم الذي يختصّ بهم ، و معه كتـــاب و تذكرة ، و الكتاب مختومٌ بذهب .

و لما مات وصل إلى ملك قسطنطينية خبرُ وفاته ، فـــأنفذ هـــذا الرسولَ في تتمّة ذلك ، ووصل معه الكتابُ في جواب ذلك ، و صـــورةُ ما فسّر من الكتاب الواصل معه ، ووصفُه أنه كان كتاباً مُدْرَجاً عَرْضاً ،

(١)الحشاشة : بقية الروح في المريض و الجريح .

(٢)علاقتهم : متعلقهم ، كل ما يتعلق بهم ، أثرهم .

و هو دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً ظاهره و باطنه بسطريْنِ بينهما فرجة ، وُضِعَ فيها الختم ، والختمُ من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع ، على ختمه صورةُ ملك ، وزن الذهب خمسةَ عشرَ ديناراً ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته :

" من ايساكيوس الملك المُؤْمن بالمسيح الإله ، المتوَّج من الله المنصور العالي أبداً إفقوس المدبّر من الله القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته انكلوس ، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدّين والمحبة والمودة . قد وصل خطٌّ نسبتك الذي أنفذتَ إلى مُلْكي ، و قرأناه و علمنا منه أن رسولَنا تُوفِّي ، و حزنّا عليه ، حيثُ إنّه تُوفّي في بلد غريب ، وما قَدرَ أن يُتمّ كلَّ ما رسم له مُلْكي ، و أمره أن يتحدث به مع نسبتك ، و يقول في حضرتك و لا بدّ لنسبتك أن تهتمّ بإنفاذ رسول إلى ملكي مع رسولي المتوفّى و القماش الذي خلَّفه ، و يوجد بعد موته ، لنُعطَيه أولادَه و أقاربَه ، و ما أظن أنّه يسمع من نسبتك أخباراً ودّية ، و إنّه قد سافر في بلادي الألمان ، و لا عجبَ فإنّ الأعداءَ يُرْجفون بأشياءَ مكذوبةٍ على قدْرِ أغراضهم ، و لو تشتهي أن تسمعَ الحقّ ، فإنّهم قد تأذَّوا و تعيُوا كثيراً أكثر مما أوذي فلاّحو بلادك ، و قد خسروا كثيراً من المال والدوابّ والرجال ، و مات منهم ، و قتلوا ، و بالشدة قد تخلّصوا من أيدي أجناد بلادي ، و قد ضعفوا بحيث إنّهم لا يصلون إلى بلادك ، فإنْ وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدّة كبيرة ، لا ينفعون جنسَهم و لا يضرّون نسبتك . و بعد ذلك كيف نسيت الذي بيني و بينك و كيف ما عرفت

لملكي شيئاً من المقاصد و المهمّات ؟ ما ربح ملكي من محبتك إلاّ عداوةَ الإفرنج و جنسهم "[١] .

فوقف ــ رحمه الله ــ على هذه الترجمة و أكرم الرسول و أحسن مثواه . وكان شيخاً حسنَ الخلــق نبيــهاً عارفــاً بالعربيــة والروميــة والإفرنجية .

ثم إن الإفرنج شدّوا في حصار البلد و ضايقوه ، لمــا قد حــدث لهم من القوة بوصول الكندهري ، فإنه وصل على ما ذكر ــ والله أعلــم ــ في عشرة آلاف مقاتل ، ووصلتهم نجدة أخرى في البحر قويت بــها قلوبهم و نازلوا البلد بالقتال .

﴿ذكر حريق المنجنيقات﴾

و ذلك أنّ العدوَّ لمّا أحسّ في نفسه بقوّته بسبب توالــي النجــدات عليهم اشتدَّ طمعُهم في البلد ، و ركبّوا عليه المنجنيقات منْ كل جــانب ، و تناوبوا عليها بحيث لا يتعطَّلُ رميُها ليلاً و لا نهاراً ، و ذلك في أثنــاء رجب .

و لما رأى أهلُ البلد ما نزَلَ بهم من مضايقة العدوّ و تعلُّق طمعهم بهم ، حرّكَتْهم النخوةُ الإسلامية ، و كان مقدّموه حينئذ أمّا والــي البلــد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، و أمّا مقدّم العسكر فالأمير

(١)كانت هذه المراسلة من ملك قسطنطينية (بيزنطة) و السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٦هــ ، أي قبل سقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح بمائتين و إحدى و سبعين سنة ، إذ كان ســقوطها فــي العشرين من جمادى الأولى عام ٨٥٧هــ ، الموافق للتاسع و العشرين من أيار عــام ١٤٥٣م . وصارت تسمّى منذ هذا التاريخ إسلامبول أي مدينة الإسلام .

الكبير الاسفهسلار حسام الدين أبو الـهيجاء ، و كـان رجـلاً ذا كـرم وشجاعة و تقدُّم في عشيرته ، و مضاء في عزيمته ، فاجتمع رأيُهم على أنّهم يخرجون إلى العدو فارسُهم و راجلُهم ، على غِرّة و غفلـة منـهم ففعلوا ذلك ، و فُتحت الأبوابُ و خرجوا دُفعةً واحدة من كل جانب ، ولم يشعرِ العدوٌ إلاّ و السيفُ فيهم حاكمٌ عادلٌ . و سَهْمُ قـدَرِ الله و قضائـه فيهم نافذٌ نازلٌ . و هجم الإسلام على الكفر في مَنازِله . وأخذَ بناصيـة مُناضله و رأس مُقاتله .

و لما ولَج المسلمون لخيام العدوّ ذهلوا عن المنجنيقات و حياطتـها و حراستها . و حِفْظها و سياستِها . فوصلتْ شهبُ الزرّاقين المقذوفـة . و جاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة . فلـم تكـنْ سـاعةٌ حتـى اضطرمتْ فيها النيرانُ . و تحرّقت منها بيدها ما شيَّده الأعداءُ في المـدة الطويلة ، في أقرب آن . و قُتِل من العدو سبعون فارساً ، و أُسِرَ خَلْـقٌ عظيم .

و كان من جملة الأسرى رجلٌ مذكور منهم ظَفِرَ به واحد مـن آحاد الناس ، و لم يَعلم بمكانته . و لما انفصل الحرب سأل الإفرنج عنـه هل هو حيٌّ أو لا ؟ فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنّه رجـلٌ كبـير فيهم ، و خافَ أنْ يُغلب عليه و يردَّ عليهم بنوع مصانعة، أو على وجـه من الوجوه ، فسارع و قتله ، و بذل الإفرنج فيه أموالاً كثـيرة ، و لـم يزالوا يشتدّون في طلبه و يَحْرِصون عليه حتـى ريئـت لـهم جثتـه ، فضربوا بنفوسهم الأرضَ ، و حَثَوا على رؤوسهم الـترابَ ، ووقعـتْ عليهم بسبب ذلك خَمْدةٌ عظيمةٌ ، و كتموا أمرَه ، و لم يُظْهروا مَنْ كان.

واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرَهم ، و هجم عليهم العربُ من كل جانب يسرقون و ينهبون و يقتلون و يأسرون إلى ليلة نصف شعبان و كان الكندهري قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشَّكل على ما نقل الجواسيسُ و المستأمنون ألفاً و خمسمائة دينار ، و أعدّه ليقدمه إلى البلد، و مَنَعَ من حريقه في ذلك اليوم كونُه بعيداً عن البلد لم يقدم بعد إليه.

و لما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزرّاقون[1] و المقاتلةُ تحفظهم من كل جانب و اللهُ يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الله ، حتى أتوا المنجنيق المذكور و أضرموا فيه النارَ فاحترق من ساعته ، ووقع الصياحُ من الطائفتين ، و ذُهِلَ العدوّ ، فإنّه كان بعيداً من البلد ، و خافوا أن يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب ، و كان نصراً من عند الله ، وأحرق بلهيبه منجنيقاً لطيفاً إلى جانبه .

﴿ذكر الحيلة و إدخال عكا بطسة عمرَها وأودعها أربعَمائة﴾
﴿غرارةٍ من القَمْح ، ووضع فيها الجبنَ و البصل﴾
﴿و الغَنمَ و غيرَ ذلك من المِيرة﴾

و كان الإفرنج ــ خذلهم الله ــ قد أداروا مراكبهم حول عكّا حراسةً لها من أنْ يدخلها مراكبُ المسلمين ، و كانت قد اشتدّتْ حاجةُ مَنْ فيها إلى الطَّعام و الميرة ، فركِبَ في بسطة ببيروت جماعةٌ من المسلمين وتزيَّوْا بزِي الإفرنج ، حتى حلَقُوا لحِاهم ووضعوا الخنازير

(١)الزرّاق : الرامي . و انزرق السهم : نفذ و انزرق في الشيء : دخل . و زرَقَ الصيدَ بالمِزْراق : رماه به . و المِزْراق : الرمح القصير .

على سطح البَسْطة ، بحيث تُرَى من بعد ، و علّقوا الصُّلبان ، و جــاؤوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكبَ العـــدوّ ، فخرجــوا إليــهم واعترضوهم في الحرّاقات و الشواني[1]، و قالوا لهم نراكـــم قــاصدين البلد، و اعتقدوا أنهم منهم فقالوا: أو لم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ فقالوا: لــم نأخذ البلدَ بعد . فقالوا: نحن نردُّ القلوع إلى العسكر ، وقد أتـــي بطســة أخرى في هوائنا ، فأنذروهم حتى يدخلوا البلد ، و كان وراءهم بطســـة إفرنجية قد اتّفقت معهم في البحر قاصدةً العســـكر ، فنظــروا فرأوْهــا فقصدُوها ينذرونها فاشتدّت البطسةُ الإسلاميةُ في السير ، و استقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد و سَلِمَتْ و لله الحمد . و كان فرحاً عظيماً ، فإن الحاجة كانت قد أخذتْ من أهل البلد ، و كان ذلك في العشر الأواخر من رجب .

﴿ذكر قصة العوّام عيسى﴾

و من نوادر هذه الوقعة و محاسنها أن عوّاماً مســلماً يقــال لـــه "عيسى" وصل إلى البلد بالكتب و النفقات على وسطه ليلاً على غِرّة مــن العدوّ ، و كان يغوص و يخرج من الجانب الآخر من مراكب ، و كـــان ذات ليلة شدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسـكر ، وعــامَ فـــي البحر ، فجرى عليه أمرٌ أهلكه و أبطأ خبرُه عنا . و كــانت عادته إذا دخل البلد أطار طيراً عرفْنا بوصوله ، فأبطأ الطيرُ فاستشـعرْنا هلاكَه . و لما كان بعد أيام بَعْدُ ، بَيْنا[2] الناسُ على طرف البحر في البلد

(١)البطسات و الحرّاقات و الشواني : كلّها مراكب بحرية .

(٢)بينا : بينما .

إذا هو قذَفَ شيئاً غَرِيقاً فتفقّدوه ، فوجدوه عيسى العوّام ، ووجدوا على وسَطه الذهبَ ، و شمعَ الكتب ، و كان الذهبُ نفقةً للمجاهدين ، فما رُؤي مَنْ أدَّى الأمانةَ في حال حياته ، و قد ردَّها في مماته ، إلاّ هذا الرجل ، و كان ذلك في العُشْر الآخر مِنْ رجب أيضاً .

﴿ذكر حريق المنجنيقات﴾

و ذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقاتٍ هائلةً حاكمة على السور ، و أنّ حجارتَها تواترتْ[1] حتى أثَّرتْ في السور أثراً بيّناً ، وخيف من غائلاتها[2]، فأُخِذَ سَهْمان[3] من سهام الجرخ[4] العظيم ، فأُحْرِقَ نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه ، و اجتهد العدو في إطفائهما فلم يقدرْ على ذلك ، وهبّتْ ريحٌ شديدةٌ فاشتعل اشتعالاً عظيماً ، و اتّصلتْ لَهْبَتُهُ بالآخر فأحرقتْه ، واشتدَّ ناراهما بحيثُ لم يقدرْ أحدٌ أنْ يقرُبَ من مكانهما ، ليحتال في إطفائهما ، و كان يوماً عظيماً اشتدّ فيه فرحُ المسلمين ، و ساءتْ عاقبةُ الكافرين .

﴿ذكر تمام حديث ملك الألمان و الحيلة التي عملها المركيس﴾

و لما استقرّ قدم ملك الألمان في أنطاكية أخذها مِنْ صاحبها ، وحكَم فيها ، و كان بين يديه فيها ينفّذُ أوامره ، فأخذها منه غيلةً وخديعة، و أودعها خزائنَه ، و سار عنها في الخامس و العشرين من رجب متوجّهاً نحو عكّا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية ، حتى إلى

---

(١) تواترت : تتابعت و ازدحمت .(٢)غائلاتها : فسادها و شرّها و سوء عاقبتها .

(٣)سهمان : نائب فاعل بأُخِذ .(٤)الجَرْخ : عربة ، دولاب ، منجنيق (غير فصيحة) .

طرابلس(١)، و كان قد سار إليه من معسكر الإفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور ، و كان من أعظمهم حِيلةً و أشدِّهم بأساً ، و هو الأصلُ في تهييج الجموع من وراء البحر .

و ذلك أنّه صوَّر القدس في ورقة وصوّر فيه صورةَ القُمامةِ التي يحجّون إليها ويعظَمون شأنَها ، و فيه قُبَّةُ قبر المسيح الذي دُفِنَ فيه بعدَ صَلْبِه بزعمهم ، و ذلك القبرُ هو أصلُ حجِّهم ، وهو الذي يعتقدون نزولَ النور عليه في كل سنةٍ في عيد من أعيادهم ، و صوَّر على القبر فرساً عليه فارسٌ مسلم راكبٌ عليه ، و قد وطِئَ قبرَ المسيح و بال الفرسُ على القبرِ ، و أبدى هذه الصورةَ وراء البحر في الأسواق والمجامع والقُسوسُ يحملونها و رؤوسهم مكشوفة وعليهم المسُوح ، و ينادُون بالوَيْل والثُّبور(٢). و للصور عمل في قلوبهم، فإنها أصل دينهم ، فهاجَ بذلك خلق لا يُحْصِي عَدَدَهم إلا الله ، وكان من جملتهم ملكُ الألمان و جنودُه ، فلقيهم المركيسُ لكونه أصلاً في استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتَصل به قوَّى قلَبه ، و نصره بالطُّرُق،وسلك به الساحلَ خوفاً من أنه إذا أتى على بلادِ حلب و حماة ثارَ لهم المسلمون مِنْ كل جانب ، و قامت عليهم كلمةُ الحق من كلِّ صوب .

ومع ذلك لمْ يسلموا مِنْ شنّ الغارات عليهم ، فإنّ الملك المظفّر قصَدَهم بعساكره ، وجمَعَ لهم جموعاً و هَجَم عليهم هجوماً عظيماً أخذ

---

(١)حتى إلى طرابلس : بمعنى " و إلى طرابلس " فحتّى : حرف عطف . أي متوجّهاً على طريق اللاذقية ، ليصل إلى طرابلس ، أو : و منها إلى طرابلس .

(٢)الويل : الهلاك . و الثبور : الموت .

فيه من أطراف عساكره و كان قد لحقهم بأوائل عسكره ، و لو لحقهم الملكُ الظاهر بعساكره لقضىَ عليهم ، و لكن (لكلِّ أجلٍ كتاب)

و اختلف حَزْرُ[1] الناس لهم . و لقد وقفتُ على كتب بعض المخبرين بالحَرْب فقد حَزَرَ فارسهم و راجلهم بخمسة آلاف ، بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر ، فانظرْ إلى صنع الله مع أعدائه . و لقد وقفْتُ على بعض الكتب ، فذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيّفاً و ستين فرساً قد عُطِبَتْ ، و انتُزِع لحمُها ، و لم يبق فيها إلا العظامُ من شدّة الجوع .

ولم يزالوا سائرين و أيدي المسلمين تَخطَّفُهَمْ مِنْ حولهم نَهْباً وقتلاً و أسْراً ، حتى أتَوا طرابلس ، ووصل خبر وصوله بُكْرةَ الثلاثاء ثامنَ شعبان سنة ستٍّ و ثمانين و خمسمائة ، هذا و السلطان ثابتُ الجاش[2] راسخُ القدم ، لا يردُّه ذلك عن حراسة عكّا و الحمايةِ لها، و مراصدةِ العسكرِ النّازلِ بها ، و شنّ الغارات عليها و الهجوم عليهم في كل وقت ، مفوِّضاً أمره إلى الله ، معتمداً عليه ، منبسطَ الوجه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً يسره مَنْ يفدُ إليه من الفقراء و الفقهاء والمشايخ و الأدباء .

و لقد كنتُ إذا بلغني هذا الخبر تأثّرْتُ حتى دخلتُ عليه ، وأجدُ منه من قوة الله و شدة البأس ما يشرح صدري ، و أتيقّنُ معه نصرةَ الإسلامِ و أهلِه .

---

(١)حزَر يَحْزِر على وزن جلس يجلس حَزْراً : قدّر تقديراً قائماً على التخمين .

(٢)الجأش : النفس أو القلب ، يقال : هو رابط الجأش : ثابت عند الشدائد .

﴿ذكر وصول البطس من مصر﴾

و لما كان العُشْرُ الأوْسطُ من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد و المقدّمُ على الأسطول و الحاجبُ لؤلؤ يذكرّان السلطان أنه لم يَبْقَ بالبلد ميرةٌ إلا قَدْرٌ يكفي إلى ليلة النصف من شعبان لا غير، فأسرَّها يوسفُ في نفسِه و لم يُبْدِها لخاصّ و لا لعامّ ، خشيةَ الشّيوع والبلوغ إلى العدوّ ، فتضعُف به قلوب المسلمين .

و كان قد كتَبَ إلى مصر بتجهيز ثلاثِ بطس مشحونةٍ بالأقوات و الأُدُمِ[1] و المِيَرِ[2] وجميعِ ما يحتاجُ إليه في الحصار ، بحيث يَكفيهم ذلك طولَ الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاثُ من الديار المصرية ، ولجَّجَتْ[3] في البحر تتوقّى النُّوتية[4] بها الريحَ حتى ساروا بالريح التي تحملُها إلى نحو عكا، و لم يزالوا كذلك حتى وصلوا إلى عكّا ليلةَ النصف من شعبان المذكور ، وقد فَنِيَ الزَّادُ و لم يَبْقَ عندهم ما يُطعمون الناسَ في ذلك اليوم ، و خرج عليها أسطولُ العدوّ يقاتلُها ، و العساكرُ الإسلامية تشهدُ ذلك من الساحل، و الناس في تهليل و تكبير ، و قد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بتسليمها إلى البلد ، والسلطان على الساحل كالوالدة الثَّكلى ، يشاهدُ القتال و يدعو ربَّه بنصره ، و قد علم من شدّة القوم ما لم يعلمْه غيرُه ، و في قلبه ما في قلبه ، والله يثبّته .

---

(١)الأُدُم : (بضمّ الهمزة و الدّال) تأتي جمعا للإدام ، و هو ما يُستَمرأُ به الخبز ، و تأتي جمعاً للأَديم و هو الجِلْد . (٢) الميْرة : الطّعام .(٣)لجَّجت السفينة : خاصت اللُّجة و هي معظم البحر ووسطه ، حيثُ لا يُدْرك قعرُه .(٤)النُّوتيّ : الملاّح الذي يدير السفينة في البحر .

و لم يزل القتال ، يعمل حول البطس من كلّ جانب ، و اللهُ يدفع عنها ، و الريح يشتدّ ، والأصوات قد ارتفعتْ من الطائفتين ، و الدعاءُ يخرق الحجبَ ، حتى وصلوا سالمين إلى ميناء البلد(٥) و تلقّاهم أهل عكا تلقّيَ الأمطار عن جَدْب ، و امتاروا ما فيها و كانت ليلة بليال .

﴿ذكر محاصرة برج الذباب﴾

و لما كان الثاني و العشرون من شعبان جهّز العدوُّ بُطُساً متعددّةً لمحاصرة بُرْج الذباب ، و هو بُرْجٌ في وسط البحر مبنيٌّ على الصَّخر ، على باب ميناء يُحرس به المينا ، و متى عبره المركبُ أمِنَ غائلةَ العدو ، فأراد العدوُّ أخذَه ، ليبقى الميناء بحكمه و يمنع الدخول إليه بشيء من البطس ، فتنقطع الميرة عن البلد .

فجعلوا على صواري البطس بُرْجاً وملؤُوه حطَباً ، على أنّهم يسيّرون البطسَ ، فإذا قاربتْ بُرْجَ الذُّباب ولاصقتْه أحرقوا البرجَ الذي على الصّاري و ألصقوه ببرج الذباب ليُلْقوه على سطحه ، و يُقتل مَنْ عليه من المقاتلة ، و يأخذوه ، و جعلوا في البطسة وَقُوداً كثيراً حتى يُلْقَى في البُرْج إذا اشتعلت النارُ فيه .

و عبّؤوا بطسة ثانية و ملؤُوها حطباً ووقوداً على أنّهم يدفعون بها إلى أنْ تدخلَ بين البطس الإسلامية ، ثم يلهبونها ، فتحرق البطس الإسلامية ، و يهلك ما فيها من الميرة .

و جعلوا في بطسة ثالثة مُقاتِلةً تحتَ قَبْوٍ ، بحيثُ لا يحصل لهم نشّاب و لا شيءٌ مِنْ آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقَه

---

(٥)المينى و الميناء : مرفأ السفن .

دخلوا تحتَ ذلك القبو ، فأمنوا ، و قدموا البطس نحو البرج المذكــور ، وكان طمعُهم يشتدّ حيثُ كان الهواءُ مصعداً لهم .

فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بها مَنْ علــى بــرج الذباب ، فأوقدوا النارَ و ضربوا فيها النفطَ ، انعكس الهواءُ عليهم كمــا شاء الله تعالى وأراد ، و اشتعلت البطسةُ التي كان بها بأسرها و اجتهدوا في إطفائها ، فما قَدَروا ، و هَلَكَ مَنْ كان فيها من المُقاتِلة إلاّ مَنْ شاء الله .

و احترقت البطسة التي كانت معدَّةً لإحراق بُطُسِــنا ، ووثبــتْ أصحابُنا عليها فأخذوها إليهم .

و أمّا البطسةُ التي كان فيها القبوُ فإنهم انزعجوا وخافوا و همّــوا بالرجوع ، واختلفوا و اضطربوا اضطراباً عظيماً ، فــانقلبتْ ، و هلَــكَ جميعُ مَنْ كان بها ، لأنّهم كانوا في قبو فلم يستطيعوا الخــروجَ منــها ، وكان ذلك مِنْ أعظم آيات الله و أندرِ العجائب في نُصرة دين الله . وكان يوماً مشهوداً .

﴿ذكر وصول الألمان إلى عسكرهم المخذول﴾

عُدْنا إلى حديث ملك الألمان ، و ذلك أنه أقام بطرابلــس حتــى استجمّ(١) عسكرُه ، و أرسل إلى النازلين على عكّا يخبرُهم بقدومِهِ إليـهم، و قد حموا من ذلك ، لأن المركيس صاحب صور هــو ربّ مشــورته وصاحب دولته .

---

(١)استجم : استراح .

و كان الملك جفري ــ و هو ملك الساحل بالعسكر ــ هو الــذي يُرْجَعُ إليه في الأمور ، فعلم أنه مع قدوم الألماني لا يبقى له حُكْم . ولمـا كان العُشْرُ الآخر من شعبان أزمع رأيه على المسير في البحر ، لعلمــه أنه إنْ لم يركب البحر نكب ، و أُخذت عليه الطريق والمضايق ، فأعدُّوا المراكب ، و أُنفذت إليه من كلّ جانب ، و نزل فيــها هــو و عسـكره وخيلُهم و عدّتهم ، و ساروا يريدون العسكرَ ، فلم تمضِ إلا ساعةٌ مــن النهار حتى قامتْ عليهم ريحٌ عاصفٌ ، و ثارَ عليهم المــوج مــن كــل مكان، و أشرفوا على الهلاك ، و هلك منهم ثلاثةُ مراكب حمَّالة، و عــاد الباقون يرصدون هواءً طيباً فأقاموا أياماً حتى طابتْ لهم الريح و سـاروا حتى أتوا صور ، فأقام المركيس و الألماني بها ، وأنفذوا بقيّةَ العســاكر إلى المعسكر النازل في عكّا ، وأقاما بصور إلــى ليلــة الســادسِ مــن رمضان ، وسار الألمانيُّ وحده في البحر حتى وصل معسكرَهم غــروبَ الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير .

هكذا أخبر الجواسيسُ و المستأْمَنُون عنهم . و لقد كان لقدومه وقعٌ عظيم من الطائفتين ، و أقام أيّاماً ، و أرادَ أنْ يَظْهَرَ لمجيئه أثرٌ ، فوبّــخ القومَ على طُول مقامهم ، و حسن في رأيه أن يضــربَ مصــافّاً مــع المسلمين ، فخوّفوه من الإقدام على هذا الأمر و عاقبتِه ، فقال : لا بـــدّ من الخروج على اليزك ، ليذوق قتــالَ القــوم ، و يعــرف مِراسَــهم ، ويتبصّر بأمرهم ، فليس الخبر كالعيان .

فخرج على اليزك الإسلامي واتّبعه معظــمُ الإفرنــج، راجلِــهم وفارسِهم ، و خرجوا حتى قطعوا الوِهادَ التي بينَ تلّهم و تلّ العياضيــة ،

و على تلّ العياضيّة خيَّم اليَزَكُ ، و هي نَوْبة الحلقة السُّلطانية المنصـورة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم و قاتلوهم وأذاقوهم طعـمَ المـوت ، وعَرَف السلطانُ ذلك ، فركب من خيمته بحفلة، و سار حتى أتـى تـلّ كَيْسان .

فلما رأى العدوُّ العساكرَ الإسلاميّةَ صوّبتْ نحوه سهامَ قصدِهـا ، و أتتْه مِنْ كل جانب كقِطْع من الليل المظلم ، عادَ ناكصاً علـى عقبـه ، وقُتل منهم و جُرح خَلْقٌ كثير ، و السيف يعمل فيهم من أقفيتهم ، و هـم هاربون ، حتى وصلوا المخيَّم ، غروبَ الشمس ، وهو لا يعتقد سـلامة نفسه من شدّة خوفه ، و فصل الليلُ بين الطائفتين ، و قُتل من المسـلمين اثنان ، و جُرِح جماعة كثيرة ، و كانت الكسرةُ على أعداء الله .

و لما عرف ملكُ الألمان ما جرى عليه و على أصحابه من اليزك الذي هو شِرذمةٌ من العسكر ، و هو جُزْءٌ من كُلّ ، رأى أنْ يرجع إلـى قتال البلد و يشتغل بمضايقته ، فاتّخذ مـن الآلات العجيبـة والصنـائع الغريبة ما هال الناظرَ إليه من شدّة الخوف على البلد ، واستشـعر أخـذ البلد من تلك الآلات ، و خِيفَ منها عليه .

فأحدثوا آلةً عظيمة تسمَّى دبّابة ، يدخل تحتَها من المُقاتِلَةِ خَلْـقٌ عظيمٌ مُلبَّسةٌ بصفائح الحديد ، و لها من تحتها عَجَل تحرَّك به من داخـل، و فيها من المقاتلة، حتى ينطح بها السور ، و لـها رأسٌ عظيـم برقبـةٍ شديدة من حديد ، و هي تُسمى كَبْشاً ، ينطح بها السور بشدّة عظيمـة ، لأنه يجرّها خلقٌ عظيم فتهدمه ، بتكرار نَطْحها .

و آلةً أخرى ، و هي قَبْوٌ فيه رجال السَّحْب لذلك ، إلاّ أن رأسها محدَّد على شكل السّكّة التي يُحْرث بها ، و رأس البرج مدوَّر ، و هذا يهدم بثقله ، و تلك تهدم بحدَّتِها و ثقلها ، و هي تسمى سنوراً . و من الستائر و السلالم الكبار الهائلة .

و أعدُّوا في البحر بطسة هائلة ، وضعوا فيها برجاً بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركَاتِ ، و يبقى طريقاً إلى المكان الذي يَنْقلب عليه تمشي عليه المقاتلة ، و عزموا على تقريبه إلى برج الذباب ليأخذوه به.

﴿ذكر حريق برج الكبش و غيره من الآلات﴾

و ذلك أنّ العدوّ لمّا رأى آلاتِه قد تمَّتْ و استكملتْ شَرَعَ في الزحف على البلد و مُقاتِلَتِهِ منْ كلّ جانب ، وأهلُ البلد كلَّما رأوا ذلك اشتدّت عزائمُهم في نصرة دين الله ، و قويتْ قلوبُهم على المصابرة.

ولما كانَ يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة ، وهي الذي قَدِمَتْ فيها العساكر من الشام في أحسن زي و أجمل ترتيب وأكمل عُدّة مع ولده صاحبِ حلب ، و سابقِ الدين صاحب شَيْزَرَ ، ومجدِ الدين صاحب بعلبكّ ، و كان السلطان التاثَ مزاجُه الكريمُ بحمَّى صفراويّةٍ فركب في ذلك اليوم ، و كان عيْداً من وجوه متعدّدة .

وفي ذلك اليوم زحف العدوُّ على البلد في خَلْقٍ لا يُحْصِي عَدَدَهم إلاّ اللهُ ، فأهملهم أهلُ البلد و شُجعانُ المقاتلة الذين فيه وذوو الآراء المثقفة من مقدَّمي المسلمين، حتى نشبت مخاليبُ أطماعهم في البلد

وسحبوا آلاتهم المذكورة ، حتى قاربوا أن يُلصقوها بالسُّور ، و تحصَّـن منهم في الخندق جماعةٌ عظيمة ، و أطلقوا عليهم سهامَ الجروخِ و أحجارَ المنجنيق ، وأقواس الرَّمْيِ و النيران ، و صاحوا عليهم صيحةَ الرجـل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، و باعوا نفوسَهم لخالقها و بارئها ، و رضُـوا بالصَّفقة الموعود بها ، و هجموا على العدوّ مِنْ كلّ جانب ، و كبسـوهم في الخنادق ، و أوقع اللهُ الرُّعْبَ في قلـب العـدوّ ، و أعطـى ظـهَره الهزيمة، وأخذوا مشتدِّين هاربين . على أعقابـهم نـاكصين . يطلبـون خيامَهم والاحتماءَ بأسوارهم ، لكثرةِ ما شاهدوا و ذاقـوا مـن الجَـرْح والقتل، وبقيَ في الخندق خلْقٌ عظيم وقـع فيـهم السـيفُ و عُجِّـلَ الله بأرواحهم إلى النار .

و لما رأى المسلمون ما نزل بالعدوّ من الخِذْلان والهزيمةِ هجموا على كَبْشِهم فألْقوا فيه النارَ و النِّفْطَ ، و تمكَّنُوا من حريقه فأحرقوه حريقاً شنيعاً ، و ظهرت له لَهْبَةٌ عظيمة نحو السماء ، وارتفعـت الأصـواتُ بالتكبير و التهليل . و الشكرِ للقويِّ الجليل . و سرَتْ نارُ الكبش بقوّتـها إلى السّنّور فاحترق ، و علَّقَ المسلمون في الكبش الكلاليـبَ الحديديّـة المصنوعةَ في السلاسل فَسحَبُوهُ و هو يشتعلُ ، حتى حصّلوه عندهم فـي البلد ، و كان مركّباً من آلاتٍ هائلة عظيمة أُلقِي الماءُ عليه حتـى بـرد حديدُه بعدَ أيام . و بلَغنا من اليزك أن وزنَ ما كان عليه من الحديد يبلـغ مائةَ قنطارٍ بالشامي ، و القنطار مائة رطل ، و الرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال و ربع رطل .

و لقد أُنفذ رأسُه إلى السلطان ، و مثل بين يديه ، و شاهدتُهُ ، وقَلَّبْتُهُ ، و شكلُه على مثل السَّفُّود الذي يكون بحجر المَدار ، قيل إنه ينطح به ، فهدم ما يُلاقيه .

وكان ذلك مِنْ أحسن أيام الإسلام ، ووقع على العدو خِذْلانٌ عظيم، ورفعوا ما سلم من آلاتهم ، و سكنتْ حركاتُهم التي ضيعوا فيها نفقاتِهم ، و تحيّرتْ أبصارُ حِيَلِهم ، و استبشر السلطانُ بغرّة ولده ، وتَبارك[١] بها، حيثُ وجد النصر مقروناً بقدومه مرَّةً بعد أخرى ، و ثانيةً بعد أولى.

و لما كان يومُ الأربعاء الخامسَ عشرَ رمضان خرجَ أصحابُنا من الثَّغْرِ المحروس في شَوان[٢] على بَغْتةٍ من العدو ، و ضربوا البطسة المعدّة لأخذ بُرْج الذباب بقواريرِ نِفْط فاحترقتْ ، و ارتفع لهبها في البحر ارتفاعاً عظيماً ، و حزن الألمان لذلك حزناً شديداً ، و غشيتْه كآبةٌ عظيمة ، ووقع عليهم خِذْلانٌ عميم .

ولمّا كان يوم الخميس ، السادس عشر الشهر ، وصل كتاب طائر في طَيّ كتاب وصل من حماة ، قد طار به الطائرُ من حلب ، يذكر فيه أن البرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الإسلامية التي تَلِيهِ لشنّ الغارات عليها ، فَبصُرَتْ به العساكرُ و نوّاب الملك الظّاهر ، فكمنتْ له الكمينات ، فلم يشعر بهم إلاّ و السيفُ قد وقع فيهمْ ، فَقُتِلَ منهم خمسةٌ و سبعون نفراً ، و أُسِرَ خَلْقٌ عظيم ، واستعصم بنفسه في موضع يسمّى شيحا ، حتى اندفعوا و سار إلى بلده .

(١)تبارك : تفاعل و تيمّن .(٢)الشواني والبطسات : من سلاح البحرية (مراكب بحرية حربية) .

و في أثناءِ العُشْر الاوسط ألقت الريح بَطْسَتَيْنِ فيهما رجالٌ وصبيان ونساء و ميرةٌ عظيمة و غنمٌ كثيرة قاصدين نحوَ العدوّ فغنمها المسلمون.

و كان العدوُّ قد ظَفِرَ منا بِزَوْرقٍ فيه نفقةٌ و رجال أرادوا الدخولَ إلى البلد فأخذوه[١]، فوقع الظفرُ بهاتين البطستين ماحياً لذلك و جابراً له.

ولم تزل الأخبارُ بعد ذلك تَتواصَلُ على ألسنة الجواسيس والمستأمَنين أنّ العدو قد عزم على الخروج إلى العسكر الإسلامي خروج مصافٍّ ومنافسةٍ ، و الْتاثَ مزاجُ السلطان بحمّى صفراويةٍ ، فاقتضى الحال تأخُّرَ العسكر إلى جبل سفرعم . و كان انتقاله تاسعَ عشرَ رمضان ، فنزل السلطانُ على أعلى الجبل ، و نزل الناسُ على رؤوس التلال ، للاستعداد للشتاء و الاستراحة من الوَحْل[٢].

و في ذلك اليوم مرِضَ زينُ الدين يوسفُ بن زين الدين صاحب إربل مَرضاً شديداً بحمّيَّيْنْ مختلفتي الأوقات ، و استأذنَ في الرَّواح ، فلم يُؤْذَنْ له ، فاستأذن في الانتقال إلى الناصرة ، فأُذن له في ذلك اليوم ، وأقام بالناصرة أياماً عديدة يمرّض نفسه ، فاشتدَّ به المرضُ إلى ليلة الثلاثاء ثامن عشر رمضان ، و تُوفي رحمه الله و عنده أخوه مظفّر الدين يشاهده ، و حزِنَ الناسُ عليه لمكان شبابِه و غُرْبَتِهِ ، و أنعم السلطانُ على أخيه مظفّر الدّين ببلده[٣]، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده ، و هي حَرّان و الرها و ما يتبعهما من البلاد و الأعمال[٤]،

(١)الواو تعود إلى "العدو" . والهاء تعود إلى "الزورق".(٢)الوحل (بسكون الحاء و فتحها) : الطّين . (٣)و هي إربل عيّنه السلطان صلاح الدين والياً عليها . (٤)أمّا البلاد التي كانت قبل ذلك بيد مظفّر الدين ، مثل حرّان والرها، فقد نُزِعتْ منه، مقابلَ عمله الجديد و هو ولاية إربل و شهرزور .

وضمَّ إليه بلد شهر زور أيضاً ، واستدعى الملك المظفَّر تقيُّ الدين عمــو ابن أخيه شاهنشاه ، ليكون نازلاً مــكانَه ، جــابراً لِخَلَلِ غيبته[1]، و أقام مظفّرُ الدّين في نَظرة قدوم تقي الدّين[2] . و لمّا كانَ ضحاء نهار ثــالثِ شوال قَدِمَ ، و قد عادَ صحبة معزّ الدين .

﴿ذكر قصة معزّ الدين﴾

و هذا معز الدين هو سنجرَ شاهُ بن سيف الدين غازي بن مــودود ابن زنكي و هو صاحب الجزيرة إذ ذاك ، و كان من قصته أنه حضــر للجهاد ، و قد ذكرتُ تاريخَ وصولِه ، و إنه أَخَذَ منه الضَّجُر و الســآمة والقلق ، بحيث تردَّدت رسلُه و رقاعُه إلى السلطان في طلب الدُّسْــتور ، و السلطان يعتذر إليه بأنّ رسل العدو متكرّرة في معنــى الصلــح ، ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من ســلم أو حرب ، و هو لا يألو جهداً في طلب الدُّستور ، إلى أنْ كان يــومُ عيــد الفطر من سنة ستّ و ثمانين ، و حضر سَحَرَ ذلك اليوم في باب الخيمة

(١)أضاف السلطان صلاح الدين مناطق حران والرها إلى ابن أخيه عمر بن شاهنشــاه والــي حمــاة ، واستدعاه ليقلده ذلك ، وليسد عمر مسد مظفر الدين حين يذهب إلى إربل .(٢)يُفْهم ممّا تقدّم أنّ وفاة زين الدين يوسف بن علي صاحب إربل كانت في رمضان ٥٨٦هـ. وأرّخها أبو الفدا في شــوّال ؛ قــال : " وفيها [سنة ٥٨٦هـ] في الأوّل من شوّال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صــاحب أربل ، و كان مع السلطان في عسكره ، و لما توفّي أقطع السلطان صلاح الدين إربل أخاه مظفّر الديــن كوكبوري بن زين الدين علي كوجك ، وأضاف إليه شهرزور و أعمالها ، و ارتجع ما كان بيــد مظفّــر الدين ، و هو حرّان و الرّها ، وسار مظفّر الدين إلى إربل و ملكها .

و فيها [في سنة ٥٨٦هـ] أقطع السلطان (صلاح الدين) ما كان بيد مظفّر الدين ، وهو حرّان والرها و سميساط والموزر ، الملك المظفّر تقيّ الدين عمر ، زيادة على ما بيده ، وهو ميّافارقين ، و من الشّام حماة و المعرّة و سلمية و منبج و قلعة نجم و جبلة و اللاذقيّة وبلاطنس و مكرابيك " [المختصر في أخبار البشر (مصر ١٣٢٥هـ) ٧٩/٢] . و عبارةُ أبي الفدا هنا مبسوطة توضّح ما قاله ابن شدّاد .

السلطانية ، فاستأذن في الدخول فاعتذر إليه بالتياث كان قد عَرَى مـزاجَ السلطان ، فلم يَقبل العذر ، و كرَّرَ الاستئذانَ ، فأذنَ له في الدخول .

فلما مثل بالخدمة استأذن في الرَّواح شِفاهاً ، فذكر له السلطانُ العذرَ بذلك ، وقال : هذا وقت تقدُّم العساكر و تجمُّعها لا وقتُ تفرُّقِها . فانكبّ على يده و قبَّلها كالمودِّع له ، و نهَضَ من ساعته و سار و أمرَ أصحابه أنْ ألقُوا القدورَ فيها الطعام ، و قلعوا الخيم ، و تبعوه ، فلما بلغ السلطانَ صنيعهُ أمر بإنشاء مكاتبة إليه يقول فيها " إنّك أنتَ قصدتَ الانتماء إليَّ ابتداءً ، و راجعتَني في ذلك مراراً ، و أظهرتَ الخيفةَ على نفسك و قلبك و بلدك من أهلك ، فقبلْتك و آويتُكَ و نصرْتُكَ ، و بسطْتَ يدك في أموال الناس و دمائهم و أعراضهم ، فأنفذتُ إليك و نهيتُكَ عن ذلك مراراً ، فلم تنته ، واتَّفقَ وقوعُ هذه الواقعة للإسلام ، فدعوناك ، فأتيت بعسكر قد عرفته و عرفه الناس ، و أقمت هذه المدّة المديدة ، وقلقت هذا القلقَ ، وتحركت هذه الحركة ، و انصرفتَ عن غير طيب نفس ، و غير فَصْلِ حالٍ مع العدو ، فانظرْ لنفسك و أبصرْ مَنْ تنتمي إليه غيري ، و احفظْ نفسك ممن يقصدك فمالي إلى جانبك التفاتٌ " وسلّم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريباً من طبريّة ، فقرأ الكتاب ، و لم يلتفتْ ، وسار على وجْهه.

و كان الملكُ المظفّر تقيُّ الدين قد استدعي إلى الغزاة بسبب حركة مظفّر الدّين على ما سبق شرحه(١) ، فلقيه في الطريق ، في

(١)أي بسبب تحرّك مظفّر الدين إلى إربل ليباشر الحكومة فيها بعد أن قلّده إياها صلاح الدين الأيوبي فاستدْعاه صلاح الدين ليسدَّ مسدّ مظفرّ الدّين في معسكر المواجهة مع العدو .

موضع يُسَمْى "عقبة ميق" فرآه محتاً ، و لم ير عليه أمـــارات حســنةً ، وسأله عن حاله فاخبره بأمره ، و تعتّب على السلطان : كيف لم يخلـــع عليه و لم يأذن له ؟ ففهِمَ الملك المظفَّرُ انفصالَه من غير دســتور مــن السلطان ، و أنّه على خلاف اختياره . فقال له: المصلحةُ لكَ أن ترجـــع إلى الخدمة ، وتلازم إلى أنْ يأذن لك ، و أنت صبيّ و لم تعلمْ غائلةَ هذا الأمر . فقال: ما يمكنني الرجوعُ . فقال : ترجع عن غير بُدّ ، فليس فــي الرّواح على هذا الوجه لك راحةٌ أصلاً . فأصرّ على الرواح فخشي عليه و قال : ترجعُ من غير اختيارِك . وكان تقيُّ الدين شديدَ البأس مقدامـــاً على الأمور ، ليس في عينه من أحد شيءٌ . فلما علم أنه قابضُه إنْ لــم يرجع باختياره رجَعَ معه حتى أتى العسكرَ .

و خرج الملك العادلُ ، و نحن في خدمتـــه ، إلـــى لقــاء الملــك المظفّر، فوجدناه معه فدخلا به على السلطان و ســـألاه الصَّفْــحَ عنـــه. وطلب أن يقيم في جوار تقيّ الدين خشيةً على نفسه . فأذن له ، فأقام في جواره إلى حين ذهابه .

﴿ذكر طلب عماد الدين الدستور﴾

و ذلك أن عماد الدين زنكي(١) عمّ المذكـــور ألـــحَّ فـــي طلـــب الدستور(٢)، و شكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، و الســلطان يعتذر إليه بأنّ الرسل متواترةٌ بيننا و بين العدوّ في الصُّلـــح ، و ربمـــا انتظم ، فينبغي أنْ يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأيُ مشتركٌ .

---

(١)عماد الدين بن مودود بن عماد الدين زنكي المشهور ، الشهيد ، محرّر الرّها ، أبي نور الدين زنكي .(٢) الدستور : الإجازة ، الإذْن بالعودة ، الموافقة .

و استأذن في أن يحمل إليه خيامَ الشتاء ، فلم يفعل ، و أنْ يحمل إليه نفقة ، فلم يفعل ، وتكرّرت منه الرسل إلى السلطان في المعنى والسلطان يكرر الاعتذار .

ولقد كنتُ بينهم في شيءٍ من ذلك ، و كان عندَ عماد الدّين من العَزْم على الرَّواح(١) ما يجاوز كلَّ وصف ، و عند السلطان من إِمساكه إلى أنْ يفصل أمرٌ بيننا و بينهم ما لا يحدّ ، و آل الأمرُ إلى أن يكتب عماد الدين بخطّه ، و يطلب فيه الإذْنَ في الرَّواح ، و تليَّن فيها وتخشَّن، فأخذها السلطانُ و كتب في ظهرها بيده الكريمة : " مَنْ ضيَّع مثلي مِنْ يده . فليتَ شعري ما استفاد ؟ " فوقف عمادُ الدين عليها ، وانقطعتْ مراجعتُه بالكلّيّة .

﴿ذكر خروج العدوّ إلى رأس الماء﴾

و تواترت الأخبارُ بضَعْفِ العدوّ ووقوع الغَلاء في بلادهم وعسكرهم ، حتى إن الغِرارة(٢) من القمح بلغتْ في أنطاكية ستة وتسعين ديناراً صُوْرية ، و لا يزيدهم ذلك إلا صبراً و إصراراً وعناداً.

ولما ضاقَ بهم الأمرُ و عظُم الغلاءُ و خرج منهم خلق عظيمٌ مستأمِنين من شدّة الجوع عزموا على الخروج إلينا ، و كان طمعُهم بسبب مرض السلطان ، فظنّوا أنّه لا يستطع النهوض .

وكان خروجُهم يوم الاثنين حادي عشر شوّال بخيلهم و رَجِلهم ،

---

(١)الرواح : العودة إلى بلده .(٢)الغرارة (بكسر الغين) وعاء من الخيش و نحوه توضع فيه الحبوب و غيرها ، و هو أكبر من الجُوَالق . تجمع على غرائر .

حاملين أزواداً وخياماً إلى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تلّ الحجل ، لمّا كانوا نزولاً عليه، و أخذوا عَليقَ[١] أربعة أيام . فأخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن يتراجع من بين أيديهم إلى تل كيسان ، وكان اليزكُ على العياضية ، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور[٢]، و باتوا تلك الليلة ، واليزك حولهم ، جميعَ الليل، فلما طلع الصُّبْحُ جاء مَنْ اليزك مَنْ أخبره بأنهم قد تحرّكوا للركوب ، و كان قد أمر الثقل في أوّل الليل أن يسيروا إلى الناصرة[٣] و القَيْمُون[٤]، فرحل الثقل ، و بقي الناس ، و كنتُ في جملة مَنْ أقام في خدمته ، و أمر العسكر أن يركبَ يمنةً و يسرةً و قلباً ، تعبية القتال ، و ركبَ هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا ، و سار حتى وقف على تل من جبال الخرّوبة، و ابتدأت الميمنة بالمسير فسارتْ حتى بلغ آخرها الجبل ، و سارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر، فكان في الميمنة ولده الملك الأفضل صاحبُ دمشق وولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وولده الملك الظافر صاحب بصرى ، وولد عزّ الدين صاحبِ الموصل علاء الدين خرّم شاه ، ثم أخوه في طرفها ، و يليه قريباً منه حُسَام الدين لاجين ، والطواشي قايماز النجمي ، و عز الدين جرديك النُّوري ، و حسام الدين بشارة صاحب بانياس ، و بدر الدين دلدرم، و جمع كثير من الأمراء، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، و ابنُ أخيه معزّ الدين صاحب الجزيرة ، وفي طرفها

(١)العَليق : ما تُعلّفه الدّابّة من شعير و نحوه . (٢)يوم الاثنين ١١/١٠/٥٨٦هـ .(٣)بلدة قرب طبرية . (٤) قَيْمُون : " حصنٌ قرب الرملة من أعمال فلسطين " [معجم البلدان ٤/٤٢٤] .

الملكُ المظفّر تقيُّ الدّين ابن أخيه، و كان عمادُ الدين زنكي غائبـاً مـع الثقل لمرض كان ألمّ به . و بقي عسكره . و كان في الميسـرة سـيفُ الدّين علي المشطوب و جميع المهرانية و الهكارية و خشترين و غـيرهم من الأمراء الأكراد ، وفي القلب الحلقة السلطانية .

و تقدّم السلطانُ أن يَخْرُجَ مِنْ كل عسكـر جمعٌ من الجـاليش ، وأن يدوروا حول العسكر ، و اليزك معهم ، و أخفَى بعـضَ الأطـلاب وراء التّل ، عساهم أن يجدوا غِرَّةً[1] من العدو .

و لم يزل عدوُّ الله يسير ، و الناس من جميع جوانبه ، و هو سائر على شاطئ النهر ، من الجانب الشرقي ، حتـى رأس العيـن ، وداروا حوله حتى عبروا الجانبَ الغربي ، و نزلـوا و القتـال يتلقّـفُ منـهم الأبطال، ويصرع منهم الرجال . و كان نزولـهم علـى تـلٍ هنـاك ، وضربوا خيامَهم هناك ، ممتدّة منه إلى النهر ، و جرح منهم فـي ذلـك اليوم خلقٌ عظيم ، وقُتل منهم أيضاً جماعةٌ ، وكانوا إذا جُرحَ واحد منهم حملوه ، أو قتل دفنوه ، و هم سائرون حتى لا يَبِين قتيل و لا جريـح ، وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر ، و تراجعت العساكر إلى مواطـن المصابرة و مواقف الحراسة ، و تقدّم السلطانُ إلى الميسرة أن تسـتديرَ بهم بحيث يقعُ آخرها على البحر ، و الميمنة تستدير بالنهر من الجـانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم بقربهم و يرميهم بالنّشّاب ، بحيـث لا يقـع النُّشّابُ عنهم أصلاً ، وبات الناسُ تلك الليلةَ على هذا المثال ، و سار هو رحمه الله و نحنُ فـي خدمته إلـى رأس جبل الخرّوبة ، فنزل في خيمة

(١)غرة : غفلة .

لطيفةٍ ، والناس حوله في خيم لطاف ، بمرأى من العدوّ ، و اجتاز العدوُّ يتواصلُ ساعةً فساعةً إلى الصبح .

و لما كان يوم الأربعاء وصل مَنْ أخبر أنّهم تحرّكوا للرّكوب ، فركب هو و رتّب الأطلاب و سار حتى أتى أقربَ جبالِ الخرّوبة إليهم ، بحيث يشاهدُ أحوالَهم . و كان رحمه الله مُلْتاثَ المِزاج، ضعيفَ القُوَى ، قوي القلب ، ثم بعث إلى العساكر و أمرها بالمقاتَلةِ والمضايقة و الحملة عليهم من كل جانب ، و أمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبةً ولا بعيدة ، لتكون وراء المقاتلة إلى أن تضاحَى النهارُ و سار العدو إلى شاطئ النهر من الجانب الغربي ، يطلب جهة جهة و القتال يشتدّ عليهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، و التحم القتالُ ، فصرع منهم خلق عظيم ، و هم يَدْفُنون قتلاهم و يحملون جرحاهم ، و قد جعلوا رَجّالتهم سوراً لهم تضربُ الناس بالزنبورك[1] والنّشّاب[2]، حتى لا يُتْرَكَ أحدٌ يصل إليهم إلاّ بالنشاب ، فإنّه كان يظهر إليهم كالجراد ، و خيّالتُهم يسيرون في وسطهم ، بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً ، والكوسات[3] تخفق و البوقات تَنْعَرُ ، والأصوات بالتهليل و التكبير تعلو، هذا و السلطان يمدّ الجاليش بالأطلاب و العساكر التي عندَه ، حتى لم يَبْقَ معه إلا نَفَرٌ يسير ، ونحن نشاهد الأحوال ، و عَلَمُ العدوِّ مرتفعٌ على عجلة هو مغروس فيها ، وهي تُسْحَبُ بالبغال ، و هم يذبّون[4] عن

(١)الزُّنْبُرك : (بضمّ كل حروفها عدا النون ، فهي ساكنة) : شريط من فولاذ أو مطاط مقوّس يُعالج به نحو النّشّابة أو الدولاب .. فيعطيه الزنبرك قوّة اندفاع و يقال له في بعض اللغات غير العربية زنْبورك .

(٢)النّشّاب : النَّبْل . مفرده نُشّابة (كلاهما بضمّ النون) . (٣) الكُوس (بضمّ الكاف) : الطَّبْل .

(٤)يذبّ : يدافع .

العلَمِ ، و هو عالٍ جداً ، كالمنَارة خِرقَتُهُ بياضٌ ملمَّعٌ بأحمر على شكل الصُلْبان ، و لم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقتَ الظهر قُبالةَ جسر دعوق ، و قد ألجمهم العطش ، و أخذ منهم التعب ، وأثخنتْهم الجراح ، و اشتدّ الأمرُ بهم من شدة الحر .

و لقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً و أعطَوا الجهاد حقَّه ، و هجموا عليهم هجوماً عظيماً ، و استداروا بهم كالحلقة ، و هم لا يظهرون من رجّالتهم ، و لا يحملون ، فكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم ، فإنّهم أذاقوهم طعَم الموت ، و جُرح منهم جماعةٌ، كابار الطويل ، فإنه قام في تلك الحرب العظيمة أعظم مقَام و جُرِح جراحات متعددة ، و هو مستمّر على القتال ، و جرح سيفُ الدين يازكوج جراحاتٍ متعددة ، و هو من فرسان الإسلام و شجعانه ، و له مقامات متعدّدة ، و جرح خلق كثير ، و لم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق ، و قطعوا الجسر و أخربوه خوفاً من عبور الناس إليهم ، ورجع السلطانُ إلى تل الخروبة وأقام عليهم يزكاً[1] يحرسهم ، و أخبارهم تتواتر حتى الصباح ، و عزم في تلك الليلة على كَبْسِ بقيتهم ، و كتب إلى البلد يعرّفهم ذلك حتى يخرجوهم من ذلك الجانب ، فلم يصل من أهل البلد كتابٌ ، فرجع عن ذلك العزم ، بسبب تأخُّر الكتاب .

و لما كان صباحُ الخميس رابع عشر الشهر وصل مَنْ أخبرَ أنّ العدوّ على حركة الرحيل ، فَركِبَ السُّلطانُ و رتّب الأطلاب وكفَّ الناس

(١)اليزك : الحرس .

عن القتال خشيةَ أن يُغتالوا ، فإنّ العدوّ كانَ قد قَرُبَ مِنْ خيمه ، وأداروا الأطلاب فـــي الجانب الشرقيّ من النهر ، تسير قُبالةَ العدوّ ، حتى وصل إلى خيمه .

وكان ممَّنْ خرج مِنْ مقدَّميـــهم فـــي هــذه الســرية الكندهــري والمركيس، وتخلّف ابنُ ملك الألمان في الخيم مع جَمْعٍ كثير منهم .

ولمّا دَخَل العدوّ إلى خيمهم كانَ لهم فيـــها أطـــلابٌ مســتريحة ، فخرجتْ إلى اليزك الإسلامي و حملتْ عليه و نشِبَ القتالُ بيـــن الـــيزك وبينهم ، و جرى قتالٌ عظيم ، قُتِلَ فيه من العدوّ و جُرِحَ خَلْقٌ عظيـــم ، وقتل من المسلمين ثلاثةُ نفر ، و قتل من العدو شخصٌ كبيرٌ فيهم مقـــدَّم عليهم ، و كان على حصان عظيم ، مُلْبَسٍ بالزَّرْدِ إلى حافره ، و كـــان عليه لباسٌ لم يُرَ مثلُه ، و طلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفـــع إليهم جُثَّته ، و طُلِبَ رأسهُ ، فلم يوجد .

و عادَ السلطان إلى مخيَّمه وأعاد الثقلَ إلى مكانه ، و عاد كلُّ قوم إلى منزلتهم ، و عاد عمادُ الدين، و قد أَقْلَعَتْ حُمَّاه و بَقِيَ التياث مـــزاج السلطان ، و قد كان سببَ سلامة هذه الطائفة ، مع كونه لا يقدِرُ علـــى مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيتُه وهو يبكي في حال الحرب : كيف لـــم يقدر على مخالطته ، ورأيتُه و هو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمكافحـــة الأمر و مخالطة الحرب . و لقد سمعتُ منه ــ و قائلٌ يقول : إنّ الوخـــم قد عَظُمَ في مرج عكا بحيثُ إنّ الموت قد كَثُرَ في الطـــائفتين ــ ينشـــد متمثلاً :

اقتلاني و مالكاً * و اقتلا مالكاً معي

يريد بذلك أنني قد رضيتُ أنْ أُتلَفَ أنا إذا تَلِفَ أعداءُ الله ، و حدثَ بذلك قوة عظيمة في نفوس العسكر الإسلامي .

﴿ذكر وقعة الكمين﴾

وفي الثاني و العشرين من شوال رأى السلطانُ أنْ يضَعَ للعـــــدوّ كميناً ، و قَوِيَ عزمُه على ذلك ، فأخرج جمعاً مـــن كُمـــاة[1] العســكر وشجعانه و أبطاله و فرسانه ، و انتخبهم من خَلْقٍ كثير ، و أمرهـــم أن يسيروا في الليل و يكمنوا في سفح تلّ هو شِماليَّ عكا ، بعيدٌ من عســكر العدو ، عنده كانتْ منزلةُ الملك العادل حين وقعت الوقعةُ المنسوبةُ إليــه، و أنْ يظهرَ منهم للعدوّ نفرٌ يسير ، و أنْ يَقصدوه في خِيَمِه ، و يحرّكوه، حتى إذا خرَج انهزموا بينَ يديه نحو المسلمين ، ففعلوا ذلك ، و ســـاروا حتى أتوا التلَّ المذكورَ ليلاً فكمنوا فيه .

و لما تجلّى نهارُ الثالث والعشرين خرج منهم نفرٌ يسيرٌ على جياد من الخيل ، و ساروا حتى أتَوْا مخيَّمَ العدوِّ و رمَوْهم بالنُّشّاب ، و حرّكوا حميّتهم بالضرب المتواتر ، فانتخى لهم مقدارُ مائتي فارس ، و خرجـــوا إليهم شاكِي السلاح على خيل جيـــاد بعُـدّة تامَّـةٍ و أسـلحة كاملـة ، وقصدوهم، و ليس معهم أحدٌ راجلٌ ، و داخلهم الطمعُ فيهم لقِلَّةِ عُدَّتــهم ، فانهزموا بين أيديهم و هم يقاتلونهم ويُقتلون ، حتى أتوا الكمينَ ، فثــارتْ عندَ وصولهم الأبطال و صاحُوا صيحةَ الرجل الواحد ، و هجموا عليـــه هجمة الأســـود علـــى فرائسها ، فثبتوا و صبروا و قاتلوا قتالاً شديداً ثم

---

(١)الكَمِيّ : الشجاع .

ولّوا منهزمين ، فتمكّن أولياءُ الله منـــــهم ، و أوقعـوا فيـــهم ضربـــاً بالسيف، حتى أفنَوْا منهم جمعـــاً عظيمـــاً ، واستسـلم البـاقون للأسـر فأسروهم، و أخذوا خيلهم و عُدَدهــم ، و جــاء البشـيرُ إلـى العسـكر الإسلامي فارتفعت الأصوات بالتهليل و التكبير .

وركب السلطان يتلقّى المجاهدين ، و سار ، و كنت في خدمتـه ، حتى أتى تلّ كيسان ، فلقينا أوائلَ القوم ، فوقف هناك يتلقى العائدين مـن المجاهدين ، و الناسُ يتبرّكون بهم ، و يشكرونهم على حسن صنيعـهم ، وهو يعتبر الأسرى و يتصفّح أحوالهم . و كان ممّنْ أُسر مقـدّم عسـكر الإفرنسيس ، فإنّه كانَ قد أُنفذ نجدة قبل وصوله ، و أُسِرَ خـازنُ الملـك أيضاً ، وعاد السُّلْطانُ بعد تكامل الجماعة إلى مخيّمه فرحاً مسروراً.

وأَحْضَرَ الأسرى عنده ، و أمر منادياً ينادي مَـنْ أَسَـرَ أسـيراً فلْيحضره ، فأحضر الناسُ أسراهم ، و كنت حاضراً ذلك المجلس . ولقد أكرم المقدّمين منهم ، و خلع عليهم و على مقدّم عَسْكر الإفرنسيس فـروة خاص ، و أمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية ، فـإن الـبرد كـانَ شديداً ، و كان قد أخذ منهم ، و أَحْضَرَ لهم طعاماً أكلوه ، و أمـر لـهم بخيمة تُضربُ قريباً من خيمته ، و كان يكارمهم في كل وقت ، ويحضـر المقدّم على الخوان في بعض الأوقات ، و أمر بتنفيذهم[٢] وحمِلْهم إلـى دمشق ، فحملوا مكرَّمين ، و أَذِنَ لهم فـي أن يراسـلوا صاحبـهم و أن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ، ففعلـوا ذلك و ساروا إلى دمشق .

(٢)تنفيذهم : ترحيلهم ، إرسالهم .

﴿ذكر عَوْدِ العسكر عن الجهاد﴾

و لمّا هَجَم الشتاءُ و هاج البحرُ و أُمِنَ العدوُّ أنْ يضرب مصافّ وطلب البلد و حصاره من شدة الأمطار و تواترها أَذِنَ السلطان للعساكر في العَوْد إلى بلادهم ليأخذوا نصيباً من الراحة ، و تجُمَّ[1] خيولهم إلى وقت العمل.

و كان أول مَنْ سار عمادُ الدين صاحب سنجار لمِا كان عنده من القلق في طلب الدستور . وكان مسيرُه خامسَ عشر شوال ، وسار عُقَيْبَه في ذلك اليوم ابنُ أخيه سنجرشاه صاحبُ الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف و الإنعام و التُّحَفِ ما لم يُنْعَمْ به على غيرهما . و سار علاءُ الدين ابنُ صاحب الموصل في مستهلٍّ ذي القعدة مشرّفاً مكرّماً معه التحف و الطرائف ، و تأخّر الملك المظفَّر إلى أنْ دخلتْ سنةُ سبعٍ و ثمانين ، و تأخّر أيضاً الملكُ الظاهر ، و سار تاسعَ المحرَّم سنة سبع و ثمانين ، و سار الملك المظفرُ في ثالثِ صفر .

ولم يبق عند السلطان إلا نفرٌ يسير من الأمراء و الحلقة الخاصة[2].

---

(١)تَجُمّ (بضمّ الجيم) : تستريح . (٢) طالت محاصرة الفرنجة لعكا ، وأهلها في الداخل صامدون صابرون محتسبون ، وجيش صلاح الدين يترصّد أعمال الفرنجة ويقاومهم ، وبقيت هذا الحالة أكثر من ثلاث سنين ، " وكان القاضي الفاضل بمصر يدبّر الممالك بها ، ويجهّز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال ، وعمل الأسطول ، والكتب السلطانية ، فمنها كتاب يذكر فيه أنّ سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب ، وارتكارب المحارم بين النّاس ، فإنّ الله لا يُنال ما عنده إلاّ بطاعته ، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه ، وامتثال أمره ، فكيف لا يطول الحصار والمعاصي في كل مكان فاشية " . ومنها كتاب يقول فيه : إنّما أُتينا من قِبَلِ أنفسنا ، ولو صدقْنا لعجّل الله لنا عواقبَ صِدْقنا ، ولو أطعناه لمَا عاقبنا بعدوّنا ، ولو فعلْنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلاّ به.. ومن كتاب آخر يتألّم فيه لما عندَ السلطان من الضعف في جسمه بسبب ما حمل على قلبه ممّا هو فيه من الشدائد ، أثابه الله بقوله:"وما في نفس المملوك شائنة إلا بقيّة هذا الضعف الذي في جسم مولانا ، فإنه بقلوبنا ، ونفديه بأسماعنا أبصارنا. ثم قال : بنا معشرَ الخُدّام ما بكَ من أذى وإنْ أشفقوا ممّا أقول فبي وحدي"
[ابن كثير : البداية و النهاية (بيروت ١٤٠٨هـ) ٣٣٨/١٢]

و في أثناء ذي القعدة سنة ستٍ و ثمانين وفد عليه زلفتدار ، فتلقَّاه و أكـــرم مثواه ووضع له طعاماً يومَ قدومه و باسطه مباسطة عظيمـــة . وكـــانت حاجتُه أنْ يوقّع له بإعادة أملاكٍ كانت في يده ، ثم انتزعت من أعمـــال نصيبين والخابور فوقَّع بإعادتها إلى يده وإجراء الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهّرة و خلع عليه و شرَّفه و سار فرحاً مسروراً شاكراً لأياديه .

﴿ذكر ارتحال السلطان لإدخال البدل إلى البلد﴾

و لَمّا هاج البحر و أُمِنتْ غائلةُ مراكب العدوّ، ورفع ما كان لـــه من الشواني في البحر إلى البر ، اشتغل السلطان في إدخال البـــدَلِ إلـــى عكّا وحَمْل البُرِّ و الذخائر و النفقات و العُدَدِ إليها ، و إخراج مَنْ كـــان بها من الأمراء لعِظَم شكايتهم من طول المقام بها و معاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً و نهاراً .

و كان مقدّم البلد من البدل الداخل الأمير ســـيف الديـــن علـــيّ المشطوب ، دخل سادسَ عشرَ المحرّم من شـــهور سنة سبع و ثمـــانين ، و في ذلك اليوم خرج المقدّم الذي كان بها ، و هو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء و أصحابه ، ومن كان بها من الأمراء وأعيان الخلق ، و تقـــدّم إلى كلّ مَنْ دخل أنْ يصحب ميرةَ السنة ، وانتقل الملكُ العادل بعســـكره إلى حيفا على شاطئ النهر ، و هو الموضع الذي تُحمل منـــه المراكـــب فتدخل إلى البلد ، و إذا خرجتْ تخرج إليه ، فأقام ثَمّ[1] يحثُّ الناسَ علـــى الدخول ، و يحرس الميرَ و الذخائر ، لئلاّ يتطرّقَ إليها مـــن العدو مـــن

---

(١)ثَم (بفتح الثاء) : هنالك .

يعترضُها ، و كان ممّا دخل إليها سبعُ بطس مملـــوءة مِـيرةً وذخـــائر ونفقات كانت وصلتْ من مصر محمّلة ، و تقدّم السلطانُ بتعبيتها من مدّة مديدة ، و كان دخولُها ثانيَ ذي الحجة من السنة الخالية[1]، فانكسر منـــها مركب علـــى الصخر الذي هو قريب من الميناءِ فانقلب كلّ مَنْ في البلد من المقاتلة لتلقّي البطس .

و لما علم العدوّ ذلك أخذوا غِرتَّهم و زحفوا إلى البلد في جـــانب البرّ زحفةً عظيمةً و قاربوا الأسوار ، و صعدوا في سلم واحد فـــاندقّ[2] بهم السلم كما شاء الله تعالى، و تداركهم أهلُ البلد فقتلـــوا منـــهم خلقـــاً عظيماً، و عادوا خائبين خاسرين .

و أمّا البُطُسُ فإنّ البحر هاج هياجاً عظيماً و ضرب بعضها علـــى الصَّخر فهلكت ، و هلك جميعُ مَنْ كان فيها . قيل كان عددُهم ستين نفراً و كان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، و ذلك بتقديـــر العزيز العليم ، و دَخَلَ على المسلمين بذلك وهْـــنٌ[3] عظيـــم وأُحْـــرِجَ السلطان بذلك حرَجاً عظيماً ، فاستخلفَ ذلك في سبيل الله تعالى ، و مـــا عند الله خير وأبقى ، كان ذلك أول علامات أخذ البلد والظَّفَر به .

ولما كانتْ ليلةُ السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر أنْ وَقَعَ من السُّور قطعة عظيمة و نقلها على الباشـــورة فـــهُدمت أيضاً منها قطعةٌ عظيمة ، و هي العلامة الثانية ، و قد أخذ العدوَّ الطمعُ، و هاج الزحفُ هياجاً عظيماً ، و جاؤوا إلى البلد كقِطْعِ الليل المدلهمّ مـــن كل جانب ، وثارت هِمَمُ الناس فـــي البلد و قـــاتلوا العدوّ قتـــالاً شديداً ،

(١)و هي سنة ٥٨٦هـ . (٢) اندقّ : انكسر ، تحطّم . (٣) وهَنْ : ضعف .

حتى ضَرِسوا وأَيسُوا من أن ينالوا خيراً ، فوقفوا على سدّ موضعَ القطعة الواقعة ، وجمعوا مَنْ في البلد من البنّائين و الصُّنّاع ، ووضعوهم فــــي ذلك الموضع ، و حَمَوهم بالنُّشاب و المجانيق ، فما مرَّت إلاّ ليالٍ يسـيرةٌ حتى انتظمت و عاد بناؤها أحسنَ مما كان و أقوى و أتقن .

﴿ذكر الظفر بمراكب العدوّ﴾

و كان قد استَأْمَنَ من الفرنج خلقٌ عظيم أخرجهم الجوعُ إلينــــا ، وقالوا للسطان : نحن نخوض البحر في براكيس و بطس إلــى العــدوّ ، ويكون الكسْبُ بيننا و بين المسلمين .

فأذِنَ لهم في ذلك ، و أعطاهم بركوساً ، و هو المركب الصغير . فركبوا فيه و ظفروا بمراكبَ للتُّجّار من العدوّ ، و هــي قــاصدةٌ إلــى عسكرهم ، و بضائعهم معظمُها فضّةٌ مَصُوغة و غير مصوغة ، فوقــع عليها البركوس ، و قاتلوهم حتى أخذوهم و اكتسبوا منهم مــالاً عظيمــاً وأسرُوهم و أحضروهم بين يدي السلطان ، و ذلك في ثالث عشـــر ذي الحجّة من السنة المذكورة ، ولقد كنتُ حاضراً ذلك المجلسَ ، و كان من جملة ما أحضروه مائدةُ فضّةٍ وعليها مكبة مخرَّمةٌ من فضة ، فأعطــاهم السلطان الجميعَ ، و لم يأخذْ منهم شيئاً ، و فرح المســلمون بنصــر الله عليهم بأيديهم .

﴿ذكر موت ابن ملك الألمان﴾

و ذلك أنّ العدوَّ لمّا دخل الشتاءُ عليهم و تواترت الأنداءُ واختلفت الأهــواء وَخـــمَ المرْج وخماً عظيماً وَقَع معه موتان عظيم ، وانضمّ إلى

ذلك الغلاء الزائد و انسدَّ عليهم البحرُ الذي كان يجيئهم منه المِيرةُ من كل جانب ، و كان يموت منهم كل يوم المائةُ و المائتان ، على ما قيل ، و قيل أكثر من ذلك .

و مرض ابنُ ملِكِ الألمان مرضاً عظيماً ، وعرَضَ له مع ذلك مرضُ الجوف ، فهلك به في الثاني و العشرين من ذي الحجة سنة ست و ثمانين ، و حزن الإفرنج عليه حزناً عظيماً ، وأُشعلتْ له نيرانٌ هائلة، بحيث لم يبقَ له خيمة إلاّ و أشعلت فيها النّارانِ و الثلاثة ، بحيث بقي عسكرهم كلُّه[1] نارٌ ، و فرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده ، و هلك منهم كبير ، يقال له الكند بالياط ، ومرض الكندهري و أشرف على الهلاك .

و في الرابع و العشرين منه أُخِذَ منهم بركوسان ، فيهما نيّفٌ وخمسون نفراً ، و في الخامس والعشرين منه أُخذ منهم أيضاً بركوس وجميع ما فيه ، و كان من جملة ما فيه مِلْوَطةٌ[2] مكلّلة باللؤلؤ ، و هي من تفاصيل الملك ، و قيل كان في البركوس ابنُ أخيه و أُخذ أيضاً .

﴿ذكر غارة أسد الدين﴾

و هذا أسدُ الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، و هو صاحبُ حمص . وكان من حديثه أنَّ السلطانَ كان قد رَسَمَ له أنْ يأخذ حِذْرَهُ من الإفرنج بطرابلس ، و يأخذ نفسه بحراسة المسلمين و الفلاحين في تلك الناحية ، و أنه قيل له إن إفرنج

(١)كلّ : مبتدأ . و الهاء في محلّ جر بالإضافة . نار : خبر . و الجملة حاليّة .

(٢)ملوطة : نوع من الثياب .

طرابلس قد أخرجوا جشارهم[1] و خيلهم إلى مَرْج هنـــاك ، و أبقـــارهم ودوابّهم ، و أنه قد قرَّر مع عسكره قصدَهم . فخرج على غِرَّةٍ منـــهم ، وهجمَ على جشارهم ، فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ، ومئة مـــن البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، و سلم الباقي ، و عاد إلى البلد و لـــم يُفْقَدْ من أصحابه أحد ، ووصل الكتابُ بذلك في رابعِ صفر من سنة سبع و ثمانين .

﴿ذكر وقائعَ عِدّةٍ في هذه السنة﴾

و في ثالث ربيع الأول كان اليَزكُ للحلقة السلطانية[2]، و خـــرج من العدو إليهم خَلْقٌ عظيم ، و جرى بينهم وقعة شنيعة ، و قُتِلَ فيها مـــن العدوّ جماعة ، و قُتِلَ منهم رجلٌ كبير على ما قيل ، و لـــم يُفقد مـــن المسلمين إلا خادمٌ للسلطان يسمَّى فراقوش و كان شـــجاعاً عظيمـــاً لـــه وقعات عظيمة كثيرة ، استشهد في ذلك اليوم .

و في تاسع الشهر بلغ السلطانَ أنَّ العـــدوّ يخـــرج منـــه طائفـــةٌ يتفسّحون لبعدنا عنهم ، فاقتضى رأيه أنْ أنفذ أخاه الملك العـــادل و فـــي خدمته خلقٌ عظيم من العساكر الإسلامية، و أمره أن يكمن للعـــدوّ وراءَ التّلّ الذي كانتْ فيه الواقعةُ المعروفة به ، فسار هو و جمع كـــان مـــن كبراء أهله و أصحابه فكمن وراء تل العياضية ، وكـــان ممَّن كان معـــه من كبار أهله الملكُ المظفَّر تقيُّ الدين ، و ابنه ناصر الدّيْـــنِ محمـــد ، والملك الأفضل ولده ، و معه صغارُ أولاده الملك الأشرف محمد والملك

(١)ماشيتهم . (٢) كانت الكتيبة المسؤولة عن الحراسة في ذلك اليوم هي كتيبة السلطان صـــلاح الدين نفسه .

المعظم طورانشاه ، و الملك الصالح إسماعيل ، و كان من المعمّمين الفاضل و الديوان ، و كنت في الصحبة في ذلك اليوم ، و ركب جماعةٌ من الشجعان على الخيول الجياد، و ناوشوا العدوّ ، فلم يخرج في ذلك اليوم ، و كان قد وشى إليهم بحلية الأمراء إلا أنّ ذلك اليوم لم ينفكّ إلاّ بنوع نصر ، فإنّه وصل في أثنائه خمسةٌ و أربعون نفراً من الإفرنج كانوا قد أخذوا في بيروت ، وسيروا إلى السلطان ، ووصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان .

ولقد شاهدتُ منه رقة قلب لم ير أعظم منها ، وذلك أنه كان فيهم شيخٌ كبير طاعن في السنّ ، لم يبق في فمه ضرس ، و لم تبق له قوَّة إلاّ مقدار تحرُّكٍ لا غير ، فقال للترجمان : قل له: ما الذي حملك على المجيءِ وأنتَ في هذا السن ؟ و كم مِنْ ههنا إلى بلادك؟ فقال: بلادي بيني وبينها عدة أشهر . و أمّا مجيئي فإنّما كان للحج إلى القيامة . فَرقَّ له السلطان ومنَّ عليه و أطلقه و أعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو.

و لقد طلب أولادُه الصغارُ أنْ يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعله ، فسألته عن سبب المنع و كنت حاجبَهم بما طلبوه ، فقال : لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ، و يهونَ عليهم ذلك ، و هم الآن لا يفرّقون بين المسلم و الكافر .

و لما أيس من خروج العدوّ عاد إلى المخيّم في عشية ذلك اليوم .

﴿ذكر وصول العساكر الإسلامية و الملك إفرنسيس﴾

و من ذلك الوقت انفتَح البابُ و طابَ الزمان ، و جاء أوانُ عَـودِ العساكر إلى الجهاد من الطائفتين ، فكان أوّلَ مَنْ قدِمَ علمُ الدّين سـليمانُ أبن جندر من أمراء الملك الظاهر ، و كان شيخاً كبـيراً مذكـوراً ، لـه وقائع، ذا رأي حسن ، و السلطان يحترمه و يكرمه ، و له قَدَمُ صُحْبَة .

ثم قَدِمَ بعدَه مجد الدين بن عزّ الدين فخرشاه و هو صاحب بعلبكّ، وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوْب .

و أمّا عسكرُ العدوّ فإنّهم كانوا يتواعدون اليَزَكَ و مَـنْ يقاربـهم بقدوم الملك الفرنسيس ، وكان عظيماً عندهم مقدّماً محترماً مـن كبـار ملوكهم ، تنقاد إليه العساكر بأسرها، بحيث إذا حضر حَكَمَ على الجميع ، و لم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قَدِمَ في ستّ بطُس تحملُه و ميرتَه وما يحتاج إليه من الخيل و خواصّ أصحابه ، و كان قدومُـه يـوم السـبت الثالث و العشرين من ربيع الأول من هذه السنة .

﴿نادرة و بشارة﴾

و كان قد صحبه من بلاده باز(١) عظيمٌ هائلُ الخلق أبيضُ اللـون نادرُ الجنس ، ما رأيتُ بازياً أحسن منه و كان يعزّه و يحبّه حباً عظيمـاً، فشذّ الباز من يده و طار و هو يستجيئه و لا يجيئه حتى سقط على سُـورِ عكا فاصطاده أصحابُنا ، و أنفذوه إلى السلطان ، و قد كان لقدومه روعةٌ

---

(١)البازي : نوع من الصقور .

عظيمة و استبشار عظيم بالظَّفَرِ به ، فتفاءَل المسلمون بذلــك ، و بــذل الإفرنج فيه ألفَ دينار ، فلم يُجابوا .

و قدِمَ بعدَ ذلك كند فرند ، وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكُــوراً ، فذكروا أنه حاصر حماةَ و حارم[1] في عام الرَّمْلة .

و لما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتابٌ من اللاذقيــة أنّه كان جماعة من المستأمَنين قد أعطوا براكيس[2] ليكبِسُوا[3] عليها فــي البحر من العدوّ ، فأخذوها ، و نزلوا في جزيرة قبرص في عيدٍ لــهم ، وقد اجتمع جمعٌ كثير من أهل الجزيرة في بيعة[4] قريبة مــن البحــر ، وأنهم صلوا معهم صلاةَ العيد ، و أنهم لما فرغوا من الصلاة ضربــوا على كل من [كان في] البيعة من الرجال و النساء و أخذوهم عن آخرهم، حتى القسّ ، و حملوهم و ألقوهم في مراكبهم ، وساروا بهم حتى أَتــوا اللاذقيةَ، و كان من جملة ما كان فيها سبع و عشرون امرأة ، و أمــوالٌ عظيمة ، فتقسموها فوصل إلى كل واحد على ما قيل أربعةُ آلاف درهــم من الفضة النقرة[5] .

و قدم بعد ذلك بدرُ الدّين ــ شُحْنةُ دمشق ــ في ســابع عشــر ربيع الآخر ، و هجم أصحابُنا على غنم العدوّ فأخذوها ، و كان عددهــا مائة و عشرين رأساً ، فركب في طلبها الراجلُ و الفارسُ ، فلم يظفــروا منها بشيءٍ .

---

(١)كلمة حارم مصروفة ، و إنّما منعها هاهنا من الصرف لأنّه أوّلها بمعنى بلدة ، فمُنعت من الصــرف للعلمية و التأنيث . (٢)براكيس : نوع من المركب البحرية .

(٣)ليهجموا عليها و يطوّقوا ما يرون من قوات العدوّ . (٤)البِيعة (بكسر الباء) : معبد النصارى .

(٥) النقرة : القطعة المذابةُ من الذهب و الفضة .

﴿ذكر ملك الانكتار﴾

و هذا ملك الانكتار شديدُ البأس بينهم ، عظيــمُ الشــجاعة قــويٌّ الـهمة، له وقعاتٌ عظيمة ، و له جسارة علـــى الحـــرب ، و هـــو دون الفرنسيس عندهم في المُلْكِ و المنزلة ، لكنّه أكثرُ مالاً منه وأشـــهر فـــي الحرب و الشَّجاعة .

و كان مِنْ خبره أنّه وصل إلى جزيرة قـــبرص ، ولـــم يـــر أنْ يتجاوزها إلاّ و أنْ تكونَ له و في حُكْمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج إليـــه صاحبها و جمع له خلقاً عظيماً و قاتلهم قتالاً شديداً ، فأنفذ الانكتار إلـــى عكا يستنجدُ فَأَرْسَلَ إليه الملك جفري أخاه و معه مائة وســـتون فارســاً ليعينوه على مقصوده ، و بقيت الإفرنج على عكّا ينتظرون ما يكون مـــن الطائفتين .

وفي سلْخ ربيع الآخر وصلتْ كتبٌ من بيروت أنّه قد أُخـــذ مـــن مراكب الانكتار القاصدة نحوَ عسكر العدوّ خمسةُ مراكبَ و طرَّادةٌ فيـــها خَلْقٌ عظيم رجال و نساء و ميرةٌ و أخشابٌ وآلاتٌ و غير ذلك ، و فيـــها أربعون فارساً ، و كان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون .

و في رابع جمادى الأولى زَحَفَ العدوُّ إلى البلد، ونصبوا عليـــه مجانيقَ سبعةً ، ووصلت كتبُ عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدوّ عنهم فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقـــة العـــدوّ ومقاربته ، و أصبح على أُهْبة المسير إلى العدوّ ، ورتّب العساكر، ثـــم أنفذ مَنْ كشف حال العدو و حالَ خنادقِهم : هـــل فيـــها كمين أم لا ؟[1]

(١)هكذا وردت العبارة ، ولعل فيها تصحيفاً ، و الصحيح : أفيها كمين أم لا ؟

فعادوا و أخبروا بخلوّها عن الكمين ، فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه إلى خنادقهم ، و صعد جبلاً يعرف بتل العضول قريباً من العدوّ، مشرفاً على خيمهم ، و شاهد المنجنيقات ، و ما يعمل منها و ما هو بطّال ، ثم عاد إلى مخيمه ، و أنا في خدمته ،

و في صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوصُ برضيعٍ له ثلاثةُ أشهر قد أخذ من أمه سَرِقَةً .

﴿ذكر قصة الرضيع﴾

و ذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال ، و كان من قصّتهم أنهم أخذوا ذاتَ ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثةُ أشهر ، و ساروا به حتى أتَوا إلى خيمة السلطان ، وعرضوه عليه ، و كان كلّ ما يأخذونه يعرضونه عليه ، و يعطيهم ما أخذوه .

و لما فقدتْه أمّه باتتْ مستغيثةً بالويل و الثُّبور طُولَ الليل ، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا إنه رحيم القلب و قد أَذِنَّا لكِ بالخروج فاخرجي و اطلبيه منه ، فإنّه يردّه عليك .

فخرجتْ تستغيثُ إلىاليزك ، فأخبرتْهم بواقعتها فأطلقوها ، وأنفذوها إلى السلطان ، فلقيتُه و هو راكبٌ و أنا في خدمته ، و في خدمته خلق عظيم ، فبكتْ بكاءً شديداً ومرَّغَتْ وجهَها في التراب ، فسأل عن قصّتها فأخبروه فرقَّ لها ودمعتْ عينه ، و أمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السُّوق ، فارتدّه، وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ،

وأخذه منه ، و لم يزل واقفاً حتى أُحْضِرَ الطفل ، وسُلِّم إليـــها فأخذتـــه وبكتْ بكاء شديداً ، و ضمَّته إلى صدرها والناس ينظرون إليها و يَبْكون، و أنا واقفٌ في جملتهم ، فأرضعتْه ساعةً ، ثم أمر بـــها فَحُمِلَـــتْ علــى فرس، و أُلحقتْ بعسكرهم مع طفلها . فانظر إلى هذه الرحمـــة الشـــاملة لجنس البشر . اللهمّ إنّك خلقْتَهُ رحيماً فارحمْه رحمةً واسعة مِنْ عندك يـــا ذا الجلال و الإكرام . و انظر إلى شهادة الاعداء له بالرأفة و الكرم :

و مليحةٍ شهــدتْ لـــها ضَرَّاتـــُها و الحسنُ ليس لحقِّـــه مِـــنْ مُنْكِرِ

و في ذلك اليوم وصل ظهرُ الدّين بن البلنكري ، و كـــان مقدّمـــاً عظيماً من أمراء الموصل ، وصل مفارقاً لهم يطلبُ خدمةَ الســـــلطان ، ولما عاد السلطان إلى مخيّمه لم يلبثْ إلا ساعةً حتى وصله الخبر بتجديد الزَّحف ، فعاد و ركبَ مِنْ ساعته نحو البلد ، و قـــد انفصـــل الحـــربُ بدخول الليل من الطائفتين .

﴿ذكر انتقال السلطان إلى تلّ العياضية﴾

و لما كانت صبيحةُ الثلاثاء تاسع جُمادى الأولى بَلَغَ الســـلطانَ أنَّ الإفرنجَ قد ضايقوا البلدَ و ركبوا المجانيق ، فأمر الجـــاويش أنْ صـــاحَ بالنـاس و ركب لركوبه العسكرُ راجلُهم و فارسُهم ، حتى أتى الخرّوبـــةَ ، و قوي اليزكُ بتسيير جماعة من العسكر إليه . فلم يخرج العدوّ . واشـــتدّ زحفُهم على البلد فضايقَهم رحمه الله مضايقةً عظيمة ، و هجم عليهم فـــي خنادقهم ، و لم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهرَ نهار ، و عـــاد العدوُّ إلى خيمه و قد أَيِسَ من أمر البلد ، و عادَ السّلطانُ إلى خيمة لطيفة

ضربت له هناك يستظل فيها من الشمس ، فنزل بـــها لصـــلاة الظـــهر والاستراحة ساعة ، و قوى اليزك ، و أمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ جزء من الراحة ، و كنت في خدمته .

فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عـــادوا إلى الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولا ، فأمر من نبـــه الناس ، و أمر بالعود ، فتراجعت العساكر إلى جهة العدو أطلابا أطلابـا، و أمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب[1]، و أقام هو هنـــاك علـــى عـــزم المبيت ، و فارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء عدت إلى الخيم ، و بات هـو و جميع العسكر على تعبية القتال طول الليل ، و أصر طائفة منهم علـــى مضايقة العدو .

ثم سار العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشـــر الشـــهر إلـــى تـــل العياضية قبالة العدو ، و ضربت له عليه خيمة لطيفة ، و نازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد و الضرب المبرح المتواتـــر[2] الـــذي لا يفتر، شغلا لهم عن الزحف ، و هو يدور بين الأطلاب و يحثـــهم علـــى الجهاد و يرغبهم فيه .

و لما رأى العدو تلك المنازلة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم فـــي خيمهم، فرجعوا عن الزحف و اشتغلوا بحفظ الخنادق و حراسة الخيم .

و لما رأى فتورهم عن الزحف عاد إلى العياضية ، ورتب علـــى خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة ، إذا رجعوا إلى الزحف ، كـــل ذلك دفعا للعدو عن مضايقة البلد و الزحف عليه .

---

(١)لأمة : درع ، يريد عدة الحرب . (٢) المبرح : الشديد المؤذي . المتواتر : المتتابع .

﴿ذكر الشروع في مضايقة البلد﴾

و لقد بلغ من مضايقتهم البلد و مبالغتهم في طَمّ خندقه أنهم كانوا يُلْقون فيه موتى دوابّهم بأسرها ، و آل الأمرُ إلى أنْ كانوا يُلقون فيه موتاهم ، و كانوا إذا جُرِحَ منهم أحد جراحةً مؤلمة مثخنة أَلْقَوْه فيه .

بهذا جميعه تواصلتْ كتبُ أصحابنا من البلد . و أمّا أهلُ البلد فإنّهم انقسموا أقساماً : قسمٌ ينزلون في الخندق يقطعون الموتى و الدوابّ التي يلقونها فيه قِطَعاً ليسهل نقلُها(١) . و قسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويُلقونه في البحر . و قسم يذبّون عنهم و يدافعون حتى يتمكّنوا من ذلك. و قسم في المنجنيقات و حراسةِ الأسوار . و أخذ منهم التعبُ و النصب و تواترتْ شِكايَتُهم مِنْ ذلك .

و هذا ابتلاءٌ لم يُبْلَ بمثله أحدٌ ، و لا يصبر عليه جَلْد . و كانوا يصبرون و اللهُ مع الصابرين . هذا و السلطانُ لا يقطع الزحفَ على خنادقهم بنفسه و خواصّه و أولاده ليلاً و نهاراً ، حتى أثّرت فيه الأثر البيّن ، و كلّما ازدادوا في قتال البلد ازدادَ هو في قتالهم و كَبْس خنادقهم و الهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخصٌ يطلب مَنْ يتحدّث معه ، فلما أُخبر السلطان بذلك قال : إن كان لكم حاجةٌ فليخرجْ منكم واحدٌ ، فأمّا نحنُ فليس لنا إليكم حاجةٌ و لا شُغْلٌ ، و دام ذلك متّصلاً الليلَ مع النهار حتى وصل الانكتار .

---

(١)حرصاً من المسلمين على الوقاية من أسباب الطاعون و غيره من الأوبئة .

﴿ذكر وصول الانكتار﴾

و لما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدِمَ ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص و الاستيلاء عليها ، و كان لقدومهِ رَوْعةٌ عظيمة ، ووصل في خمس و عشرين شانية مملوءةٍ بالرجال والسلاح و العُدَدِ ، و أظهر الإفرنجُ سروراً عظيماً حتى إنهم أوقدوا تلك الليلةَ نيراناً عظيمةً في خيامهم . و لقد كانت النيرانُ مهولة عظيمةً تدلّ على عُدّة عظيمة كبيرة ، و كان ملوكهم يتواعدوننا به ، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقّفون فيما يريدون أن يفعلوه مِنْ مضايقة البلد حتى قدومه ، فإنه ذو رأي في الحرب مجرَّب ، و أثّرَ قدومُه في قلوب المسلمين خشيةً و رهبة . هذا و السلطانُ يتلقّى ذلك كلّه بالصبر والاحتساب و الاتكّال على الله ، (و مَنْ يتوكل على الله فهو حسبه) .

﴿ذكر غرق البطسة الإسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد[1]﴾

و لما كان السادسَ عشرَ وصلتْ بَطسةٌ من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات و الأسلحة و الميَرِ و الرجال و الأبطال المقاتلة ، وكان السلطانُ قد أمر بتعبيتها و تسييرِها من بيروت ، ووضع فيها مِن المقاتلةِ خَلْقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمةً للعدو ، وكان عِدّةُ رجالها المقاتلة

---

(١)كانت العلامة الأولى دمار بعض البطس القادمة من مصر،وكانت مملوءة بالميرة والذخيرة والمال،والرجال ، فهاج عليها البحر فهلكتْ هي و مَنْ فيها ، و كان ذلك في أوائل ذي الحجة سنة ٥٨٦هـ . و كانت العلامة الثانية وقوع قطعة من سور عكا " ونقلها على الباشورة " ، فهُدمت أيضاً منها قطعة عظيمة " كما تقدّم لدى الحديث عن ارتحال السلطان لإدخال البدل إلى البلد .

ستمائة وخمسين رجلاً ، فأغرقها الانكتار في عدّة شوانٍ قيلَ كان فيـ ـها أربعون قلعاً ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها و اشـتدّوا فـي قتالـها ، وجرى القضاءُ بأنْ وقف الهواء ، فقاتلوها قتالاً عظيماً و قُتِلَ من العـدو عليها خَلْقٌ عظيم ، و أحرقوا للعدوّ شانياً كبيراً فيه خلقٌ عظيم ، فـهلكوا عن آخرهم .

و تكاثروا على أهل البطسة و كان مقدَّمُهم رجلاً جيـداً شـجاعاً مجرَّباً في الحرب ، فلما رأى أمارات الغلبةِ عليهم وأنَّهم لا بدَّ أنْ يُقتلـوا قال و الله لا نقتل إلاّ عَنْ عزّ ، و لا نُسلم إليهم من هذه البطسة شـيئاً ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ، و لم يزالـوا كذلـك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً فامتلأتْ ماءً فغرِقَ جميعُ مَنْ فيها و مـا فيها من الآلات و الميرِ و غير ذلك ، و لم يظفر العدوُّ منها بشيء، وكان اسمُ المقدم المذكور يعقوبَ ، من رجال حلب ، و تلقّف العدوُّ بعضَ مَـنْ كان فيها فأخذوه إلى الشواني من البحر و خلصوه من الغرق و أنفـذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، و حزن الناس لذلك حزناً شديداً ، والسـلطان يتلقَّى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله والصبر على بلائه ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

﴿ذكر حريق الدبابة﴾

و ذلك أنّ العدوّ كان قد اصطنع دَبَّابةً عظيمة هائلة أربعَ طبقـات، الطبقةُ الأولى من الخشب ، و الثانيةُ من الرصـاص ، و الثالثـة مـن الحديد، و الرابعةُ من النحاس . و كانت تعلو على السُّور ، و كان يركبُ

فيها المُقاتِلَةُ ، و خاف أهلُ البلد منها خوفاً عظيماً ، و حدّثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدوّ ، وكانوا قد قرّبوها مَن السور ، بحيث لم يبقَ بينها و بين السور إلا مقدارُ خمسةِ أذرعٍ على ما يشاهد برأيِ العَيْنِ ، وأخذ أهلُ البلد في تولية[1] ضربها بالنِّفْط ليلاً و نهاراً ، حتى قدَّر الله تعالى حرقَها ، و اشتعالَ النار فيها ، و ظَهَر لها ذؤابةُ نار نحو السماء، فاشتدّت الأصواتُ بالتهليل و التكبير ، و رأوا الناسَ فيها لّمَا ظهرتْ لها تلك النيرانُ و لقُوا جَبْراً من ذلك الوهْن ، و مَحْواً لذلك الأثرِ ، و نعمةً بعد نقمة ، و إيناساً بعدَ يأس ، و كان ذلك في يوم غرَق البطسةِ ، فوقع من المسلمين موقعاً عظيماً ، و كان مسلّياً لحزنهم .

﴿ذكر وقعات عدّة﴾

و لما كان يومُ الجمعة تاسعَ عشر الشهر زحف العدوُّ على البلد زحفاً عظيماً ، و ضايقوه مضايقةً شنيعة ، و كان قد استقرَّ بيننا و بينهم أنَّهم متى زَحَفَ العدوُّ عليهم دقُّوا كؤوسهم[2]، فضربوا بكؤوسهم ، فأجابتْ كؤوسُ السلطان ، و ركبت العساكر ، و ضايقهم السلطان من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم ، فجاوزوا خنادقهم و أخذوا القدورَ و ما فيها و حضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيءٌ عندَ السلطان ، و أنا حاضر ، و لم يزل القتل يعملُ حتى أيقن العدوّ أنه قد هُجم عليهم ، فأخذوا يتراجعون عن قتال البلد، وشرعوا

(١)تولية : متابعة . (٢)الكُوس : الطبل .

في قتال العساكر ، و انتشب الحربُ بينهم ، و لم تزل ناشبةً[١] حتى قـام قائم الظهيرة ، و غَشِيَ الناسَ من الحر أمــرٌ عظيـم مـن الجـانبين ، وتراجعت الطائفتان إلى خيامهم و قد أخذ منهم التعبُ و الحرّ .

و لما كان يوم الاثنين الثالث و العشــرون دقّ كـؤوس البلـد ، فجاوبه كؤوس السلطان ، و ثار القتال بين الطائفتين و لجّ العـــدو فــي مضايقة البلد ، ثقةً منهم أنّ الناس لا يهجمون علــى خيمــهم ، و أنّــهم يهابونها ، فكذّب العسكرُ ظنونهم ، و هجموا على الخيام أيضاً ، ونــهبوا منها ، فتراجع العدوّ إلى قتالهم ، ووقع الصّيّــاح فيــهم ، فلحقــوا مــن المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم و أسوارهم ، و جرى بينهم وقعة عظيمة ، قُتِلَ فيها اثنان من المسلمين و جرح جماعة ، و قُتِلَ جماعة من العدو .

و أعجبُ ما في هذه الوقعة أنه كان وصل في هذا اليــوم رجــلٌ كبير مذكور من أهل مازندران[٢] يريد الغَزاةَ ، فوصل و الحرب قائمــة، فلَقِيَ السلطانَ ، فاستأذنه في الجهاد ، و حمل حملةً شديدة ، و استشــــهد في تلك الساعة .

و لما رأى العدوُّ دخولَ المسلمين إلى خنادقهم وتوغّلهم إلى داخـل أســوارهم داخلهم الحميّة ، و بعثتهم النخّوةُ ، فــركب فارسُهم و صحبه

---

(١)ذكّر كلمة الحرب بتذكير " انتشب " ، ثمّ أنّثها بقوله :" ولم تزل ناشبة " لأن كلمــة "الحــرب" تذكّر و تؤنّث ، مثل : الريح ، والحال ...

(٢)كان في جيش صلاح الدين متطوّعة وافوْه من كثير من الأصقاع الإسلامية . و مــازندران : اسم لولاية طبرستان ، بين الريّ وقومس و البحر وبلاد الديلم و الجيل ، من البلاد الأعجمية .

راجلُهم ، و خرجوا إلى ظاهر أسوارهــم ، و حــملوا على المســـلمين حملةَ الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً ، فلم يتحرّكوا من أماكنهم ، و التحم القتال من الجانبين ، و اشتد الضربُ من الطـــائفتين ، وصبر المسلمون صبر الكرام ، و دخلوا في الحرب بالتحام .

فلما رأى العدوّ ذلك الصبرَ المعجب و الإقدامَ المزعـــج أنفــذوا رسولاً في غضون ذلك يستأذنون بالرسول في الوصول ، فـــأُذِنَ لـــه ، فوصل الرسولُ أوّلاً إلى الملك العادل ، فاستصحبه ووصـــل بـــه إلـــى الخدمة السلطانية ، ومعه أيضاً الملك الأفضل ، فأدّى الرسالةَ ، و كـــان حاصلُها أنّ ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان .

فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكُّـــر ولا تروّ بأنْ قالَ : إنّ الملوك لا يجتمعون إلاّ عن قاعدة ، و لا يحســـن منهم الحرب بعد الاجتماع و المواكلة[1]، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقريـــر قاعدة قبل هذه الحالة ، و لا بد من ترجمان نثق به في الوسط يفهم كـــل واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن بيننا ذلك الترجمـــان ، فـــإذا اســـتقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

و لما كان يوم السبت الثامن و العشرون خرج العـــدوّ راجلـــهم وفارسهم من جانب البحر شِماليَّ البلد ، وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكرُ ، و انتشب القتال بين الطائفتين ، و قتل من المســـلمين بـــدويٌّ وكـــرديّ ، و قتل من العدو جماعة، و أسروا واحداً بسلاحه و فرسه ،

(١)أن يأكل بعضهم مع بعض .

ومثل بين يدي السلطان ، ولم يزل القتال يعمل حتى طال الليل بين الطائفتين .

و لما كان الأحد التاسع و العشرون خرجَ العدوُّ برجالة كثيرة على شاطئ النهر الحلو ، فلقيهم طائفة من اليزك ، وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رجّالة من المسلمين إلى الحرب فأسروا مسلماً و قتلوه و أحرقوه ، و أسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه و أحرقوه ، و لقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد .

و لم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدوّ ، والشكوى من ملازمة قتالهم ليلاً و نهاراً ، و ذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكتار ، ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك ، وخرج الفرنسيس ، و لم يزدهم ذلك إلا إصراراً و عتواً ، و كان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان في الباطن ، كانا في خِدْمتها في صقلية ، وكانت هي زوجة صاحب صقلية ، فلما مات و مرّ أخوها بالبلد أخذها وأصحابَها معه إلى العسكر ، وهرب الخادمان إلى العسكر الإسلامي، فقبلهما السلطان و أنعم عليهما إنعاماً عظيماً .

﴿ذكر هرب المركيز إلى صور﴾

و لما كان يوم الاثنين سلخَ جمادى الأولى قوي استشعار المركيس أنه إن أقام قبضوا عليه و أعطوا صُور للملك القديم الذي كان قد أسره

السلطانُ ، لما عاناه من الأسر في نصرة دينِ المسيح . و لما صحّ ذلك عنده هربَ إلى صور ، فأنفذوا خلفه قسوساً ليردّوه فلم يفعل ، و سار في البحر حتى أتى صور ، و شق ذلك عليهم و عظم لديهم ، فإنه كان ذا رأي و شجاعة و خبرة .

﴿ذكر وصول بقية عساكر الإسلام﴾

و في سلخ جمادى الأولى قدم عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدّين برتقش ، فلقيَه السلطانُ و احترمه ، و كان ديّناً عاقلا محباً للغزو فأنزله السلطان في الميسرة بعد أنْ أكرمه و أنزله في خيمته ، وفرح بقدومه فرحاً شديداً في ذلك الوقت ، ثم قدم بعد ذلك قطعةٌ عظيمة من عسكر مصر ، كعلَمِ الدين كرجي و سيف الدين سنقر الدوادار ، و جماعة كثيرة، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين صاحبُ الموصل وعسكرهم ، فلقيه السلطان بالخرّوبة ، و نزلوا هناك إلى بكرة اليوم الثاني من جمادى الآخرة ، و أصبح سائراً حتى أتى بجَحْفَلِهِ قُبالةَ العدوّ و عرض عسْكره هناك ، و أنزله السلطانُ في خيمته ، و حمل له من التُّحف ، و قدّم له من اللطائف ما يليق بكرمه ، و أنزله في الميمنة .

وفي الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً . و اشتد مرض الانكتار بحيث شغل الإفرنج شدّته من الزحف ، و كان ذلك خِيَرةً عظيمة من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف مَنْ فيه ضعفاً عظيماً ، و ضاق بهم الخناق ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدارَ قامة الرجل .

هذا واللصوص يدخلون إلى خيامهم و يسرقون أقمشتهم و يأخذون الرجال في غفلة ، بأن يجيئوا إلى الواحد و هو نائم ، فيضعوا على حلْقه السكين ، و يوقظوه ، و يقولوا له بـالإشـارة إنْ تكلّمت ذبحناك ، ويحملوه و يخرجوا به إلى العسكر . وجرى ذلـك مـراراً و عساكر المسلمين تجتمع و تواتَرُ[1] من كل جانب، حتى تكاملَ وصولها .

﴿ذكر وصول رسولهم إلى السلطان﴾

كنتُ ذكرتُ وصولَ رسول منهم يلتمس من جـانب الانكتـار أن يجتمع بالسلطان عن ذلك ، و انقطع الرسول و عاد معاوداً في المعنـى، وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يُلقيه إلى السلطان ، و استقرّ أنه رأى أن يأذن له في الخروج ، و يكون الاجتماع في المرج و العساكر محيطة بهما ، و معهما ترجمان .

فلما أَذِنَ في ذلك تأخَّر الرسول أياماً عنـده بسـبب مرضـه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه و أنكروا عليه ذلـك، وقـالوا هـذه مخاطرة بدين النّصرانية .

ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لا تظنّ تأخُّري بسبب ما قيـل ، فإن زمام قيادي مفوَّض إليّ ، و أنا أحكم ولا يحكم عليّ ، غير أني فـي هذه الأيام اعترى مزاجي النياثُ منعني من الحركة ، فهذا كان العذر في التأخير ، لا غير ، و عادة الملوك إذا تقاربتْ منازلُهم أن يتهادَوا وعندي ما يصلح للسلطان ، وأنا أستخرج الإذن في إيصاله إليه .

(١)أصلها تتواتر ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .

فقال له الملك العادل : قد أذن له في ذلك ، بشرط قَبُول المجازاة على الهديّة . فرضي الرسول بذلك ، و قال : الهديّةُ شيءٌ من الجوارح قد جُلِبَ من وراء البحر ، و قد ضعف ، فيحسن أنْ يُحْمَلَ إلينا طير ودجاج حتى نطعمها لتقوىَ و نحملها . فداعبه الملك العادل ، و كان فقيهاً فيما يحدّثهم به . فقال الملك : قد احتاج إلى فراريج و دجاج ، ويريد أن يأخذَها منّا بهذه الحُجّة . ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على أنْ قال الرسولُ : ما الذي أردتم منا ؟ إنْ كان لكم حديثٌ فتحدّثوا به حتى نسمع . فقيل له عن ذلك : نحن ما طلبناكم ، أنتم طلبتمونا ، فإنْ كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع.

و انقطع حديث الرسالة إلي سادس جمادى الأخرى ، فخرج رسول الانكتار إلى السلطان ومعه إنسان مصري قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهداه إلى السلطان فقبله و أحسن إليه ، و أعاده مشرّفاً مكرماً إلى صاحبه . و كان غرضه بتكرار الرسائل تعرّف قوّة النفس وضعفها . و كان غرضنا بقبول الرسائل تعرّف ما عنده من ذلك أيضاً.

﴿ذكر قوة زحفهم على البلد و مضايقته﴾

و لم يزالوا يوالون على الأسوار بالمجانيق المتواصلة و الضرب، و تنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد و أضعفوا بنيانه ، و أنهك التعبُ و السهر أهلَ البلد ، لقلّة عددهم و كثرة الأعمال حتى إن جماعة منهم بقوا ليالي عدّة لا ينامون أصلاً لا ليلاً و لا نهاراً ، و الخلْقُ الذين

عليهم عددٌ كثير ، يتناوبون على قتالهم ، و هم نفر يسير قد تقسّموا على الأسوار و الخنادق و المنجنيقات و السفن .

و لما أحسّ العدوّ بذلك وظهر لهم تخلخل السور و تقلقل بنيانه شرعوا في الزَّحْف من كل جانب، و انقسموا أقساماً و تناوبوا فِرَقاً ، كلّما تَعِبَ قسم استراح و قام غيره مَقامه ، و شرعوا في ذلك شروعاً عظيماً براجلهم و فارسهم سابع الشهر . هذا مع عمارتهم أسوارَهم الدائرة على خنادقهم بالرَّجَّالة والمقاتلة ليلاً و نهاراً .

و لما علم السلطانُ ذلك بإخبار مَنْ يشاهده وإظهار العلامة التي بيننا و بينهم ، و هي دقّ الكؤوس ، ركب و ركب العسكر إليهم ، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، و هو كالوالدة الثّكْلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، و يحثّ الناس على الجهاد . و لقد بلغنا أنّ الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرّتين والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه ، و ينادي يا للإسلام و عيناه تذرفان بالدموع و كلما نظر إلى عكا و ما حلَّ بها من البلاء و ما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتدّ في الزحف و الحثّ على القتال .

و لم يَطْعَمْ[1] في ذلك اليوم طعاماً البتة ، و إنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب ، و تأخرتُ عن حضور هذا الزَّحْف لإلمام مرض شوّشَ مزاجي لمَّا عراني ، فكنت في الخيمة في تل العياضية و أنا أشاهدُ الجميع . و لما هَجم الليلُ عاد رحمه الله إلى الخيم

(١)يَطعَم (بفتح الياء و العَيْن) : يأكل .

بعد العشاء الآخرة ، و قد أخذ منه التعبُ و الكآبة و الحزن فنام لا عن عفو .

و لماّ كان سَحَرُ تلك الليلةِ أمر الكؤُوسَ أن دُقّت و ركب العسكرُ من كل جانب و أصبحوا على ما أمسَوا عليه ، و في ذلك اليوم وصلتْ مُطالعةٌ عن البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ منا العجزُ إلى غاية ما بعدها إلاّ التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر إنْ لم تعملوا معنا شيئاً نطلبِ الأمان و نسلّم البلد و نشتري مجرَّدَ رقابنا . و كان هذا أعظمَ خبر وَرَدَ على المسلمين ، و أنكى في قلوبهم[1]، فإنّ عكا كانت قد احتوتْ على جميع سلاح الساحل و القدس و دمشق و حلب و مصر و جميعِ البلاد الإسلامية ، و احتوت على كبارٍ من أمراء العسكر و شجعانِ الإسلام كسيف الدين المشطوب و بهاء الدين قراقوش و غيرهما ، و كان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدوُّ عليها ، و أصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله ، وخيف على مزاجه التشويش ، و هو لا يقطع ذكرَ الله و الرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، فرأى الدخولَ على القوم و مهاجمتهمَ ، فصاح في العساكر الصائحُ ، و ركبت الأبطال ، فاجتمع الراجل و الفارس ، واشتدّ الزحفُ و لم يساعدْه العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدوّ ، فإنّ رجّالته وقفوا كالسُّور المحكم البِنا بالسّلاح و الزُّنبورك والنُّشّاب من وراء أسوارهم ، و هَجَمَ عليهم بعضُ الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبُّوا غايةَ الذّبّ .

---

(١)أنكى : أصعب . يقال : نكَى العدوَّ إذا أوقع به و هزمه و غلبه و قهره .

و لقد حكى بعضُ منْ دَخَلَ عليهم أسوارهم أنّه كان هناك راجلٌ واحد إفرنجي صعد سور خندقهم و استدبر المسلمين ، و إلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة و هو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق و قال إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً و حجراً، و لا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذبّ و القتال حتى ضربه زرّاق مسلم بقارورة فأحرقه .

و لقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة منْ دخل ، قال: و كان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها مِلْوطة[1] خضراء ، فما زالتْ ترمينا بقوس مِنْ خشب حتى جرحتْ منا جماعة ، و تكاثرنا عليها، و قتلْناها ، و أخذْنا قوسَها و حملناها إلى السلطان ، فعجب من ذلك عجباً عظيماً ، و لم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل و الجرح حتى فصل بينهم الليلُ .

﴿ذكر ما آل إليه أمرُ البلد من الضَّعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد و الإفرنج﴾

و لما اشتدّ زحفهم على البلد و تكاثروا عليها مِنْ كل جانب ، وتناوب ضعفُ أهل البلد لمَا رأوْه مِنْ عين الهلاك ، و استشعروا العجز عن الدفع ، و تمكَّنَ العدوُّ من الخنادق فملكوها ، و تمكّنوا من سُور الباشورة ، فنقبوه و أشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ، ووقعت بدَنةٌ من

---

(١)ملوطة : نوع من الثياب .

الباشورة ودخل العدو الباشورة ، وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفرا وصاعدا ، وكان فيهم ستة من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم : لا تقتلوني حتى أرحل الإفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد ، فقتله وقتل الخمسة الأخرى ، وفي الغد نادى الإفرنج احفظا الستة ، فإنا نطلقكم كلكم بهم فقالوا : قد قتلناهم . فحزن الإفرنج لذلك حزنا عظيما، وطلبوا الزحف بعد ذلك أياما ثلاثة .

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيس بالأمان ، وقال له : قد أخذنا منكم بلادا عدة وكلنا نهجم البلد وندخل فيه ، ومع هذا إن سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا ، فأجابه بأن هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا وأنتم أيضا مماليكي وعبيدي ، فأرى فيكم رأيي .

وبلغَنا أنّ المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام ، منها أنا لانسلم البلد حتى نُقْتَلَ بأجمعِنا ، ولا يُقتل منا واحدٌ حتى يُقتل خمسون نفساً من كباركم ، وانصرف عنه .

ولما دخل المشطوبُ البلد بهذا الخبر خاف جماعةٌ ممّن كانوا في البلد فأخذوا بركوساً ، وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي ، منهم أرسل ، وابن الجاولي ، وسنقر الوشاقي ، فأما أرسل وسنقر فإنهما تغيّبا في العسكر ولم يعلم لهما مكانٌ خشيةً من نِقْمة السلطان . وأما ابنُ الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانة .

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان ، مشعراً أنه يواصل كبْسَ(١)

(١) كبس القوم : مهاجمتهم وتطويقهم .

القوم ، و معه المسَاحي[1] و آلاتُ طمِّ الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك ، و تخاذلوا عن ذلك ، و قالوا : نخاطر بالإسلام كلّه و لا مصلحةَ في ذلك .

وفي ذلك اليوم خرج من الانكتار رسلٌ ثلاثة طلبوا فاكهة و ثلجاً، و ذكروا أنّ مقدم الاسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصُّلْح ، غير أنّ السلطان أكرمهم و دخلوا سوق العسكر و تفرّجوا فيه و عادوا تلك الليلةَ إلى عسكرهم .

و في ذلك اليوم تقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو و أصحابه إلى أسوارهم ، و ترجَّل جماعة من أمراء الأكراد ، كالجناح ، و أصحابه ، و هو أخو المشطوب ، و زحفوا حتى وصلوا أسوار الإفرنج ، و نصب قايماز بنفسه علَمه على سُورهم ، و قاتل عن العلمَ قطعةً من النهار ، ووصل في ذلك اليوم عزُّ الدين جرديك النُّوري و سوقُ الزحف قائم ، فترجّل هو و جماعته و قاتَلَ قتالاً شديداً ، واجتهد الناسُ اجتهاداً عظيماً .

و في العاشر أصبح القومُ ساكتين عن الزحف و العساكر الإسلامية مُحْدِقَةٌ بهم، وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح، راكبي ظهور خيلهم منتظرين ، عسى أن تمكنهم مساعدةُ إخوانهم المقيمين بعكّا ويهجموا على طرف من الإفرنج فيكسروهم ، و يخرجوا يحمي بعضهم بعضاً ، ويخرج العسكر يجاوبهم من هذا الجانب ، فيسلم مَنْ يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدورا على الخروج ، و كان قد ثبت ذلك معهم فلم يتهيّأْ لهم

---

(١)المساحي : جمع المسحاة ، و هي المجرفة .

في تلك الليلة خروجٌ بسبب أنه كان هرب منهم بعضُ الغلمان ، فـأخبروا العدوّ بذلك ، فاحتاطوا بهم و حرسوهم حراسةَ عظيمة[١] .

و لما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسلٌ ثلاثة و اجتمعـوا بالملك[٢] ، و تحادثوا معه ساعة زمانية ، و عادوا و لم ينفصل الحـال ، و انقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدوّ ، و بـاتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنجُ بأَسْرِها لباس الحرب، و تحرّكوا حركةً عظيمة بحيث إنّهم اعتقـدوا ربّما كـان مصـافّ ، واصطفّوا ، و خرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعيـن نفسـاً ، و استدعوا جماعةً من المماليك ، و طلبوا منـهم "العـدل الزيدانـي" ، وذكروا أنه صاحب صيدا طليق السلطان ، فحضر العدل وجرى مبـادي أحاديثَ في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا، و اشتطّوا في ذلك اشـتطاطاً عظيماً ، و تصرَّم نهارُ السبت و لم ينفصلْ حال .

﴿ذكر كتبٍ وَصَلَتْ من البلد﴾

و لما كان يوم الأحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها: إنّا قـد تبايعنا على الموت ، و لم نزل نقاتل حتى نقتل و لا نسلّم هذا البلد ونحن

(١)كان المسلمون في عكا محاصرين، كان يحاصرهم الإفرنج،وكان جيش صلاح الدين كالمطوّق للإفرنج، فأراد بعض قادته فتح ثغرة في صف العدوّ، للوصول إلى أسـوار عكـا، و اقتحامـها، وعندئذ يخرج أهلها إلى البرّ الصّلاحي، إنْ سلم من القتل، لأن الإفرنج سـيحاولون منعـهم فـي الطريق، لكنْ يسلمُ مَنْ يسلم، و يُقتل من يقتل .هكذا كانت الخطّة، لكنّ بعـض الغلمـان الخونـة أفشَوْها إلى العدوّ، فاحتاط، فلم تنجح.

(٢)الملك : الملك الناصر و هو صلاح الدين الأيوبي رحمه الله .

أحياء ، فانظروا أنتم كيف تعملون في شَغْلِ العدوّ عنا و دفعه عن قتالنا ؟ فهذه عزائمنا ، و إيّاكم أن تخضعوا لهذا العدوّ ، و تَلينوا لهم ، فإنا نحن قد فات أمرُنا و ذكر العوّامُ الواصل بهذه الكتب أنّه لما وقع بالليل الصوتُ ظنّ الإفرنج أن عسكراً عظيماً عبَر إلى عكا وسَلِمَ ، و صارَ فيها ، قال : و جاء إنسانٌ إفرنجي فوقف تحت السور و صاح إلى بعض مَنْ على السورِ ، و قال له : بحق دينك إلاّ ما أخبرتني : كم عددُ العسكر الذي دخل إليكم البارحة ؟ يعني ليلةَ السبت ، و كان قد وقع بالليل صوتٌ و انزعج الطائفتان ، و لم يكن له حقيبة[١] . فقال له : ألف فارس . فقال: لا ، لكنّه دون ذلك ، أنا رأيتهم لابسين ثياباً خضراً .

ثم تتابعت العساكرُ الإسلامية ، و اندفع كيدُ العدوّ عن القوم في تلك الأيام بعد أن كان قد أشرف البلدُ على الأخذ[٢] . و في يوم الخميس سادس عشر[٣] وصل أسدُ الدين شيركوه ، و اشتدّ ضعف البلد ، و كثرت ثُغَرُ سُوْرِهِ و جاهد المقيمون فيه ، و بنوا عوض الثَّلْم سُوراً من داخلها ، حتى إذا تمّ بناؤه اقتتلوا عليه . و اشتدَّ ثباتُ الإفرنج على أنهم لا يُصالِحوُن و لا يُعْطُون الذين في البلد أماناً حتى يُطْلَقَ جميعُ الأُسارى الذين في أيدي المسلمين و تُعادَ البلادُ الساحلية إليهم ، و بُذِلَ لهم تسليمُ البلد و مافيه دون مَنْ فيه . فلم يفعلوا . و بُذِلَ لهم أيضاً مع ذلك صليبُ الصلبوت ، فلم يفعلوا ، و اشتد عتوُّهم و استفحلَ أمرُهم ، و ضاقت الحِيَلُ عنهم ، و مكروا و الله خير الماكرين .

---

(١)لعل الصحيح : و لم يكنْ له حقيقة . (٢) أي بعد أن أوشك العدو أن يأخذ البلد ويسيطر عليه.

(٣)يوم الخميس ٥٨٧/٦/١٦هـ ، قبل يوم واحد من سقوط عكا بيد الإفرنج .

﴿ذكر مصالحة أهل البلد و مصانعتهم على نفوسهم﴾

و لما كان يومُ الجمعة سابع عشر جُمادى الآخرة خرج العوامّ من الثغر ، و نَطَقَتِ الكتبُ عنهم أنّ أهل البلد ضاق بهم الأمر ، و كثرت الصعوبات ، و عجزوا عن الحفظ و الدفع ، و رأَوْا عيْنَ الهلاك ، وتيقّنوا أنه متى أُخِذت البلدةُ عَنوةً ضُرِبت أعناقُهم عن آخرهم ، و أُخذ جميعُ ما فيه من العُدَدِ و الأسلحة و المراكب و غير ذلك ، فصالحوهم على أنهم يُسلمون إليهم البلد و جميع ما فيه من الآلات والعُدَدِ والمراكب، و مئتي ألفِ دينار ، و ألف و خمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينّين من جانبهم يختارون ، و صليب الصلبوت ، ويخرجون بأنفسهم سالمين ، و ما معهم من الأقمشة المختصّة بهم وذراريّهم و نسائهم ، و ضمنوا للمركيس عشرةَ آلاف دينار ، لأنه كان واسطة ، و لأصحابه أربعة آلاف دينار . و استقرّت القاعدةُ على ذلك .

﴿ذكر استيلاء العدوّ على عكا﴾

و لما وقف السّلطانُ على كتبهم و على مضمونها أنكرَ ذلك إنكاراً عظيماً ، و عظُم عليه هذا الأمر ، و جمع أرباب المشورة و شاورهم فيما يصنع ، و اضطربَ الأمراءُ ، و تقسَّم فكره ، و تشوّش، و عزم على أن يكتب في الليلة مع العوامّ ، و ينكر عليهم المصالحةَ على هذا الوجه ، و هو في مثل هذا الحال .

فما أحسّ المسلمون إلاّ و قد ارتفعتْ أعـلام الكفـر و صُلبانـه وشعاره و ناره على أسوار البلد ، و ذلك في ظهر نهار الجمعـة سـابع عشر جمادى الأخرى سنة سبع و ثمانين وخمسمائة ، و صاح الإفرنـج صيحةً واحدة ، و عظمت المصيبةُ علـى المسـلمين ، و اشـتد حـزنُ الموحِّدين ، و انحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة (إنا لله و إنا إليه راجعون)[1] و غشيَ الناس بغتةٌ عظيمة وحَيرة شـديدة ، ووقـع فـي العسكر الصياحُ و العويل و البكاء و النحيبُ ، و كان لكل قلب حظٌّ فـي ذلك قَدْرَ إيمانه ، و لكل إنسان نصيبٌ من هذا الخطب على مقدار ديانتـه و نخوتِه .

و انقشعتِ الحالُ على أنّه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبيـن الإفرنج على ذلك الحال المتقدّم . وإن المركيس دخل البلدَ و معه أعـلامُ الملوك ، فنصَبَ عَلماً على القلعة ، و علماً على مئذنة الجامع فـي يـوم الجمعة ، و عَلَماً على بُرْج القتال عِوضاً عن علـم الإسـلام ، و حِـيزَ المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الإسلام المشـاهدين لذلك الحال ما كثر التعجُّب من الحياة معه .

و مثلْتُ في خدمة السلطان وهو أشدُّ حالة من الوالـدة الثكلـى ، وموِلَّهةِ الحِرار[2] ، فسلّيته بما تيسر من التسلية ، و أذكرْتُه في الفكر فيما

---

(١)البقرة ١٥٦ .

(٢) المولّهة : الشديدة الحُزْنِ و الجزَعِ على ولدها، و الحرار : جمع حرَّة، و هـي الأرض ذات الحجارة النخرة السُّود. و الحرار أيضاً: جمع حُرّ، و هو ذكر القَماري(ساق حرّ)، والصقر، يشبه الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله عندما استولى العدوّ على عكّا بطائر افتقد أولاده فهو حزين جَزِعٌ أو بناقة أصيبت بفقد ولدها في حرَّة ، فهي جزِعة حزينة عليه .

يستقبله من الأمر ، في معنى البلاد الساحلية و القدس الشريف وكيفية الحال في ذلك ، و إعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، و ذلك في ليلة السبت الثامنَ عشر .

و انفصل الحال على أنّ رأي التأخير عن تلك المنازلة مصلحة ، فإنه لم يبق في المضايقة معنًى ، فتقدَّم ينقلُ الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم ، و أقام هو جريدة في مكانه ، لينظر ماذا يكون من أمر العدوّ و حالِ أهل البلد ، و أقام هو راضياً راجياً من الله تعالى أنه ربما حملَهم غرورُهم بالخروج إليه و الهجوم عليه فينال منهم غرضاً و يلقي نفَسه عليهم ، و يعطي الله النصرَ لمن شاء . فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك ، و اشتغلوا بالاستيلاء على البلد و التمكّن منه ، فأقام إلى بكرة التاسعَ عشَر من الشهر ، وانتقل إلى الثقل .

و في ذلك اليوم خرج منهم ثلاثةُ نفر مع الحاجب "قوس" صاحبِ بهاء الدين قراقوش ، و كان رجلاً عاقلاً مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال و الأسرى فأقاموا ليلة مكَرمين ، و ساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى في الحادي و العشرين ، و أنفذ السلطان رسولاً إلى الفرنج يسألهم : كيف جرتِ الحالُ و يستعلم كم مُدَّةُ تحصيل ما وقعت عليه المصالحةُ و استقرَّتْ عليه المهادنة ؟

﴿ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك﴾

و لما كان سلخ الشهر خرج الإفرنج من جانب البحر شِمالّيَّ البلد، و انتشروا انتشاراً عظيماً ، راجلُهم و فارسهُم ، و ضربوا أطلاباً للقتال ،

فأخبرَ اليزكُ بذلك السلطان ، فدقّ الكؤوس ، و ركــــب ، و أنفــذَ إلـــى اليزك، و قوّاه برجال كثيرة ، و توقّف ، حتى ركبت العساكر الإســلامية و اجتمعوا ، فوقع بين اليزك و بين العدوّ وقعة عظيمة و قتال شديد قبــل اتصال العساكر باليزك ، و كان اليزك قد قوي بما أنفذ إليـــه ، فحملــوا على العدوّ حملة عظيمة فانكسر العدوُّ من بين أيديهم و انهزمت الخَيَّالة ، و سلمت الرّجّالة ، و ظنوا أن وراء اليزك كميناً ، فارتدُّوا نحو خيامهم ، ووقع اليزكُ في الرّجّالة فقُتل منهم زُهاء[1] خمسين نفراً ، و لــــم يــزل السيفُ يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقَهم .

و في ذلك اليوم وصل الإفرنج الذين ساروا إلى دمشق ليتفقّـــدوا حال أسراهم ، ووصل معهم من مميّزِي أسراهم أربعةُ نفر ، ووصل في عشيّته أيضاً رسلُ السلطان في تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا و لم تزل الرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب .

خروج ابن باريك

و في ذلكَ اليوم خرَج حُسامُ الدين حسينُ بن بــــاريك المــهراني ومعه اثنان من أصحاب الانكتار ، فأخبر أنّ الملك افرنسيس سار إلـــى صُور و ذكروا في تحرير أمر الأسارى ، و طلبوا أن يشاهدوا صليـــب الصَّلَبُوت ، و أنه في العسكر أو حمل إلى بغداد[2] ، فـــأحضر صليـــبُ الصَّلَبُوت ، و شاهدوه و عظموه و رمـــوا نفوسهم إلى الأرض و مرّغوا

(١)زهاء : مقدار ، ما يقرب من . (٢) أرادوا أن يعلموا أين هذا الصليب : أهـــو فـــي عسكر صلاح الدين حقيقة أم ليس فيه و إنّما حُمل إلى بغداد .

وجوههم على التراب ، و خضعوا خضوعاً عظيماً لم يُرَ مثلُه ، و ذكروا أنّ الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ما وقع عليه القرار تروماً ثلاثة ، كلّ شهر ترمٌ[1] ، ثم أرسل السلطان رسولاً إلى الفرنسيس سار إليه إلى صور بهدايا سنيّة و طِيب كثير و ثياب جميلة .

و في صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته و خواصّه إلى تلّ مُلاصِقٍ لِشَفْرعم[2] ، و نزلت العساكرُ في منازلها على حالهم قريباً من منزلته الأولى ، ليس بينهما إلا الوادي ، و لم تزل الرسلُ تتواترُ في تحرير القاعدة و تنجيزها ، حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسرى و المال المختصّ بذلك الترم ، و هو الصليبُ ومائةُ ألف دينار و ستمائة أسيرٍ ، و أنفذوا ثقاتهم و شاهدوا الجميعَ ماعدا الأسارى المعيّنين من جانبهم ، فإنّهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا و لم يزالوا يطاولون و يقصّرون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجبٍ ، ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك ، فقال لهم السلطان : إمّا أنْ تُنفذوا إلينا أصحابنا و تستلموا الذي عُيّن لكم من هذا الترم و نُعطيكم رهائنَ على الباقي تصل إليكم في ترومكم الباقية ، وإمّا أن تُعطونا رهائن على ما نسلّم إليكم إلى أن يخرج إلينا أصحابُنا .

فقالوا: لا نفعل شيئاً من ذلك ، بل تسلّمون إلينا ما يقتضيه هذا

---

(1)ترم : قسم ، مرحلة (غير فصيحة) .

(2)قال ياقوت : " شَفْرَعَمّ : بفتح أوّله ، و سكون ثانيه ، و فتح الراء ، ثم عين مهملة مفتوحة ، و ميم مشدّدة : قرية كبيرة بينها و بين عكّا بساحل الشّام ثلاثة أميال ، بها كان منزل صلاح الدين يوسف بن أيوب على عكا سنة ٥٨٦ لمحاربة الفرنج الذين نزلوا على عكا و حاصروها " [معجم البلدان ٣/٣٥٣] منزل : نزول .

الترم ، وتقنعون بأيماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم . فأبى السلطان ذلـــك لعلمه أنهم إنْ تسلّموا المال و الصليب و الأسرى ، و أصحابُنا عندهـم ، لا يُؤمَن غَدْرُهم ، و يكون وهْنُ الإسلام عند ذلك وهْناً عظيمـاً لا يكـاد ينجبر .

﴿ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله﴾

و لما رأى الانكتار الملعونُ توقُّفَ السلطان ببذل المال و الأسـرى و الصليب غَدَرَ بأسرى المسلمين ، و كان قد صالحهم و تسلّم البلدَ منهم، على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال ، و أنه إنْ دفع السلطانُ إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم و نسائهم ، و إن امتنع من ذلك ضـــرب عليهم الرقّ و أخذهم أسرى فغدرهم الملعون ، و أظهر ما كان أبطـن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال و الأسرى ، على ما أخبر به عنـه أهل ملّته فيما بعد .

و ركب هو و جميع العســكر الإفرنجيـة راجلـهم وفارسـهم والتراكيل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع و العشرين من رجب، و ساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية و قدموا خيامهم إليـها وساروا حتى توسّطوا المرج بين تل كيســان و بيـن العياضيـة ، ثـم أحضروا من أسارى المسلمين مَنْ كَتَبَ الله شهادته في ذلك اليوم و كانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال و حملوا عليهم حملة الرجل الـواحد فقتلوهم

ضربا و طعنا بالسيف[١]، و اليزك الإسلامي يشاهدون و لا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، و كان اليزك قد أنفذ إلى السلطان و أعلموه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه .

و بعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، و جرت بينهم حرب قتل فيها و جرح من الجانبين ، و دام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين، و أصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم فغشي المسلمين من ذلك حزن عظيم و كآبة شديدة ، و لم يبقوا إلا رجلا معروفا مقداما أو قوي يد لعمائرهم .

(١)هكذا صنع الصليبيون بأسرى المسلمين في عكا ،ناكثين بالمواثيق المتفق عليها بين الطرفين، أما صلاح الدين فقط أطلق سراح الأسرى الصليبيين بعد حطين وبعد تحرير بيت المقدس،وبعد تحرير حصون شقيف وصفد وهونين،وكان يطلقهم من دون سالف ميثاق بين الطرفين.وخلال محاصرة صلاح الدين لبيت المقدس كان قد وقع بين أسراه الأمير الصليبي باليان،فسأل هذا الأمير أن يؤذن له في دخول المدينة ليستصحب أهله،وأقسم على أنه سيعود ،فأذن له السلطان صلاح الدين ،فإذا بباليان يتزعم قيادة المقاومة المسلحة في المدينة ضد السلطان صلاح الدين . وبعد أيام اقتحم الجيش الصلاحي المدينة (بيت المقدس)فأسرع إليه باليان يطلب الصلح بذلة وصغار،فقبل السلطان عقد الصلح،مع أنه كان قد فرغ من فتح المدينة،وأذن لأجناد الصليبيين أن يغادروها حيثما شاؤوا.وخرج بطريرك الصليبيين من القدس وهو يحمل أثقالا ضخمة من الجواهر و الأموال،وتركه السلطان يخرج بها،وما جاءت امرأة ولا عجوز إلى صلاح الدين يسأله الإفراج عن ولده أو قريبه إلا أجابه ،وأكرمه. وفي حصار يافا فقد ريكاردوس ملك انكلترا،و كان أحد كبار القادة الصليبيين،فقد جواده،وكاد يقع هو نفسه في الأسر،فأرسل إليه صلاح الدين جوادا يركبه، ليقاتل السلطان من فوق ظهره !

وذكر لقتلهم أسباب منها أنهم قتلوهم في مقابلة مَنْ قُتِلَ منهم ، و قيـل إنّ الانكتار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يخلف تلك العدّة في البلد وراءه و الله أعلم .

﴿ذكر مسير العدوّ إلى عسقلاّن و انتقاله إلى طرف البحر من جانب الغرب﴾

و لما كان التاسع و العشرون من رجب رَكِبَ الإفرنج بأسْـرِهم[١] و قلعوا خيامهم و حملوها على دوابّهمّ ، و ساروا حتى قطعوا النهر إلـى الجانب الغربي ، و ضربوا الخيام على طريق عسـقلاّن ، و أظـهروا العزم على المسير على شاطئ البحر ، و أمر الانكتار بـاقيَ النـاسِ أنْ يَدْخلوا إلى البلد ، و كانوا قد سدوا ثُغَرَهُ و ثُلَمَهُ ، و أصلحوا مـا انـهدم منه، و كان مقدَّمَ العسكر الخارج السائر الانكتارُ ، و جـمعٌ عظيمٌ مـن الرّجّالة و الخَيَّالة

و لما كان مستهلّ شعبان اشتعلت نيرانُ العدوّ في سَحَرِ ذاك اليوم، و عادتُهم أنّهم إذا أرادوا الرحيلَ أشـعلوا نيرانَـهم ، وأخـبر الـيزكُ بحركتهم، فأمر السلطان الثِّقْل أن يرفع حتى يبقىَ الناس علـى ظـهر ، ففعل الناس ذلك ، و هلك من الناس قماشٌ كثيرٌ و حوائـجُ كثـيرة مـن السوقة لم تكن معهم خيل ولا ظهر يحملُ جميعَ مـا عندهم ، لأنّ كـل

---

(١)ركبوا بأسرهم : جميعهم .

إنسان كان يحصل ما يحتاج إليه في أشهر ، و كلّ واحد من السوقة عندَه ما ينفذ مَن منزل إلى منزل في مِرارٍ متعدّدة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلّف فيه أحدٌ لقربه من الإفرنج الذين بعكا والخوف منهم .

و لمّا أنْ علا النهارُ شرع العدوُّ في السير على جانب البحر وتفرّقوا قطعاً كثيرةً ، كلُّ قطعة تحمي عن نفسها ، و قوّى السلطانُ اليزكَ ، وأنفذ معظم العساكر قُبالتَهم ، فمضَوا و قاتلوهم قتالا شديداً ، وأنفذ ولده الملك الأفضل يخبر أنّه قطع طائفة منهم عن الموافقة ، و لقد نازلناهم بالقتال ، ولو قوينا لأخذناهم ، فسيَّرَ السلطانُ خلقاً عظيماً من العسكر و سار هو بنفسه و أنا في خدمته حتى أتَى أوائلَ الرمل ، فلَقِيَنا الملكُ العادلُ ، فأخبرَ أخاه أن تلك الطائفةَ قد التجأت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم عبروا نهر حيفا و قد نزلوا ، و الباقون قد لحقوا بهم ، وليس للمسير وراءهم حاصل إلاّ إتعاب العسكر و ضياع النُّشَّاب لا غير ، فتراجَعَ السلطان عن القوم لمَّا تحقق ذلك ، و أمر طائفةً من العسكر أن تسير وراء الثقل ، تُلحق ضعيفَهم بقويهم ، و تكفّ عنهم مَنْ يلحق بهم من العدوّ و الطّمّاعة ، و سار هو حتى وصل إلى القيمون[1] عصرَ ذلك النهار ، فنزل ، و ضرب له الدهليز و شقّة دائرة حولَه لا غير ، واستحضر الجماعة فأكلوا شيئاً و استشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني : اتفق رأي جماعة على أنهم يرحلون بكرة غد . هذا و قد رتب حول الإفرنج يزكاً يبيتون حوله يرقبون أمره . و لما كان صَباحُ ثاني شعبان رحّل السلطانُ الثقل ، و أقام هو يترصَّدُ أخبار العدوّ

(١)القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين .

فلم يصل منهم شيء إلى أن علا النهار ، فسار في أثر الثقل حتى أتى قريةً يقال لها الصباغين ، فجلس ساعة يترقّب أخبار العدوّ ، وكان قد خلف جرديك قريبَ العدوّ ، و تعقّب خلق عظيم باتوا قريبَ العدو ، فلم يصله خبر أصلاً ، فسار حتى أتى الثقل في منزلة يقال لها عيون الأوساد، و لما بلغنا المنزل رأى خياماً فسأل عنها فقيل إنها خيام الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمته .

و فُقِد الخبزُ في هذه المنزلة بالكُلّيّة ، و غلا الشعير حتى بلغ درهماً ، و بلغ رطل البقسماط[1] درهمين .

ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر ، و ركب و سار إلى موضع يسمى الملاّحة ، يكون منزلاً للعدو إذا رحلوا من حيفا، وكان قد سبق ليتفقّدَ المكان : هل يصلح للمصاف أم لا ؟ ويتفقّد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشعرا ، و عاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة ، و قد أخذ منه التعب ، و سألته عمّا بلغه من خبر العدو فقال : وصل إلينا مَنْ أخبرنا أنه ما رحل من حيفا إلى عصر يومنا هذا، يعني ثاني شعبان، و ها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ، و يكون العمل بمقتضاها .

وبات تلك الليلة و أصبح مقيماً بتل الزلزلة ، ينتظر العدوّ، ونادى الجاويش بالعسكر للعرْض ، فركب الناس على ترتيب المصافّ وأهبته . و لما علا النهار نزل السلطانُ في خيمته ، و أخذ نصيباً من الراحة بعد الغداء ، و مثولِ جماعة من الأمراء إلى خدمته وأَخْذِ رأيهم

(١) البَقْسُماط (بضمّ الباء و السين ، وتسكين القاف بينهما): اسم لنوع من الخبز ، يخبز ويُجفّف، ويُسَمّى في المغرب (بَشْماط) .

فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر و جلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة و خمسين ديناراً ، وزائد و ناقص ، فما رأيت أفسح صدراً منه ، و لا أبسط وجهاً في العطاء ، و اتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يافا .

المنزل الثالث : و أقام هو جريدة بالمنزل إلى الصباح رابع الشهر، و ركب و سار في رأس النهر الجاري إلى قيسارية و نزل هناك و بلغ رطل البُقْسُماط أربعة دراهم ، و ربع الشعير درهميْن و نصفاً والخبز لم يوجدْ أصلاً ، و نزل في خيمة و أكل خبزاً ، و صلَّى الظهر وركب إلى طريق العدو لتجديد إرشاده في ضرب المصافّ ، ولم يعد إلى أن دخل وقتُ العصر فجلس ساعة و أخذ جُزْءاً من الراحة ، ثم عاد و ركب ، و أمر الناس بالرحيل ، و رمى خيمته ، و رمى الناس خيامهم في أواخر النّهار .

المنزل الرابع : و كان الرحيلُ إلى رابية متأخّرة عن تلك الرابية، وفي ذلك المنزل أُتِيَ باثنين من الإفرنج قد تخطّفهم اليزك ، فأمر بضرب رقابهما ، فقُتِلا ، و تكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفّياً ، ثم بات هناك وأصبح مقيماً بالمنزلة ، لأنه لم يصحّ عن العدوّ رحيلٌ ، و أنفذ إلى الثقل حتى يعودَ إليه في تلك الليلة ممّا طرأ على الناس من الضّيق في المآكل و القضم ، و ركبَ في وقت عادته إلى جهة العدوّ ، و أشرفَ على قيسرية ، و عاد إلى الثّقل قريبَ الظهر ، و قد وصل الخبرُ أنّ العدوَّ لم

يرحل بعدُ من الملاحة ، و أُحضر عنده اثنان أيضاً قد أُخِذا من أطراف العدوّ فقُتِلا شرّ قِتْلة ، و كان في حدة الضيقة لما جرى على أسرى عكا .

ثم أخذ جزءاً من الراحة ، و جلس بعد صلاة الظهر ، وحضرتُ عنده ، و قد أُحضر بين يديه من العدو فارسٌ مذكورٌ ، هيئتُه تُخبر عن أنه متقدِّم فيهم ، فأَحْضَرَ ترجماناً ، و بحث عن أحوال القوم ، و سأله كيف يُسَوَّى الطعامُ عندكم ؟ فقال : أوّل يومٍ رحلْنا من عكا كان الإنسان يشبع بستة قراطيس ، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس ، وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل . فقال : لانتظار وصول المراكب بالرجال والمِيرة . فسأل عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم . فقال : كثير . فسأل عن الخيل التي هَلكتْ في ذلك اليوم . فقال : مقدار أربعمائة فرس.

فأمر بضرب عنقه و نَهَى عن التمثيل به . فسأل الترجمانَ عما قال السلطان ؟ فأخبره بما قال ، فتغيّر تغيراً عظيماً ، و قال : أنا أخلّص لكم أسيراً من عكا . فقال رحمه الله بل أميراً . فقال : لا أقدر على خلاص أمير ، فشفع الطمعُ فيه و حسنُ خلقِه ، فإني ما رأيتُ أتمَّ خلقاً منه مع ترف في الأطراف و رفاهية . فأمر أن يترك الآنَ و يؤَخَّر أمرُه، فصفّده و عاتبه على ما بدا منهم من الغدر و قتل الأسرى فاعترف بأنه قبيحٌ ، و أنه لم يَجْرِ إلاّ برضا الملِك وحدَه .

و ركب السلطانُ بعد صلاة العصر على عادته ، و بعد أن نزل أمَرَ بقتل الفارس المذكور ، و أُتي بعدَه باثنين ، فأمر بقتلهما ، و بات في ذلك المنزل المذكور . و ذُكر له في السحر أنّ العدوَّ قد تحرّك نحو

قيسارية ، و قارب أوائلُهم البلد ، فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلاً آخر .

المنزل الخامس : فرحل ورحل الناسُ إلى قريب التّلّ الذي كنّا عليه ، فنزل الناس ، و ضُرِبت الخيامُ ، و مضى هو يرتادُ الأراضي الكائنةَ في طريق العدوّ ، لينظر أيُّها أصلحُ للمصاف ؟ و نزل قريب الظهر ، و استدعى أخاه الملكَ العادل ، و علم الدين سليمان ، و أخذ رأيهما فيما يصنع ، و أخذ جزءاً من الراحة ، و أُذّن للظّهر ، فصلّى ، و ركب ليشرف و ليكشف عن العدو ، و يتنسم أخباره ، و أتاه اثنان من الإفرنج قد نهبا فأمر بقتلهما . فقتلا . ثم أُتي باثنين آخرين فقُتِلا أيضاً . وجِيء في أواخر النهار باثنين فقُتِلا أيضاً .

و عاد من الركوب و صلّى صلاة المغرب و جلس على عادته ، و استدعى أخاه و صرفَ الناسَ ، و خلا به إلى هزيع من الليل ، ثم بات، و أصبح ، و نادَى الجاويش لعرض الحلقة لا غير .

و ركب إلى جهة العدو ، ووقف على تلولٍ مشرفةٍ على قَيْسارية، وكان العدوُّ قد وصل إليها نهارَ الجمعة سادسَ شعبان ، و لم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ثم نزل و أكل الطعام و ركب إلى أخيه ، و عاد بعد صلاة الظهر ، و أخذ جزءاً من الراحة ، وجلس و أُتي بأربعةَ عشرَ من الإفرنج و امرأة إفرنجية بينهم أسيرة ، وهي بنتُ الفارسِ المذكور ، ومعها أسيرةٌ مسلمة قد أخذتْها ، فأُطلقت المسلمة ، و رُفع الباقون إلى الزردخانة . و هؤلاءِ أُتي بهم من بيروت أخذوا في مركب من جملة عُدَّةٍ

كثيرة ، فقُتلوا ، كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر ، و هو في المنزلة ينتظر رحيلَ العدوّ مجمعاً على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس : و لما كان صبيحة الثامن ركب السلطانُ على عادته ، ثم نزل ، ووصله من أخيه أنّ العدوّ على حركة ، و كانت الأطلابُ قد باتتْ حولَ قيساريّة في مواضعها ، فأمر بمدّ الطعام ، وأطعمَ الناسَ ، فوصل ثانٍ ، و أخبر أن القوم قد ساروا فأمرَ بالكؤوس فدُقّتْ ، و ركب وركب الناسُ ، و سار و سرتُ في خدمته حتى أتى العدوَّ، وصفّ الأطلاب حوله و أمرهم بقتالهم ، و أخرج الجاليش ، فكان النُّشّاب بينهم كالمطر .

و كان عسكر العدو قد رتّب ، فكانت الرّجّالة حوله كالسُّور ، وعليهم اللُّبود الثخينة ، و الزرديات[1] السابغة المحكمة، بحيث يقع فيهم النشاب و لا يتأخرون ، و هم يرموننا بالزنبورك ، فيجرح خيل المسلمين و خيّالتهم ، و لقد شاهدتهم و يتعرّز في ظهر الواحد منهم الواحدُ والعشرة ، و هو يسير على هيئته من غير انزعاج.

وثمَّ قسم آخر من الرجالة مستريحٌ يمشون على جانب البحر و لا قتال عليهم ، فإذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مَقامهم المستريحُ ، و استراح القسم المقاتل .

هذا و الخيّالةُ في وسطهم لا يخرجون عن الرّجّالة إلا في وقت الحملة لا غير ، و قد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام: القسم الأول : الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدّمة .والانكتار والفرنسيس معه في الوسط .

---

(١)الزّرديّات : الدروع .

و أولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة ، و في وسط القوم برجٌ على عَجلة على ما وصفتُه من قبل أيضاً كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدتُه وأخبر به مَنْ خرج منهم من الأسرى و المستأمنين ، و ساروا على هذا المثال و سُوقُ الحرب قائمة ، و المسلمون يَرْمونهم بالنُّشّاب من جوانبهم و يحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا ، و هم يحفظون نفوسهم حفظاً عظيماً ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، و يسيرون سيراً رقيقاً و مراكبُهم تسيرُ في مقابلتهم في البحر إلى أنْ أتَوا منازلهم ، وكانت منازلُهم قريبةً لأجل الرّجّالة ، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمَهم لقلّة الظَّهر عندهم . فانظرْ إلى صبر هؤلاءِ القوم على الأعمال الشاقّة عن غير دين و لا نفع ، و كان منزلهم قاطع نهر قيسارية يسَّر الله فتحها .

المنزل السابع : و لما كانت صبيحةُ التاسع[1] وصل مَنْ أخبر أنّ العدو قد ركب سائراً ، فركب السّلْطانُ أوّل الصّبْح و طلب الأطلابَ، وأخرج مِنْ كل جانب جاليشاً ، فسار يطلب القوم فأتاهم و هم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، و طاف الجاليشُ حولَهم من كل جانب ورمَوْهم بالنُّشّاب ، و هم سائرون ثلاثةَ أقسام على المثال الذي حكَيْته[2]، وكلّما ضعف قسم عاونه الذي يليه و هم يحفظ بعضهم بعضاً ، والمسلمون

---

(١)التاسع من شعبان عام ٥٨٧هـ . و كان يوم الاثنين . (٢)القسم الأول يتألف من الملك و معه جماعة ، و كانوا يشكّلون المقدمة . القسم الثاني و هو القلب أو الوسط ، و فيه الانكتار والفرنسيس . القسم الثالث و هو قسم المؤخِّرة أو السَّاقة ، وكان فيه أصحاب طبرية .

مُحْدِقون بهم من ثلاثة جوانب و القتال بينهم شديد ، والسلطان يقرّب الأطلاب و رأيتُه و هو يسير بنفسه بين الجاليش ، ونُشّاب القوم يجاوزُه، و ليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ، و هو يسير من طلب إلى طلب يحثّهم على التقدّم و يأمرهم بمضايقة القوم و مقاتلتهم ، و الكؤوسُ تخفق و البوقات تنعر ، و الصياح بالتهليل و التكبير يعلو .

هذا و القوم على أتمّ ثبات على ترتيبهم لا يتغيّرون و لا ينزعجون ، و جرت حالاتٌ كثيرة و رَجّالتهم تجرح المسلمين و خيولهم بالزنبورك و النشاب ، و لم نَزلْ حواليهم نقاتلُهم و نحملُ عليهم ، و هم يكرّون بين أيدينا ويفرّون إلى أن أتوا نهراً يقال له نهر القصب ، ونزلوا عليه و قد قامت الظهيرة، وضربوا خيامهم و تراجع الناسُ عنهم ، فإنّهم كانوا إذا نزلوا أيسَ الناسُ منهم و رجعوا عن قتالهم ، و في ذلك اليوم قُتِلَ من فُرسان الإسلام شجاعٌ اسمُه أَياز الطويل ، من بعض مماليك السلطان[1]، و كان قد فتك فيهم و قَتَلَ خَلْقاً من خَيّالتهم و شُجْعانهم ، وكانت قد فاضَتْ شجاعتُه بين العسكرين بحيث إنه جرت له وقعاتٌ كثيرة صدّقت أخبارَ الأوائل ، وصار بحيث إذا عرَفه الإفرنج في موضع يخافونه ، تَقَنطرت به فرسُه و استُشْهد ، و حزنَ المسلمون عليه حزناً عظيماً ، و دُفِنَ على تلٍّ مُشرِف على البِرْكة ، و نزل السلطان بالثقل على البركة و هي موضع يجتمع فيه مياهٌ كثيرة ، و أقام في تلك المنزلة إلى ما بعد صلاة العصر ، و أطعم الناسَ خُبزاً ، و استراحوا ساعة ثم رحل و أتى نهر القصب و نزل عليه أيضاً فشرب منه قليلاً

(١)أياز : كان من مماليك صلاح الدين ، و معنى اسم أياز : نسيم الصَّباح ، أو ندى الصّباح .

من أعلاه ، و العدوُّ يشربُ من أسفله ، ليس بيننا إلا مسافةٌ يسيرة ، وبلغ ربعُ الشعير[١] أربعةَ دراهم و الخبز موجود كثيراً ، و سعره بالرطل بنصف درهم ، و أقام ينتظر رحيل الإفرنج حتى يرحل في مقابلتهم فباتوا و بتنا أيضاً .

﴿ذِكْرُ وقعةٍ جرتْ﴾

و ذلك أنّ جماعةً من العسكر الإسلامي كانوا مُشْرِفين على العدوّ، فصادفوا جماعة منهم يشرفون أيضاً على العسكر الإسلامي ، فظفروا بهم و هجموا عليهم و جرى بينهم قتال عظيمٌ ، فقُتل من العدو جماعةٌ ، و أحسّ بهم عسكرُ العدو فثار إليهم منهم جماعة ، و اتّصل الحرب ، وقُتل أيضاً من المسلمين نفران ، و أُسر من العدو ثلاثة ، و مَثَلوا[٢] بخدمة السلطان فسألهم عن الأحوال ، فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكّا اثنان بدويّان ، و أنهما أخبراه بقلة العسكر الإسلامي ، و ذلك الذي أطمعه حتى خرج ، و أنه لما كان بالأمس يعني يوم الاثنين رأى من المسلمين قتالاً عظيماً ، و استكثر الأطلاب ، و أنه جُرح زهاءُ ألف نفر و قُتل جماعة ، و أن ذلك هو الذي أوجب إقامته اليوم حتى يستريح عسكرُه ، و أنه لمّا رأى ما أصابهم من القتال العظيم و كثرة المسلمين أحضرَ البدويّين عنده و أوقفهما و ضرب أعناقَهما .

---

(١)الربع مكيال يسع أربعة أقداح أي نصف كَيْلة من الحبوب .

(٢)مثَل الرجل بين يدي فلان (بفتح الثاء و بضمّها) : قام بين يديه منتصباً .

و أقمنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لإقامة العدوّ بها و هو الثلاثاء العاشر من شعبان .

المنزل الثامن : و لما كان ظهرُ اليوم المذكور رأى السلطانُ الرحيلَ و التقدُّمَ إلى قُدَّام العدوّ ، فدقّ الكؤوس[1]، و رحل الناسُ ، ودخل في شعرا أرسوف ، حتى توسّطَها إلى تلّ عند قرية تسمّى دير الرّاهب ، فنزل هناك ، و دهم الناسَ الليلُ ، فتقطّعوا في الشعرا ، وأصبح مقيماً ينتظر بقيّةَ العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر ، وتلاحقت العساكرُ ، و ركب يرتاد موضعاً يصلُح للقتال و لقاءِ العدوّ ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك .

و من أخبار العدوّ في تلك المنزلة أنه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً ، و أنه لحقتْه نَجْدةٌ من عكّا في ثمان بطسٍ كبارٍ، و اليزكُ الإسلامي حوله يواصلون الأخبارَ المستجدّة بهم ، و جرى بين اليزك وبين حُشاشة العدوّ قتالٌ و جُرِحَ من الطائفتين .

﴿ذكر مراسلة جرتْ في ذلك اليوم﴾

و ذلك أن العدوّ طَلَبَ من اليزك مَنْ يتحدّث معه ، و كان مقدم اليزك علم الدين سليمان ، فإنها كانتْ نوبته ، فلما مضَى إليهم مَنْ سمع كلامهم كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدّثوا معه ، فاستأذن ومضى ، وبات تلك الليلة في اليزك ، و تحدّثوا معه ، و كان حاصلُ حديثِهم أنّه قد طال بيننا القتالُ ، و قد قُتل من الجانبين الرجالُ الأبطال ،

(١)أي أمر بأن تُقرع طبول الحرب .

و إنا نحن جئنا في نُصرة إفرنج الساحل ، فاصطلحوا أنتم و هم ، و كلٌّ منا يرجع إلى مكانه .

و كتب السلطانُ إلى أخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني عشر رقعةً يقول له فيها : " إنْ قَدَرْتَ أن تطاولَ الإفرنجَ فلعلّهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان ، فإنهم قد قربوا منا " .

﴿ذكر اجتماع الملك العادل و الانكتار﴾

و لماّ علم الانكتار وصولَ الملكِ العادل إلى اليزك طلب الاجتماعَ به ، فأجابه إلى ذلك ، فاجتمعا بفرقة من أصحابهما ، و كان يترجم بينهما ابن الهنفري ، و هو من إفرنج الساحل ، من كبارهم و رأيته يوم الصلح و هو شاب حسن إلاّ أنّه محلوق اللحية ، على ما هو شعارهم .

و كان الحديث بينهما أن الانكتار شرع في ذكر الصُّلح ، و أنّ الملك العادل قال له : أنتم تطلبونَ الصّلحَ و لا تذكرُون مطلوبَكم فيه ، حتى أتوسّط أنا الحال مع السلطان . فقال له الانكتار : القاعدةُ أن تعودَ البلادُ كلُّها إلينا ، و تنصرفوا إلى بلادكم . فأخشنَ له الجواب ، و جرتْ منافرةٌ اقتضتْ أنّهم رحلوا بعد انفصالهم .

و لمّا أحسّ السلطان برحيلهم أمر الثّقلَ بالرحيل ، ووقف هو وعبّى الناسَ تعبيةَ القتال ، و سار الثقلُ الصغير أيضاً حتى قارب الثقلَ الكبير ، ثم وَرَدَ أمرُ السلطان بعَوْدهم إليه، فعادوا ، ووصلوا و قد دخل الليلُ ، و تخبّط الناسُ تلك الليلةَ تخبّطاً عظيماً ، واستدعى أخاه ليعرّفه ما

جرى بينه و بين الملك ، و خلا به لذلك ، و ذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالثَ عشرَ .

و أما العدو فإنّه سار ونزل على موضع يُسمّى البركةَ أيضاً، يشرفُ على البحر ، و أصبح السلطانُ في يوم الجمعة متطلّعاً إلى أخبار العدوّ ، فأُحْضِر عنده اثنان من الإفرنج قد تخطّفهما اليزكُ ، فأمر بضرب أعناقِهما ، ووصل مَنْ أخبر أن العدوَّ لم يرحل اليومَ من منزلته تلك ، فنزل السلطانُ و اجتمع بأخيه يتحدّثان في هذا الأمر و ما يصنع مع العدو ، و بات تلك الليلة في تلك المنزلة .

﴿ذكر وقعة أرمون و هي أنْكَتُ[١] في قلوب المسلمين﴾

و لما كان يومُ السبت الرابعَ عشرَ بلغ السلطانَ أنَّ العدوَّ حرّك الرحيل نحو أرسوف ، فركب و رتّب الأطلاب للقتال ، و عزم على مضايقتهم في ذلك اليوم و مصادمتهم ، و أخرج الجاليشَ مِنْ كل طلب ، و سار العدوّ حتى قارب شعرا أرسوف ، و بساتينها ، فأطلق عليهم الجاليشُ النُشّاب ، و لزّتْهم[٢] الأطلابُ من كل جانب ، و السلطانُ يقرّب بعضها و يوقف بعضها ، ليكون ردءاً و يضايق العدوّ مضايقة عظيمة ، و التحم القتال و اضطرمت ناره من الجاليش ، و قُتل منهم وجُرح ، فاشتدّوا في السير عساهم يبلغون المنزلةَ فينزلوا ، و اشتدّ بهم الأمر وضاق بهم الخناقُ ، و السلطان يطوف من الميمنة إلى الميسرة ، يحثُّ

---

(١)أنكت : أعمق أثراً ، و أشد إيلاماً ووقعاً .

(٢)لزّتهم : حصرتْهم ، و اقتربت منهم .

الناس على الجهاد ، و لقيته مراراً ليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ، و لقيت أخاه و هو على مثل هذه الحال و النشاب يتجاوزهما ، ولم يزلِ الأمر يشتدّ بالطمع للعدو و طمع المسلمون فيهم طمعاً عظيماً ، حتى وصل أوائلُ راجلهم إلى بساتين أرسوف ، ثم اجتمعت الخَيّالة وتواصلوا على الحملة خشيةً على القوم ، و رأوا أنّهم لا يُنجيهم إلاّ الحملة .

و لقد رأيتهم و قد اجتمعوا في وسط الرّجّالة و أخذوا رماحَهم وصاحوا صيحةَ الرجل الواحد ، وفَرجَ لهم رَجَّالتُهم و حملوا حملة واحدة من الجوانب كلِّها فحملتْ طائفةٌ على الميمنة و طائفة على الميسرة ، وطائفةٌ على القلب ، فاندفع الناسُ بين أيديهم ، و اتّفقَ أنّي كنتُ في القلب ففرّ القلبُ فراراً عظيماً ، فنويتُ التحيُّزَ إلى الميسرة ، و كانت أقربَ إليّ ووصلتُها و قد انكسرتْ كسرةً عظيمة و فرَّتْ أشدَّ فرارٍ من الكلّ[1]، فنويتُ التحيُّزَ إلى طلب السُّلْطان ، و كان ردءَ[2] الأطلاب كلِّها كما جرت العادةُ ، و لم يبق للسلطان فيه إلا سبعةَ عشرَ مقاتلاً لا غير ، وأخذ الباقون إلى القتال، لكنّ الأعلام كلّها باقيةٌ ثابتة ، و الكؤُوس تدقّ لا تفتر.

---

(١)من الكلّ : يريد أنّ ميسرة الجيش الصلاحي فرّت في هذه المعركة ، و كانت نسبة الفرار فيها أكثرَ منه في الميمنة أو القلب أو المقدّمة ..

و الأفصح في كلمة "كل" ألاّ تعرّف بأل ، و من علماء اللغة من يخطّئ مَنْ يعرّفها بها ، و لم ترد هذه الكلمة ـــ و مثلها كلمة "بعض" بأل في القرآن و لا الحديث الصحيح و لا نصوص الأدب قبل منتصف القرن الثاني .

(٢)الردء : المعين و الناصر . و القوّة و العماد . كانت الفرقة التي فيها السلطان صلاح الدين قوّة داعمة لكل فِرقة من جيشه إذا انتابها ضعف .

و أمّا السلطان فإنّه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هـذه النازلـة سارَ حتى أتى إلى طلبه ، فوجد فيه هذا النفر القليـل ، فوقـف فيـه ، والناس ينفرون من الجوانب ، وهـو يأمر أصحاب الكؤوس بالدّق بحيث لا يفترون ، كلّما رأى فاراً يأمرُ مَنْ يُحضره عنده ، و في الجملـة مـا قصّر الناس بفرارهم، فإنّ العدو حمل حملةً ، ففروا ثم وقفَ خوفاً مـن الكَمين، فوقفوا و قاتلوا ثم حمل حملةً ثانيةً ففرّوا و هـم يقـاتلون فـي فرارِهم ، ثم وقف ، فوقفوا ، ثم حمل ثالثةً حتى بلغ إلـى رؤوس رواب هناك و أعالي تلول ، ففرّوا إلى أن وقف العدوّ ووقفوا ، و كان كلُّ مـن رأى طلبَ السلطان واقفاً والكؤوس تدقّ يستحيي أن يجاوزه ، و يخـاف غائلةَ ذلك ، فيعود إلى الطلب ، فاجتمع في القلب خلقٌ عظيمٌ ، ووقـف العدوُّ قُبالَتهم على رؤوس التلول و الروابي ، و السلطان واقفٌ في طلبـه و الناس يجتمعون عليه ، حتى أتت العساكرُ بأسرها ، و خاف العـدوُّ أنْ يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة ، و عاد السلطان إلـى تل في أوائل الشعرا ، ونزل عليه في خيمته . و لقد كنت فـي خدمتـه أسلِّيه وهو لا يَقبل السّلُوَّ ، و ظُلِّل عليه بمنديل ، و سألناه أنْ يَطْعَمَ شيئاً، فأُحضر له شيءٌ لطيفٌ ، فتناول شيئاً يسيراً و بعث الناس للسَّقْي ، فـإنّ المكان كان بعيداً ، و جلس ينتظرُ الناس من العَوْد من السقي ، والجرحى يحضرون بين يديه ، وهو يتقدّم بمداواتهم و حملهم ، و قتل فـي ذلـك اليوم رَجَّالة كثيرة و جُرِحَ جماعة من الطائفتين .

و كان ممَّنْ ثَبَتَ الملكُ العادل و الطواشي إيماز النجميّ ، و الملك الأفضل ولدُه ، و صُدِمَ في ذلك اليوم و انفتَح دُمّلٌ كان في وجهه و سال

منه دم كثيرٌ على وجهه وهو صابر محتسِبٌ في ذلك كلّه ، و ثبت أيضاً طلبُ المَوْصل ، ومقدَّمُه علاء الدينِ ، و شكَرَه السلطانُ على ذلك ، وتفقَّدَ الناسُ بعضُهم بعضاً ، فوجدوا أنْ قد استُشهد جماعةٌ من العسكر عُرِفَ منهم شخصان : أميرٌ كبيرٌ مملوكٌ و كان شجاعاً معروفاً و قايماز العادلي ، و كان مذكوراً ، و ليفوش و كان شجاعاً ، وجُرِحَ خلقٌ كثيرٌ و خيول كثيرة .

و قُتل من العدوّ جماعة ، وأُسر واحد ، و أحضر فأمر بضرب عنقه ، و أُخذت منهم خيولٌ أربعة .

و كان قد تقدَّم رحمه الله إلى الثقل أنْ يسير إلى العَوْجاء ، و ذكر أن المنزل يكون على العَوْجاء ، فاستأذنته و تقدّمت إلى المنزل ، وجلس هو ينتظر اجتماعَ العساكرِ و ما يَرِدُ من أخبار العدوّ ، و كان العدوّ قد نزل على أرسوف قِبْلِيَّها .

المنزل التاسع : و سرْتُ بعد صلاة الظهر حتى أتيتُ الثِّقْلَ ، وقد نزل قاطعَ النهر المعروفِ بالعوجاء ، في منزلة خضراء طيّبة على جانب النهر ، ووصل السلطانُ إلى المنزلة أواخرَ النهار ، و ازدحم الناسُ على القنطرة ، فنزل على تلٍ مشرف على النهر ، ولم يعد إلى الخيمة ، و أمر الجاويش أنْ ينادي في العسكر بالعبور إليه ، و كان في قلبه من الوقعة أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى ، والناسُ بين جريح الجسد وجريح القلب ، و أقام السلطانُ إلى سَحرِ الخامسَ عشرَ .

و دقّ الكؤوسَ، و ركب ، و ركب الناس ، و سار راجعاً إلى جهة العدوّ ، حتى وصل إلى قريب أرسوف ، وصفَّ الأطلاب للقتال

رجاءَ خروجِ العدوّ و مسيره ، حتى يصافّ ، فلم يرحل العدوُّ في ذلـــك اليوم لِما نالهم من التّعب و الجراح ، و أقام قُبالَتهم إلى آخـــر النـــهار ، وعاد إلى منزلتِه التي باتَ فيها .

و لما كانتْ صبيحةُ السادسَ عشرَ دق الكؤوس و ركب، و ركـب الناس ، و ســار نحوهم ، ووصل خبرُ العدوّ أنّه قد رَحَلَ طالبـاً جهـةَ يافا، فقاربهم مقاربةً عظيمةً ، و رتّب الأطلاب ترتيبَ القتالِ ، وأخـــرج الجاليش ، و أحدقَ العسكرُ الإسلاميّ بالقوم ، و ألقوا عليهم من النُّشــاب ما كان يسدُّ الأُفقَ ، و قاتلتْ قلوبُهم قتالَ الحنِق ، و قصد ـــ رحمه الله ـــ تحريكَ عزائمِهم على الحَمْلة ، حتى إذا حملـــوا ألقـى النـاس عليـهم وقصدوهم ، و يعطي الله النصرَ لمَنْ يشاء[1]، فلم يحملـــوا ، و حفظـــوا نفوسَهم ، و ساروا مصطفيّن على عادتهم ، حتى أتَوا نـــهرَ العَوْجـاء ، وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه ، فنزل في أسفله ، و عَبرَ بعضُـــهم إلـــى غربي النهر ، و أقام الباقون من الجانب الشرقي ، فلمـــا علـم النـاسُ بنزولهم تراجع الناس عنهم ، و عاد السلطانُ إلى الثقل ، و نـــزل فـــي خيمته و أطعم الطعام ، و أُتِيَ بأربعة من الإفرنج قد أخذتْـــهم العـربُ ومعهم امرأة فرفعوا إلى الزردخانات ، و أقام بقيةَ ذلك اليوم يكتب الكتبَ إلى الأطراف باستحضار بقيّة العساكر ، و حضر مَن أخبر أنه قتل مـــن العدوّ يوم أرسوف خيولٌ كثيرة ، وأنه تتبَّعها العربُ و عدُّوهـا فـزادتْ عـــلى مائة ، و أمر السلطانُ أنْ رَحلت الجمال[1] و تقدمتْ إلى الرَّملة ،

(١)أراد الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله أنْ يستفزَّ العدوّ ليحاربَ جيشَ المسلمين ، و عندئـــذٍ تـدور رحـى الحرب، و ينصرُ الله تعالى مَنْ يشاء . (١)كانوا يستصحبون الجمال لتحمل أمتعـــة الحـرب و عتادهـا و طعـام الجيش . . .

وبات هو بتلك المنزلة .

المنزل العاشر : و لما كان سابع عشر صلَّى الصبحَ و رحـــل ، ورحل معه الثِّقْلُ الصغير ، و سار يريد الرملة و أُتِيَ باثنين من الإفرنـج فضرب أعناقهم ، ووصل منْ اليزك مَنْ أخبر أنّ العدوَّ رحل مِنْ يافـا ، و سار السلطان إلى أنْ أتى الرملة ، و أُتِيَ باثنين من الإفرنــج أيضـاً فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنّهم ربمّا أقاموا بيافا أيامـاً و فـي أنفسـهم عمارتها و شحنُها بالرجال و العُدَد .

فأحضر السلطان أربابَ مشورته ، و شاورهم في أمر عسقلاّن ، و أنها هل تخرب أو تبقى ؟ و اتَّفق الرأيُ على أن يتخلف الملكُ العـادلُ ومعه طائفةٌ من العسكر مقاربَ العدو ، ليعرف أحوالهم و اتّصالها ، وأن يسير هو و يخرب عسقلاّن خشيةَ أن يستولي عليـها الإفرنـج و هـي عامرة، فيقتلوا مَنْ بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القـدس الشـريف ، ويقطعوا بها طريق مصر ، و خشي السلطانُ من ذلـك و علـم عجـز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكّا، وما جرى على مَـنْ كـان مقيماً بها ، و يخيفوا الناس عن الدخول إلى عسقلان ، فادُّخرت القوةُ في عسكر الإسلام لحفظ القُدْس المحروس، فتعيّن لذلك خـرابُ عسـقلاّن ، فسار الثقلُ و الجِمالُ من أوّل الليل ، وتقدّم إلى ولده الملك الأفضـل أنْ سار عُقَيْبَ الثقل نصفَ الليل ، و سار هو وأنا في خدمته سَحَرَ الأربعاء.

المنزل الحادي عشر : و هو على عسقلان . و لما كـان يـوم

الأربعاء ثامنَ عشرَ(١) الشهر وصل السلطانُ إلى "يُبْنى" (٢)، فنزل بها ضحى ، و أخذ الناسُ راحةً ، ثم رحل و سار حتى أتى أرض عَسْقلاَن ، و قد ضُرِبتْ خيمتُه بعيداً منها ، فبات هناك مهموماً بسبب الخراب و ما نام إلا قليلاً ، و لقد دعاني في خدمته سَحَراً ، و كنت فارقت خدمته بعد مضيّ نصف الليل ، فحضرْتُ و بدأ بالحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولدَه الملكَ الأفضل ، و شاوره في ذلك و طال الحديث في المعنى .

و لقد قال لي : والله لأنْ أَفْقِدَ أولادي بأسرهم أحبُّ إلي مِنْ أنْ أَهْدِمَ منها حجراً واحداً ، لكنْ إذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحةِ المسلمين كان . ثم استخارَ اللهَ تعالى ، فأوقع اللهُ في نفسه أنّ المصلحة في خرابها، لعجز المسلمين عن حفظها ، فاستحضر "الوالي قيصر بها" وهو من كبار مماليكه ، و ذوي الآراء منهم ، فأمره بجمع المال فيها ، و لقد رأيته و قد اجتاز بالسُّوق و الوطاق(٣) بنفسه مستقر الناس للخراب ، وقسَمَ السورَ على الناس ، و جعل لكلّ أمير و طائفة من الناس العسكر بدنة(٤) معلومة و برجاً معلوماً يخربونه .

و دخل الناسُ البلد ووقع الضجيجُ والبكاء ، و كان بلداً نضراً خفيفاً على القلب مُحْكَمَ الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سُكْناه ، فلحق الناسَ عليه حزنٌ عظيم ، وعَظُمَ عويلُ أهلِه على مفارقة أوطانهم ،

---

(١)٥٨٧/٨/١٨هـ . (٢) "يُبْنى" : بالضم ثم السكون ، ونون ، و ألف مقصور ، بلفظ الفعل الذي لم يُسَمّ فاعله ، من بنى يبني : بليد قرب الرملة .." [معجم البلدان ٥/٤٢٨] .

(٣)الوطاق : الخيمة . (٤) بدنة : جزء .

وشرعوا في بيع ما لا يمكنُ حملُه ، فبيع ما يساوي عشرةَ دراهم بدرهم واحد ، و اختبط البلدُ و خرج أهله إلى العسكر بذراريّهم و نسائهم ، خشيةَ أن يهجمَ الإفرنجُ ، و بذلوا في الكِراء أضعافَ ما يُساوي[1]: قومٌ إلى مصر و قوم إلى الشام ، و قوم يمشون، إذْ لم يقع لهم كِراء[2]، وجرتْ أمور عظيمة و فتنةٌ هائلة ، لعلّها لم تختصَّ بالذين ظلموا[3]، و كان هو بنفسه وولِده الملك الأفضل يستعملان الناسَ في الخراب والحثّ عليه ، خشيةَ أن يسمعَ العدوُّ فيحضُر ، و لا يمكن خرابُها ، وبات الناسُ في الخيام على أتمّ حال من التعب والنصب.

و في تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الإفرنج تحدّثوا معه في الصُلْح ، و أنه خرج إليه ابن الهنفري ، و تحدّث معه ، وأنّه طلب جميعَ البلاد الساحلية ، فرأى السلطانُ أنّ ذلك مصلحة، لما رأى في أنفس الناس من الضَّجَرِ و السآمة من القتال والمصابرة و كثرة مما علاهم من الدُّيون ، و كتب إليه يسمح في الحديث في ذلك ، وفوَّض أمر ذلك إلى رأيه .

و أصبح في العشرين على الإصرار على الخراب ، واستعمال الناس فيه ، و حثّهم عليه وأباحهم الهُرْيَ[4] الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عَنْ نقله و ضيق الوقت والخوفِ من هجوم الإفرنج ، وأمر

(١)دفع أهل عسقلان أجوراً باهظة من أجل نَقْلهم ، و هي أجور تساوي أضعاف ما كانت عليه في الظروف العادية . (٢)رحل قسم من أهل عسقلان إلى مصر ، و قسم إلى الشّام ، و كان فريق يمتطي الرواحل المستأجَرة ، و فريق مشى على قدميه لعدم توفّر الرواحل .

(٣)يشير إلى قول الله عزّ و جلّ : (و اتّقوا فتنةً لا تُصيبَنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ، و اعلموا أنّ الله شدُيد العقاب) [الأنفال ٢٥] .(٤)الهُرْي : الطّعام .

بحريق البلد ، فأُضرمت النارُ في بيوته و درره ، و رفض أهلُه بواقـــيَ الأقمشة للعجز عن نقلها ، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافـا ، و كَتَبَ الملك العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد[١]، و أنْ سوِّفِ القوم و طوِّلِ الحديثَ لعلنا نتمكّن من الخراب ، و أمر بحشْو أبراج البلـد بالأحطاب ، و أنْ تُحرق .

وأصبح الحادي و العشرون ، فركب يحثّ الناس و دام يستعملهم علـى التخريب ، و يطوف عـليهم بنفسه حتى التاثَ مزاجُه التياثاً قويـاً امتنع بسببه من الرّكوب و الغذاء يومَيْنْ ، و أخبارُ العدوِّ تتواصل إليــه في كل وقت و يجري بينهم و بين اليزَكِ و العسكر وقعــاتٌ و قلبــات ، وهو يواظبُ على الحثّ على الخراب ، و نَقَلَ النَّقْلَ إلى قريـــب البلـد ليعاونوا الغلمانَ و الحمّالين وغيرَهم في ذلك .

فخرِب من السور معظمه ، و كان عظيمَ البناء ، بحيث إنه كـــان عَرْضُهُ في مواضعَ تسعةَ أذرع ، و في مواضع عشــرة أذرع ، وذكـــر بعضُ الحجّارين للسلطان ــ و أنا حاضر ــ أنّ عَرْضَ السُّـــور الـــذي ينقّبون فيه مقدارُ رمح ، و لم يزل التخريبُ والحريق في البلد و أســواره إلى سلخ شعبان .

و عند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسّحون، و صاروا يخرجون من يافا[٢] يُغيرون على البلاد القريبة منها ، فتحرّك

---

(١)سقطت بضع كلمات مضمونها إيعاز من الملك الناصر صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أن تــابع مفاوضــة العدو..

(٢)و كان الفرنجة قد دخلوها بعد استيلائهم على عكا ، قال أبو الفدا : "و بعد استيلاء الفرنج علــى عكــا ، وتقرير أمرها ، رحلوا علها مستهلّ شعبان نحو قيســارية ... ثـم ســار الفرنــج إلــى يافــا ، و قــد أخلاهــا المسلمون،فملكوها ، ثم رأى السلطان تخريب عسقلاّن مصلحةً .." [المختصر في أخبار البشر ٧٩/٢]

السلطانُ لعله يبلغ منهم غَرَضاَ في غِرّتهم ، فعزم على الرَّحيل و علـــى أن يخلّف في عسقلان حجّارينَ ، ومعهم خيلٌ تحميهم ، و يســـتنهضونهم في الخراب ، ثم رأى أن يتأخّر بحيث يُحرق البُرْجَ المعروف بالإسبتار ، و كان برجاً عظيماً مشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة ، و لقـــد دخلتُــه وطفتُه ، فرأيت بناءه أحكمَ بناء يقربُ مِنْ أنْ لا تعملَ فيـــه المعـاولُ ، وإنما أرادَ أن يُحرقَه حتى يبقىَ بالحريق قابلاً للخراب و يـعملَ الـــهدْمُ فيه .

و أصبح مستهلُّ رمضان ، فأمر ولده الملكَ الأفضـــل أنْ يباشــر ذلك بنفسه و خواصّه . و لقد رأيتُه يحمل الخشبَ هو و خواصُّه لحريــق البرج ، و لم يزل الناسُ ينقلون الخشب ويحشونه في البُرْج حتى امتــلأ ، ثم أُطلقت فيه النار فاشتعل الخشب ، و بقيتِ النارُ تشتعل فيـــه يوميــن بلياليهما ، و لم يركب السلطانُ في ذلك اليوم تسكيناً لمزاجه ، و عــوض لي أيضاً تشوُّشُ مزاج اقتضَى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، و لقد تــردّد إليَّ مَنْ سأل عن مزاجي مِنْ عنـــده ثلاثَ مرات مع اشتغال قلبه بذلـــك المُهِمّ . فالله تعالى يرحمُه ، لقد ماتتْ محاسنُ الأخلاقِ بموته .

﴿ذكر رحيله إلى الرملة﴾

ثم رحل السلطانُ ثانيَ رمضانَ نصفَ الليل خشيةً على مزاجه من الحرّ ، ووصل "يُبْنى" ضحوةَ النهار ، و نزل في خيمة أخيه ، و اســتعلم منه أخبارَهم ساعةً ، ثم ركب و نزل في خيمته ، و بات في تلك المنزلة.

و أصبحَ ثالثَ الشهر راحلاً إلى جهة الرملة ، فسار حتى أتاهـا ضَحْوَةَ النهار ، و نزل بالثقل الكبير نزولَ إقامة ، و رتّب العسكر ميمنةً وميسرةً و قلباً ، و أطعم الناسَ الطعامَ ، و أخذ جُـزْءاً مـن الراحـة ، وركب بين صلاتي الظهر و العصر ، و سار إلى لـدّ ورآهـا و رأى بيعتها[1]، وعِظَمَ بنائها ، فأمر بخرابها و خرابِ قلعـةِ الرّملـة ، فوقـع الخرابُ في الموضعيْن في ذلك اليوم ، و فرّق النـاسَ فِرَقـاً لتخريـب المكانَيْنِ ، و أباح ما فيها من التِّبْن و الشَّعير في الأهراء[2] السـلطانية ، وأمر مَنْ كان فيها من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العـامرة ، و مـا كان بقي في المكانين إلا نفر يسير ، و ظلّ الناس يخربون إلى أن أمسـى المساء ، ثم عاد إلى خيمته و أصبح رابعَ رمضان ، فأقام الحجّارين فـي المكانين ورتّب عليهم مَنْ يستنجزهم في ذلك ، و هو يتردّد عليـهم فـي الأصائل[3] حتى جاء وقتُ المغرب فمدّ الطعام و أفطر الناس ، وانفصلوا إلى خيمهم .

ووقع له أنْ يسيرَ خُفيةً في نفر يسير يشاهد أحوالَ القدس ، فسار مِنْ أوّل الليل حتى أتى بيتَ نوبة[4]، فبات فيها حتـى أتـى الصبـاح، وصلّى، ثم سار حتى أتى القُدْس في خامس الشهر ، و خلّف أخـاه فـي العسكر يحثُّ الناسَ عـلى الخراب ، و أقـام ذلك اليوم يتصفـّح أحوالَ

---

(١)البيعة : معبد النصارى .

(٢)المستودعات الغذائية "و الهُرْي ــ بالضمّ ــ بيت كبيرٌ يُجمع فيه طعام السلطان" [القـاموس المحيط] . (٣) الأصيل : وقت ما بين العصر و المغرب . (٤) "بيت نوبا ": بلدة مـن نواحـي فلسطين " [معجم البلدان ٥٢٣/١] .

القدس في عمارته وميرته و عدته و رجاله و غير ذلك ، و ظفر في ذلك اليوم غلمان الطواشي قايماز بنفر من النصارى و معهم كتب قد كتبها الوالي إلى السلطان قريبة التاريخ ، يذكر فيها إعواز البلد الغلة والعدة والرجال ، فوقف على الكتب و ضربت رقاب كل من كان معهم ، ومازال يتصفح أحوال المكان و يأمر بسد خلله إلى الثامن ، و خرج سائرا إلى العسكر بعد صلاة الظهر ، فبات في بيت نوبة .

و في هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب "ملطية"[١] ابن قليج أرسلان، وافدا عليه مستنصرا به على إخوته و أبيه ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه ، فلقيه الملك العادل قاطع لد ، فاحترمه و أكرمه ، ثم لقيه الملك الأفضل و ضربت خيمته قريبا من لد .

و في ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فحمل عليهم اليزك ، ووصل الخبر إلى معسكرهم ، فخرج إلى نصرتهم خيالة، و جرى بينهم و بين اليزك قتال و ذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الانكتار ، و أن مسلما قصد طعنه فحال بينه و بينه إفرنجي فقتل الإفرنجي و جرح هو ، هكذا ذكروا و الله أعلم .

و لما كان التاسع وصل رحمه الله إلى المعسكر و لقيه الناس مستبشرين بقدومه ، و لقيه ابن قليج أرسلان ، فنزل له و احترمه وأكرمه ، و نزل في خيمته ، و أقام يحث الناس على التخريب ، وتتواصل أخبار العدو إليه ، و يقع بينهم و بين اليزك وقعات ، و يسوق العرب من خيولهم ، و يقاتلهم رجالهم .

(١)ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام ، و هي بفتح الميم و اللام ، وتسكين الطاء.

﴿ذكر وصول رسول مركيس﴾

و في غُضون ذلك وصل رسولُ المركيس يذكـرُ أنّـه يصـالح الإسلام بشرط أنْ يُعْطَى صيدا و بيروت ، علـى أن يجـاهرَ الإفرنـج بالعداوة ، و يقصدَ عكا و يحاصرها و يأخذها منهم ، و اشترط أن يبـذل للسلطان اليمينَ على ذلك ابتداء ، فسيَّرَ العدل النجيب و حمّله الإجابة إلى مُلْتَمسِه لقصد فَصْله عن الإفرنج ، فإنّه كان خبيثاً ملعوناً ، و كـان قـد استشعر منهم أخذَ بلدِهِ ، و هي صور ، فانحـاز عنـهم ، و اسـتعصم بصور ، و هي منيعةٌ ، فقال ذلك القول لهذا السبب ، و سـار النجيـب العدل مع رسوله في الثاني عشر ، و اشترطَ عليه أن يبدأ بمُجاهرة القوم و حصارِ عكا و أخذِها و إطلاق مَنْ بها و بصور من الأسرى ، و عنـد ذلك يُسلّم إليه الموضعان .

و في عشيةِ ذلك اليوم خرجَ رسولُ ملكِ الانكتار إلى الملك العادل في تحريكِ سلسلةِ الحديث في الصُّلْح .

و لما كان الثالثَ عشرَ من رمضـان رأى السـلطانُ أنْ يتـأخّر العسكرُ إلى الجبل ، ليتمكّن الناسُ من إنفاذ دوابّهم إلى العلوفة ، فإنا كُنّـا على الرملة قريبين من العدوّ ، و لا يمكن التفريطُ في الـدوابّ خشـيةَ المهاجمة ، فرحل و نزل على جبل متّصل بجبل النطرون بالثقل الكبـير و جميع العساكر ، ما عدا اليزك على العادة ، و ذلك بعد خراب الرملـة ولَدّ ، و لمّا نزل هناك دارَ حولَ النطرون ، و أمر بخرابها ، و كـانتْ قلعةً منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع في خرابها .

و تردّدت الرسلُ بين الملك العادل و الانكتار ، يذكرون أنّـــه قـــد سلّم أمرَ الصلح إلى الملك العادل[1]، و أخلد إليه ، و خرج فـــي عشـــرة أنفس إلى اليزك ، فأخبروه بأخبار طيبة و كتب بها إلى الســـلطان فـــي السابعَ عشر ، و كان ممّا أخبره به أخوه أن الملك أفرنسيس مات ، وكان موته بأنطاكية عن مرض عَرَض له ، و أن الانكتار عـــاد إلـــى عكّـــا ، وكان سببُ عوده أنّه صَحّ عنده مراسلةُ المركيس للسُّلطان ، و بلغـــه أنّ المركيس قد انتظم الحالُ بيننا و بينه ، و أنه قد استقرّت القـــاعدة علـــى عكّا، فعاد هو إلى عكا لفسخ هذه المصالحة و استرجاع المركيس إليـــه ، فركب السلطان إلى اليزك ، و اجتمع بأخيه في لُدَّ ، و سأله عن الأخبار، و عاد إلى المخيّم وقتَ العصر ، و أُتِي باثنين من الإفرنج قد تخطّفـــهم اليزك ، فأخبروا بصحّة موت الإفرنسيس ، و عَوْدِ الانكتار إلى عكا .

﴿ذكر مسير الملك العادل إلى القدس﴾

و لما كان التاسعَ عشرَ اقتضى الحالُ تَفَقُّدَ القدس ، و النظرَ فـــي عمارته ، و كان الملكُ العادل قد عاد من اليزك و علم بُعْدَ مسير مقدَّمـــي الإفرنج عناّ ، فرأى أن يكونَ هو الذي يسير ، فسار في هذا اليوم لـــهذا الغرض .

(١)قال أبو الفدا :" ثمّ تراسل الفرنج و السلطان في الصُّلح على أنْ يتزوّج الملـــكُ العـــادل أخـــو السلطان بأختِ ملك الانكتار ، و يكون للملك العادل القدس ، و لامرأته عكّا ، فَحَضَرَ القِسّيسـون و أنكروا عليها ذلك ، إلاّ أنْ يتنصّر الملك العادل . فلم يتّفق بينهم حال " [المختصر فـــي أخبـار البشر ٣/٨٠]

و في تاريخ هذا اليوم وصل كتابٌ مِنْ تقي الدين يُخْبر فيه أنْ قزل صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه ، و قيل إن ذلك كان مِنْ تحت يد زوجته تعصّباً للسلطان طغريل[1] ، و جرى بسبب قتله خَبطٌ عظيم في بلاد العجم ، و كان قتلهُ في أوائل شعبان من هذه السنة .

و لما كان الحادي و العشرون من رمضان قدِمَ الملكُ العادل من القدس ، و في هذا التاريخ وصل كتابٌ من الديوان العزيز النبويّ يذكر فيه قصد الملك المظفّر تقي الدين خلاط ، و يذكر فيه العناية التامّة ببكتمر ، و يشفع في حسن بن قفجاق ، و التقدّم بإطلاقه ، و كان قد قبض عليه مظفّر الدين بن زين الدين بإربل . و يتقدّم بمسير القاضي الفاضل إلى الديوان لِبثّ حالٍ[2] و فصْل أمر ، و سُيّر الكتابُ إلى الفاضل ليقف عليه و يكتب إلى تقيّ الدين .

﴿ذكر أخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو﴾

و لما كان الثاني و العشرون أَحْضرَ لصوصٌ فرساً و بغلةً ، قد دخلوا إلى خيم العدوّ و سرقوهما ، و كان قد رتّب رحمه الله ثلاثمائة لصّ من شلوح[3] العرب ، يدخلون و يسرقون منهم أموالَهم و خيولَهم ، و يسرقون الرجال أحياناً ، و ذلك أنّه يكون الواحد منهم نائماً ، فيُوضع

(١)طغريل بن أرسلان بن طغريل .

(٢)عرض حال ، شكوى .(٣)الشَّلْح : جمع الشَّلْحاء ، وهي السيف . و التَّشْليح: التعرية [انظر القاموس المحيط (شلح)] و الشلوح : اللصوص ، الخطّافون .

على حلقه الخِنْجرُ ، ثم يوقظ فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره ، فيسكت و لا يتجاسر أن يتكلم ، فيُحْمل و هو على هذا الوضع إلـــى أن يخرج من الخيمِ ، و يؤخذ أسيراً ، و تكلّم منهم جماعة فنُحِرُوا ، فصـــار مَنْ أصابه ذلك لا يتكلّم ، و اختاروا الأسرَ على القتل ، و دامـــوا علـــى ذلك مدَّةً طويلة إلى انتظام الصُلْح .

و في ذلك اليوم وصل من اليزك مَنْ أَخْبرَ أنهم خرجوا مِنْ عـــكا يتفسّحون ، و أنّ اليزك حمل عليهم ، فأسر منهم واحداً و عشرين نفســاً، وأنّ الأسرى أخبروهم بصحّة عَوْدِ الانكتار إلى عكا ، وأنّه مريض بــها، و أخبروا عن ضعف أهل عكا و فقرهم و قلّة الميرة عندهم . و في هــذا التاريخ وصل للعدوّ مراكبُ عدّةٌ قيل إنها وصلتْ من عكا ، و إنّ فيهـــا الانكتار ، قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلاّن و يعمرهـــا ، و قيــل يقصدُ القدس و الله أعلم .

و لما كان الرابعُ و العشرون وصل الأسرى المذكـــورون مـــن الزّيب[1] ، و كان وصولُهم فَرَحاً للمسلمين مبشّراً بكل خـــير ، و فيــه وصل رسولُ قزل ، و كان قد سيّره قبل وفاته ، ورسول ابن أخيه إيناج، و في عشيته وصل رسولٌ من الانكتار معه حصان إلى الملك العادل فـي مقابلة هديّة كان أنفذَها إليه . و فيه وصل خبرُ وفاة حُسامِ الدين لاجين[2]

(١)قرية كبيرة على ساحل بحر الشّام قرب عكّا .(٢)وصل خبر موته في الرابع و العشرين من رمضـــان ، بعـد خمسة أيام من موته في دمشق ، وهو ابن أخت السلطان صلاح الدين ، و من أكبر أعوانه ، و اسمه محمـد بـن عمر بن لاجين (أو لاشين) ، فدفن في التربة الحُسامية ، و هي التي أنشأتها أمّه بمحلّة العونية، و حسام الديـن لاجين هو الذي أنشأ في حلب " المدرسة الحدادية " و أمّ حسام الدين السيدة ستّ الشّام ، أخـت صـلاح الديـن ، وكانت تصنع الأدوية و العقاقير بألوف الدنانير كل عام ، و توزعها مجّاناً على المرضى و الجرحى .

بدمشق لمرض كان اعتراه ، فصعُب على السلطان موتُه و شقّ عليـــه ، وفيه وصل كتابٌ من أسامة يذكر فيه أنّ الـــبرنس أغـــار علـــى جبلـــة و اللاذقية ، و أنّه كُسِرَ كسرةً عظيمة و قتل منه جماعــــة و عـــاد إلـــى أنطاكيّة .

﴿ذكر رسول الملك العادل إلى الانكتار﴾

و لما كان السادسُ و العشرون كان اليزك للعادل ، فطلب الانكتار رسولهَ ، فأنفذ إليه الصنيعة و هو كاتبه ، و كان شاباً حسناً فوصل إليـــه وهو في بازور ، قد خرج في جمع كثير من الرّجّالة ، و انبثّوا في تلـــك الأرض ، فاجتمع به ، و سار معه زمناً طويلاً ، و حادثـــه فـــي معنـــى الصُّلْح ، و قال : لا أرجع عن كلام أتحدَّثُ به مع أخـــــي و صديقـــي ، يعني العادلَ ، و ذكر له كلاماً ، و عاد و أخبر به ، فكتبه الملكُ العـــادل في رقعة و أنفذها إلى السلطان ، و كان يتضمّن أنك تسلّم عليه ، و تقول له : إن المسلمين و الإفرنج قد هلكوا و خربت البلاد و خرجت من يــــد الفريقين بالكلّية ، و قد تلفت الأموال و الأرواح من الطائفتين ، و قد أخذ هذا الأمْرُ حقَّه ، و ليس هناك حديثٌ سوى القدس و الصليب و البــــلاد . و القدس مُتَعبَّدُنا ما ننزل عنه ، و لو لم يبقَ منّا إلا واحدٌ . و أمّا البـــــلادُ فيُعاد إلينا ما هو قاطع الأردنّ ، و أمّا الصليبُ فـــهو خشـــبةٌ عندكـــم لا مقدارَ له ، و هو عندنا عظيم ، فيمُنّ بـــه الســـلطانُ علينـــا و نصطلـــحُ ونستريح من هذا التعب .

و لما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أربابَ المشورة في دولته و استشارهم في الجواب . و الذي رآه السلطانُ أنْ قال : القدسُ لنا كما هو لكم ، و هو عندنا أعظمُ مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبيّنا و مجتمعُ الملائكة ، فلا تَتَصَوّرْ أنْ ننزلَ عنْه ، و لا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ، و أما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل و استيلاؤكم كان طارئاً عليها ، لضعفِ مَنْ كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحربُ قائماً ، و ما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغلّه و ننتفع به . و أما الصليبُ فهلاكُه عندنا قُربةٌ عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها . و سار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

﴿ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكّا و كان أسيراً﴾

و لما كان آخرُ السادسَ و العشرين وصل شيركوه بن باخل ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا ، و كان من قصته أنه هرب ليلة الحادي و العشرين ، و ذلك أنه كان ادخَر له حبلاً في مخدّته ، و كان الأميرُ حسن بن باريك ادَّخر له حبلاً في بيت الطهارة ، و اتّفقا على الهرب ، و نزلا من طاقة كانتْ في بيت الطهارة ، و انحدرا من السور الأول ، وَ عَبَر شيركوه من الباشورة أيضاً ، و كان ابن باريك حالةَ نزوله انقطعَ به الحبلُ ونزل شيركوه سليماً ، فرآه و قد تغيّر من الوقعة، فكلّمه فلم يُجبْه ، و حرّكه فلم يتحرَّكْ ، فهزّه لعله ينشط فيسير معه ، فلم

يقدِرْ ، فعلم أنّه إذا أقام عنده أُخذا جميعاً فتركه و انصرف ، و اشتدّ هرباً في قيوده حتى أتى تلَّ العياضية ، و قد طلع الصبح ، فأكمن في الجبل ، حتى علا النهار و كسر قيدَه ، و سار و ستر الله ، حتى أتى المعسكر ، و مَثَلَ بخدمة السلطان ، و كان من أخباره أنّ سيف الدّين المشطوب ضيّق عليه ، و أنّه قَطَعَ على نفسه قطيعةً عظيمة من خيل و بغال وأنواع الأموال ، و أن الملك الانكتار أتى عكّا و أَخَذَ كلَّ ماله بها مِنْ خَدَمهِ و مماليكه و أقمشته ، و لم يُبْقِ له منها شيئاً ، و أنّ فلاّحي الجبل يمدّونه بالميرة مدَداً عظيماً ، و أنّ طغرل السلحدار أخذ خواصّ مماليكِ السلطان ، و هربوا قبل هروبه .

﴿ذكر رسالة سيَّرني فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء﴾

و ذلك أنه لمّا كان التاسعُ و العشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صُحْبته ، و أحضر جماعةً من الأمراء : علم الدين سليمان ، و سابق الدين ، و عزّ الدين بن المقدم ، و حسام الدين بشارة ، و شرح لنا ما عاد به رسولُه من الانكتار من الرسالة و الكلام ، و ذلك أنّه ذكر أنّه قد أراد أن يتزوّج الملكُ العادلُ بأخت الانكتار ، و كان قد

استصحبها معه من صقلية(١) ، فإنها كانت زوجة صاحبها ، و قد ملت ، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية ، فاستقرّت القاعدةُ على أن يكون مستقرُّ مُلْكِها بالقدس ، و أنّ أخاها يعطيها بلادَ الساحل التي بيده من عكّا إلى يافا و عسقلان إلى غير ذلك ، و يجعلها ملِكةَ الساحل ، و يجعلُه ملكَ الساحل ، و يكون ذلك مُضَافاً إلى ما في يده من البلاد و الأقطاع ، و أنّه سلّم إليه صليبَ الصلبوت ، و تكون القرى للداوية و الإسبتار ، والحصون لهما ، و أسرانا تُفَكّ ، و كذلك أسراهم ، و أنّ الصلح يستقرّ على هذه القاعدة ، و يرحل الانكتار طالباً بلادَه في البحر ، و ينفصل الأمر .

هكذا ذكرَ رسولُ العادل عن الانكتار . و لمّا عرف ذلك العادلُ بنى عليه أنِ استحضرنا عندَه ، و حملّنا هذه الرسالة إلى السلطان ، وجعلني المتكلِّمَ فيها ، و الجماعة يسمعون ، و نعرض عليه هذا الحديث فإن استصوبه ورآه مصلحةً للمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضا به ، و إنْ أباه شهدْنا عليه أنّ الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية ،

(١) قال ياقوت بن عبد الله الحموي: "صقِلّية : من جزائر بحر المغرب(البحر الأبيض المتوسط) و هي مثلّثة الشكل، و بها عيون غزيرة و أنهار جارية و نزه عجيبة و مدينتها المشهورة بلَرْم ، و هي قصبة (عاصمة) صقلية على نحر البحر فُتحت في أيام بني الأغلب على يد القاضي أسد ابن الفرات سنة ٢١٢هـ ، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً عالماً ، و بقيت بأيدي المسلمين مدّة ، وصار أكثرُ أهلها مسلمين ، وبنوا بها الجوامع و المساجد ، ثم ظهر عليها الكفّار فملكوها فهي اليومَ في أيديهم " و معلوم أن ياقوت الحموي عاش ما بين عامي ٥٧٤ و ٦٢٦ للهجرة . و قال أيضاً :" وفي بلرم و الخالصة والحارات المحيطة بها نيّف و ثلاثمائة مسجد ، و في محال تلاصقها وتتّصل بوادي العباس مائتا مسجد ، قال (ابن حوقل) : و لقد رأيت في بعض الشوارع في بلرم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد " [معجم البلدان ٤١٦/٣ و ما بعدها] .

و أنه هو الذي رأى إبطالَه . فلما مَثَلْنا بالخدمة السلطانية عرضْتُ عليه الحديثَ ، و تلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة ، معتقداً أن الانكتار لا يوافق على ذلك أصلاً ، فإنّ هذه منه مكرٌ وهزل ، فكررت عليه الرضا بذلك ثلاثَ مرات و هو يقول نعم و يفرح ، و يشهد على نفسه به ، فلمّا تحقّقنا منه ذلك عُدْنا إلى الملك العادل ، فعرّفناه بما قال و عرّفه الجماعةُ أني كَرَّرت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه ، و أنّه أصرَّ على الإذن في ذلك و استقرت القاعدة عليه .

﴿ذكر عود الرسول إلى الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة﴾

و لمّا كان ثاني شوال سار ابنُ النّحال رسولاً من جانب السلطان و من جانب الملك العادل ، فلمّا وصل إلى مخيَّم العدوّ و أنفذ مَنْ عرف الملكَ بقدومه أنفذَ إليه من قال له : إنّ الملكة عَرَضَ عليها أخوها النكاحَ فسخِطتْ من ذلك ، و غضبتْ بسببه ، و أنكرتْ ذلك إنكاراً عظيماً ، وحلفتْ بدينها المغلّظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك ، و كيف تُمَكّن مسلماً مِنْ غشيانها ؟ ثم قال أخوها : إن الملك العادل يَتَنَصَّرُ ، و أنا أُتمّم ذلك . و تَرك بابَ الكلام مفتوحاً .

و لما كان خامسُ شوال وصل الخبرُ أن الأسطول الإسلاميَّ استولى على مراكب الإفرنج ، و فيها مركبٌ يعرف بالسّطح قيل : إنه كان فيه خمسُمائة نفرٍ ، و زائدٌ على ذلك ، و إنه قتل منهم خَلْقٌ عظيم

واستُبقيَ منهم أربعة مذكورون ، و سُرّ المسلمون بذلك ، و ضُرِبت بشائرُ النصر ، و نَعَق بوقُ الظفر فلله الحمد و المنة .

و لمّا كان سادسُ شوال جمع السلطان أكابر الأمراء و أرباب الآراء مِنْ دولته ، و شاورهم كيف يصنع إنْ خرج العدوّ ؟ و كان قد تواصلت الأخبارُ عنهم أنّهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامي، فانفصل الرأيُ بين ذوي الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الأثقالِ ، فإن خرج الإفرنج كانوا على لقائهم .

و في عشية ذلك اليوم استَأْمَنَ من الإفرنج اثنان على فرسَيْنِ ، وأخبرا أنّ العدوَّ على عزمِ الخروج ، و أنهم زُهاءُ عشرةِ آلافِ فارس ، و ذكرا أنهم لا يعرفون قصدَهم و هرب أسيرٌ مسلم من جانبهم و أخبرَ أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه . و لمّا تحقّق السلطانُ أَمَرَ الجاويشَ أنْ ينادي في العسكر حتى يتجهّزَ جريدة ، و شُدَّتِ الراياتُ و اتفُّقَ على أنه يقف قُبالةَ القوم إن خرجوا ، و سار في السابع مؤيَّداً منصوراً حتى أتى قبْلِيَّ كنيسةِ الرملة ليلاً ، فخيَّم هناك ليلتَه .

﴿ذكر خروج الإفرنج من يافا﴾

و لما كانت صبيحةُ الثامن رتّب الأبطال للقتال ، و سلَّمَ اليزكَ للملك العادل ، و تبعَه مَنْ يريد من الغُزاة(١)، و كان قد وصل جماعةٌ من الروم يريدونِ الغَزَاة(٢)، فخرجوا من جملة مَنْ خرج ، فلمّا وصلوا إلى

(١)الغُزاة (بضم الغين) جمع غازٍ ، و هو المجاهد المهاجم للعدوّ في داره .

(٢)الغَزاة (بفتح الغين) : الغزو .

خيام الإفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جأشهم و أنسهم بقتالـــهم و ثقتهم بمراكبهم ، و رموا عليهم النشاب ، فرآهم الغزاة والواصلون من الروم فاغتروا بإقدامهم ووافقوهم في فعلهم ، و قاربوا عســكر العــدو ، فلما رأى الإفرنج تلك المضايقة و المنازلة ثـــارت هممـــهم و حركتـــهم نخوتهم ، فركبوا من داخل الخيام ، و صاحوا صيحة الرجــل الواحــد ، وحملوا في جمع كثير ، فنجا من سبق به جواده ، و قدر في القدم نجاتــه، و ظفروا بجماعة ، فقتل منهم ثلاثة نفر ، و نقلوا خيامهم إلى بـــاروز[١]، و أقام السلطان في تلك الليلة بمنزلته إلى الصباح .

﴿ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر﴾

و لما كان الحادي عشر ركب السلطان إلى جهة العدو ، فأشـــرف عليهم ، ثم عاد و أمرني بالإشارة إلى أخيه بأن يحضر معه علم الديـــن سليمان ، و سابق الدين وعز الدين بن المقدم ، فلما مثل الجماعــــة بيـــن يديه أمر خادما أن يخلي المكان عن غير الحـــاضرين ، و كنــت فـــي جملتهم ، و أمره بإبعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتابا مـــن قبـــاه[٢]، وفضه ووقف عليه ، و بدت دموعه ، و غلبه البكاء ، و النحيب ، حتـــى وافقناه من غير أن نعلم السبب ما هو ؟ و في أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن

---

(١)باروز ، أثبتها ياقوت بالذال المعجمة أخت الدال المهملة ، و قال : " (باروذ) : بضم الــراء و سكون الواو و الذال معجمة : من قرى فلسطين عند الرملة ، منها أبو بكر أحمد بن محمد ابــن بكر الباروذي الأزدي " [معجم البلدان ٣٢٠/٢] .

(٢)القباء : ثوب يلبس فوق الثياب و يقصر فيقال القبا .

وفاةَ الملك المظفَّر . فأخذ الجماعةُ في البكاء حتى أتوا بوظيفتــــه . ثــمّ ذكَّرْتهُ اللهَ تعالى و انتهاء قضائه و قدره ، فقال: أستغفر الله إنا لله وإنــــا إليه راجعون ، ثم قال : المصلحةُ كَتْمُ ذلك ، و إخفــاؤه ، لئــلا يتّصــلَ بالعدوّ ونحن ننازله ، ثم أحضر الطعامَ فأكل الجماعةُ و انفصلوا ، وكــان الكتاب الواصل المتضّمن نَعْيَهُ هو غيرَ الكتاب الواصل إلى حماة بنعيــه في طيّ كتابٍ وصل من النائب بها ، و كانت وفاتُه بطريــق خِــلاط ، عائداً إلــى مــيّافارقين ، فحُمِلَ ميتاً إلى ميافارقين ، ثم عُمِلتْ له تربــةٌ عليها مدرسةٌ مشهورة بأرض حماة ، و حُمِل إليــها وزُرْتُ ضريحَــه ، وكانت وفاتُه تاسعَ عشرَ رمضانَ سنةَ سبعٍ و ثمانين .

﴿ذكر كتاب وَصَلَ من بغداد﴾

و لما كان الثاني عشر مِنْ شوّال وصل من دمشــق كتــابٌ مــن النواب بها في طَيِّه كتابٌ من بغداد من الديوان العزيز النبوي [1] مجَّــده الله ، يتضمّنُ فصولاً ثلاثةً :

الأوَّلُ الإنكار على الملك المظفّر في مسيره إلى بكتمر، و بولــغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لا يسلمه .

و الفصل الثاني يتضمّن الإنكارَ على مظفّر الدين في إمساك حسن ابن قفجان ، و الأمر بإعادته إلى الكرخاني ، و بولغ فيه حتــى قيـل إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكناها ، و كانت قصــة حســن بــن قفجان، أنه قصد أرمية إلــى السلطان طغريل ، فإنه كان قد نزل به في

(١) كان يلي الخلافة آنئذ الناصر لدين الله أحمد بن الحسن ، حكَمَ ما بين عام ٥٧٥ و ٦٢٢ هـــ. قال الذهبي : و لم يل الخلافة أحد أطول مدّة منه .

معونته لمّا هرب من ديار العجم و استنصر به ، و تزوّج أخته ، و وقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ، و يملك به البلاد ، فقصد أرمية فقتل أهلها على ما قيل ، و سَبَى نساءهم و ذراريّهم ، و تعرّض للقوافل ، و كانتْ معقله الكرخاني ، فلمّا وجد السلطانُ طغريل قوتّه تركه و انصرف عنه و عاد إلى بلاده ، و أظهر الفسادَ في الأرض ، و التعرّضَ للقوافل على ما قيل ، فاستعطفه مظفّر الدّين صاحب إربل ، حتى عاد إليه و انخرط في سلك أصحابه ، و قبض عليه و أنفذ إلى الديوان العزيز ذلك و في معناه استيلاءُ مظفّر الدّين على بلاده ، و لعلّه تشفع إلى الديوان فاقتضتْ عاطفتُه ذلك في حقّه.

و أما الفصل الثالث فكان يتضمّن التقدُّم بإحضار القاضي الفاضل في الديوان رسولاً لتقرّر عليه قواعد ،و يُسَرّ إليه أسباب .

هكذا كان مضمون الكتاب و أما الجواب عنه فإنّ السلطان أجاب عن الفصل الأوّل بأنا لم نأمرْه بشيء من ذلك ، و إنما عبر ليجمع العساكر و يعود إلى الجهاد ، فاتفقت أسباب اقتضت ذلك ، و قد أمرنا بالعود . و أما الفصل الثاني فأجاب عنه بأنه عرّفهم حال ابن قفجان و ما تصدّى له من الفساد في الأرض ، و أنه قد تقدّم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى الشام، فيقطعه فيه ، و يكون ملازماً للجهاد . و أما الفصل الثالث فإنه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الأمراض، وقوتّه تضعف من الحركة إلى العراق ، فهذا كان حاصل الجواب .

﴿ذكر وصول صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيس﴾

و لما كان ثالثَ عشرَ شوالٍ وصل مَنْ أخبر بوصـــول صـــاحب صَيْدا من جانب المركيس صاحب صور ، و كان قد جرى بيننا و بينـــه أحاديثُ متردِّدة حاصلُها أنـــهم ينقطعـــون عـــن الإفرنـــج و نصرتـــهم و يصيرون معَنا عليهم ، بناء على فتنة كانتْ قد جرتْ للمركيـــس مـــع الملوك بسبب امرأة تزوَّجها كانت زوجةً لأخي الملك جفـــري ، و قبُـــح نكاحُها بأمر اقتضاه دينُهم ، فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه فأخذ زوجته و هرب تحتَ الليل إلى صور و أخلد إلـــى الســـلطان و الاعتضاد به ، و كان في ذلك مصلحةٌ للمسلمين لانقطاع المركيس عن الإفرنج ، فإنه كان أشدهم بأساً ، و أعظمهم للحرب مراساً ، و أثبتهم في التدبير أساساً . و حيث اتّصل خبرُ وصول هذا الرسول بالسلطان أمـــر بإجلاله و احترامه فضُربت خيمة ، و ضرب حولها شقة ، و وُضع فيـــها من الطرح و الفَرْش ما يليقُ بعظمائهم و ملوكهم ، و أَمَر بإنزالـــه فـــي الثقل يستريح ثم يجتمع به .

﴿ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه إياس المهراني﴾

و لما كان سادسَ عشرَ شوالٍ أمر السلطان الحلقة أن كمنتْ للعدو في بطون أودية هناك و استصحبوا جماعةً من العـــرب ، فلمـــا اســـتقرّ الكمينُ في موضعه ظهرت العرب على جاري عادتـــها فـــي مناوشـــتها

العدوّ، وكان العدّو تخرج منه جماعة للاحتشاش و الاحتطاب قريباً مــن مخيّمه ، تضرب العربَ و تضرب العربُ عليهم ، فضربوا عليهم و وقع الحرب بينهم ، و ثار الصياح .

و سَمِعَ العدوّ فركب منهم جمعٌ من الخيّالــة ، و طلبـوا جهــةَ العرب، فانهزم العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين و العدو يتبعهم طمعاً ، حتى قاربوا الكمينَ ، فخرج الكمينُ عليهم و صاحوا بهم صيحة الرجـل الواحد ، فانهزموا بينَ أيديهم نحو خيامهم ، و اتصل الخبرُ بالعدوّ فركب منهم خلق عظيم ، و قصدوا نحو الوقْعة ، و التحم القتالُ، و اشتدّ الأمر ، و قُتِل جمعٌ من الطائفتيْنِ ، و أُسِرَ و جُرِح جمعٌ من العدو ، و أُخذ منـهم خيلٌ كثيرة .

و كان سبب انفصال الحرب أن السلطان أحس بهذه الوقعة فـأنفذ أمراءَ أُخَرَ : أسلم و سيف الدين يازكج و مَنْ يجري مجراهمـا رِدْءاً (١) للمسلمين ، و قال إذا رأيتم الغلبة على الكمين فاظهروا ، فلما رأوا الكثرة من جانب العدوّ خرجوا بخيلهم و رَجِلهم ، و لما رأى العدوُّ الأطـلابَ الإسلامية قد صوَّبَتْ نحوه أعنّةَ خيلها ولَّـوا الأدبـار نحـو خيامـهم ، والسيفُ يعمل في أقفيتهم ، حتى دخلوا الخيام و انفصل الحرب قبيـل الظهر ، و كان السلطان قد ركب متشوّقاً (٢) أخبارَ الكمين ، و كنتُ فـي خِدْمته ، و كان أول مَنْ دخل من الوقعة ، ووصل جماعةُ العرب و معهم خمسة رُؤُوْس من الخيل قد أخذوها ، و انفصلوا قبل انفصال الحـرب ، ومـا زالت الطلائع تتواتر و البشائر تتواصـل ، و قُتل من العدوّ زُهاءُ

(١)ردءاً : مناصرة . (٢) متشوقاً : مستطلعاً .

ستين نَفراً ، و جُرح من المسلمين جماعة منهم إياس المهراني ، و كان شجاعاً معروفاً ، و جاولي غلام القيدي ، و أُسِرَ من العدوّ فارسان معروفان ،و استأمن اثنان بخيولهما و عُدّتهما ، و عاد السلطان إلى خيمته فرِحاً مسروراً معوّضاً مَنْ قُتِل فرسُه ، متلطّفاً بالجريح مترحّماً على الشهيد .

و في بقية هذا اليوم وصل رسولُ الانكتار الى الملك العادل يعتبه على الكمين و يطلبُ الاجتماعَ به .

﴿ذكر ما جرى للملك العادل و الانكتار و اجتماعهما﴾

و لما كان الثامنَ عشرَ سار المِلكُ إلى اليزك و ضربت له قبة عظيمة ، و سار و معه من الأطعمة و الحلاوات و التجمّلات و التُّحف ما جرت العادةُ أن يُحْمَلَ من ملك إلى ملك ، و هو إذا تجمّل في ذلك لا يُغْلَب ، و سار الانكتار إلى خيمته و حضر عنده ، فاحترمه احتراماً عظيماً ، و وصل مع الانكتار إلى خيمته ، و أحضر مِنْ طعامِهم الذي يختصّون به ما أتحف به الملك العادل على وجه المطايبة ، فتناول منه الملكُ العادلُ ، و تناول هو و أصحابُه الواصلون معه من طعام الملك العادل ، و تحادثا مُعْظَمَ ذلك النهار ، و تفاصلا على توادّ ومحبة أكيدة .

﴿ذكر الرسالة التي أنفذها الانكتار إلى السلطان﴾

و في ذلك اليوم سأل الانكتار الملك العادل أن يلتمس من السلطان الاجتماعَ به و المثولَ بين يديه ، و لما وصلت هذه الرسالة شاور

السلطانُ الجماعةَ في الجواب فما منهم مَنْ وقع له ما وَقَع للسلطان . وذلك أنه قال : الملوكُ إذا اجتمعوا يقبحُ منهم المخاصمةُ بعد ذلك ، فإذا انقطع أَمْرٌ حَسُنَ الاجتماع ، و الاجتماعُ لا يكون إلا لمفاوضة في مهمّ وأنا لا أفهم بلسانك و أنت لا تفهم بلساني ، و لابدّ من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به، فليكن ذلك الترجمان رسولاً حتى يستقرّ أمر و تستتبّ قاعدةٌ(١)، و عند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد و المحبة . قال الرسول : و لمّا سمع الانكتار هذا الجوابَ استعظمه و علم أنه لا يقدر على بلوغ غرض إلاّ بالدخول تحت المراضي السُّلْطانية .

﴿ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان﴾

و لما كان التاسعَ عشرَ جلس السلطانُ و استحضر صاحبَ صيدا لسماع رسالته ، و كلامه ، فحضر و حضر معه جماعة وصلوا معه ، و كنت حاضرَ المجلسِ ،فأكرمه إكراماً عظيماً ، و حادثهم و قدّم بين أيديهم ما جرت به العادة. و لما فرغ الطعامُ خلا بهم ، و كان حديثُهم في أنّ السلطان يصالح المركيس صاحبَ صور ، و كان قد انضمّ إليه جماعة من أكابر الإفرنجة ، منهم صاحبُ صيدا و غيره من المعروفين ، و قد سبقت قصّته ، و كان من شروط الصُّلْح معه إظهار عداوة الإفرنج البحرية ، و كان سبب ذلك شدّة خوفه منهم و واقعة وقعتْ له معهم بسبب الزَّوجة ، و بذل له السلطانُ الموافقةَ على شروطٍ قصد بها الإيقاعَ

(١)تستتب : تستقر و تنتظم .

بينهم ، و أنْ يَقْتُلَ بعضُهم بعضاً فلما سمع السلطان حديثه وَعَدَ أنْ يـــرُدَّ عليه الجوابَ فيما بعد و انصرف عنه في ذلك اليوم .

﴿ذكر وصول رسول الانكتار و هو ابن الهنفري و هو مِنْ أكابرهم و ملوكهم و من أولاد ملوكهم﴾

ووصل و في صحبته شيخٌ كبير ذكروا أن عمرَه مائة و عشـــرون سنة ، فأحضره السلطان عندَه و سمع كلامَه ، و كانت رسالته أن الملــك يقول إني أحبّ صداقتك و مودّتك ، و إنك ذكرتَ أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكونَ حَكماً بيني و بينه ، و لا بدّ أن يكــــون لنا عُلْقة بالقدس الشريف ، و مقصودي أن نقسم بحيث لا يكون عليه لومٌ من المسلمين و لا عليَّ لوم من الإفرنجية ، فأجابه فــــي الحـــال بوعــد جميل، ثم أذن له في العَوْد في الحال و تأثّر بذلك تأثراً عظيماً ، و أنفـــذ وراءهم مَنْ سألهم عن حديث الأسارى ، و كان منفصلاً عـــــن حديـــث الصلح فقال : إن كان صلحٌ فعلى الجميع ، و إنْ لم يكن صلحٌ فلا يكـــون من حديث الأسارى شيء ، و كان غرضه رحمه الله أن يفســـخَ قـــاعدةَ الصلح ، فإنه التفتَ إليّ في آخر المجلس بعد انفصالِهم و قال : متى مـــا صالحْناهم لا تؤْمنْ غائلتهم (١) فإنني لو حدث بي حادث الموت ما تكـــاد تجتمع هذه العساكر ، و تقوى الإفرنج ، فالمصلحة أن لا نـــزال علـــى الجهاد حتى نخرجهم من السَّاحل أو يأتينا الموت . هذا كان رأيه ــ قدس

---

(١)غائلتهم : غدرهم .

الله روحه ــ و إنّما غُلِبَ على الصلح .

﴿ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكتار و المركيس ﴾

و لما كان حادي عشرَ شوالٍ جمع السلطانُ الأمــراء و الأكــابر و أرباب المشورة ، و ذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس ، و اسـتقرّ الأمر من جانبه عليها ، و هي أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الإفرنج، و يقاتلهم و يجاهرهم بالعُدْوان ، و ذكر ما التمسه الملكُ من تقرير قـاعدة الصُّلْح ، و هي أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضعُ معينة ، و تكون لنا الجبليات بأسرها ، أو تكون القرى كلّها مناصفــة ، و علــى هذيــن القسمين يكون لهم قسوسٌ في بِيَعِ القدس الشريف و كنائســه . و كــان الانكتار قد خيّرنا بين هذين القسمين ، فشرح (١) ــ قدس الله روحــه ــ الحالَ في القاعدتين للأمراء و استنبط آراءهم في ترجيح أحد الحــالتين : الانكتار والمركيس ، و ترجيح أحد القسميْنِ المذكورين من جانب الملك، فرأى أربابُ الرأي أنه إنْ كان صلحٌ فليكنْ مع الملك ، فــإنّ مصافــاتِ الإفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدةٌ غير مأمونة الغائلة ، و انفــض الناسُ ، و بقي الحديث متردّداً في الصلح و الرسل تتواصل في تقريــر قواعد الصلح .

و أصلُ التقاعدِ أنّ الملكَ قد بذل أختَه للملــك العــادل بطريــق التَّزويج ، و أن تكون البلادُ الساحلية الإسلامية و الإفرنجية لهما ، فأمــا الإفرنجية فلها من جانب أخيها ، و الإسلامية له من جــانب الســلطان ، وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أنْ قال : إن معاشر دينِ

(١)فاعل " شرح " ضمير مستتر جوازاً يعود إلى الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله .

النصرانية قد أنكروا علي وضع أختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا ، و هو كبير دين النصرانية و مقدمه ، و ها أنا أسير إليه رسولا يعود في ستة أشهر ، فإن أذن فبها و نعمت ، و إلا زوجتك ابنة أخي و ما أحتاج إلى إذنه في ذلك . هذا كله و سوق الحرب قائم [1] و القتال عليهم ضربة لازم . و صاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ، و يشرف على الإفرنج ، و هم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين، و عند ذلك تنكسر شوكتهم ، و لم يزل الحال كذلك إلى خامس عشر شوال.

﴿ذكر رحيله رحمه الله إلى تل الجزر﴾

و لما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيل و أحضر أرباب الرأي و شاورهم في جواب رسالة القوم ، و عرض عليهم حديثه و ذكر ما عندهم في ذلك و أحضر الرسل ، و كان ابن الهنفري يترجم بينه و بين البحريين[2] و استقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين : رسولا من جانبه ، و من جانب العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلق به ، و كان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا العقد تم ، وإن لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك و هي بكر ، و ذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يحتاج إلى إذنه في تزويج الثيب من بنات الملوك ، و أما الأبكار فيزوجها أهلها .

(١)كلمة " سوق " تذكر و تؤنث .(٢) البحريون : القادمون من البحر ،وهم الصليبيون كانوا يبحرون من أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط ليواصلوا عدوانهم على الشرق الأوسط .

و انفصل الحال على ذلك و سارت الرسل إلى خيمِ العادل ليجّهز رسولَ السلطان و يُلحقه ، ثم وصل بعد ذلك مِن اليزك مَنْ أخبر أنّ الفرنج قد انتشر منهم راجلٌ كثير ، و خرجوا عن الأسوار التي لهم ولم يظهر لخروجهم غائلةٌ ، و سار ــ رحمة الله عليه ــ إلى تلّ الجزر[1] لارتياد[2] اليزك ، و تبعه الناس في الرحيل ، فما كان الظهرُ إلاّ و رحلَ الناسُ إلى السّلطان ونزلنْا بتل الجزر .

و لما عرف الإفرنج بِعَوْدِ السُّلْطان رحلوا عائدين ، وأقام السلطانُ بتلّ الجزر ، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف ، و رحل الإفرنج إلى جهة بلادهم ، و اشتّد الشتاء و عظُمت الأمطار ، و سار السلطانُ إلى القدس الشريف و أعطى العسكر دستوراً [3] و أقمْنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع و عاد العدوّ إلى بلاده ، و وصل الانكتار عساكره إلى يافا ، و عاد إلى عكا ينظر في أحوالها ، فأقام مدّة ، ثم وصل منه رسولٌ يقول : إنّي أوثر الاجتماع بالملك العادل ، ففيه مصلحةٌ تعود على الطائفتيْنِ ، فقد بلغني أنّ السلطانَ فوّض أمرَ الصلحِ إلى أخيه الملك العادل ، فاتّفق الرأي في مُضِيّ الملك العادل على أنّه يمضي بحيث يجتمعُ بعساكرنا التي في الغَوْر و كوكب و تلك النواحي ، و يحدّثه ، ويقول له : إنّ الحديث جرَى بيننا مراراً و ما أسفر عن مصلحة ، فإنْ كانتْ هذه الدُّفْعة كتلك الدفعات فلا حاجةَ إلى الحديث . و إن كان الغرضُ بتَّ حال فقارب الحال ، و أنا لا أجتمعُ بك إلاّ أنْ أرَى ما

(١)تل جزر : " حصن من أعمال فلسطين " [معجم البلدان ٢/٤١] .

(٢)ارتياد : طلب . (٣) دستور إجازة .

يقارب فصل الحال ، وقرر مع الملك العادل أن رأى ما يمكن معه فصل الحال ، و إلا طاوله و ماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف ، فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء ما ينفصل الحال عليه ، فكتب تذكرة فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها، و أن نعطي صليب الصلبوت ويكون لهم في القمامة[1] قس ، و يفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح ، و كان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة[2] و كثرة الديون و البعد عن الأوطان، فإن من الناس من كان لا يفارق السلطان و لا يمكنه طلب دستور منه .

﴿ذكر مسير الملك العادل﴾

و كان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة ، ثم وصل كتابه من كيسان يخبر أنه لقيه الهنفري مع الحاجب أبي بكر رسولا من الانكتار ، يقول : إنا قد وافقنا على قسمة البلاد ، و إن كل من في يده شيء فهو له ، فإن كان ما في أيدينا زائدا أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا ، و إن كان ما

---

(١)قمامة (بالضم) : " أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس ، وصفها لا ينضبط حسنا و كثرة مال و تنميق عمارة ، و هي في وسط البلد و السور يحيط بها ، و لهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها ، و الصحيح أن اسمها قمامة ، لأنها كانت مزبلة أهل البلد، و كانت في ظاهر المدينة يقطع بها أيدي المفسدين و يصلب بها اللصوص ، فلما صلب المسيح [أي الشخص الذي ألقي عليه الشبه بالمسيح عليه السلام] في هذا الموضع عظموه " [معجم البلدان ٣٩٦/٤] . (٢) الغزاة : الغزو .

في أيديكم أكثرَ فعلْنا كذلك ، و يكون القدسُ لنا ، و لكم فيه الصخـرة[1]، هكذا كان مضمون الكتاب ، فأوقف السلطانُ عليه الأمراءَ، فاستصوبَ ذلكَ الأميرُ أبو الهيجاء ، و رأوا من حال هذا المقال أنْ يُوافق عليه الملكُ العادل ، و هو مصلحة ، و سار الجوابُ إلى الملك العادل في ذلك.

و لما كان حاديْ عشرَ ربيعٍ الأول وصل الحاجبُ أبو بكر صاحبُ الملك العادل يخبر أن الانكتار سار إلى يافا من عكّا ، و أن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضاتٌ كثيرة حاصلُها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعةُ في أيدينا و الباقي مناصفة ، و أن لا يكونَ في البلد منهم مذكورٌ ، و أنْ تكونَ قُرى القدس و باطنُه مناصفةً ، ثم قدم الملك العادلُ في سادسَ عشرَ ربيع الأول من الغَوْر ، و لقيه السلطانُ وحكى ما سبق من الخبر .

و في بقية ذلك اليوم وصل مَنْ أخبر أن الإفرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون ، و أنهم أخذوا منهم جماعة ، و أنهم أخذوا منهم زُهاءَ ألفِ رأس غنم ، فعظُم ذلك على السلطان و شقَّ عليه فسيّر جماعةً فلم تَلْحقْهم .

---

(١)" يزعمون أنّها انشقّت و قام آدم من تحتها ، و الصلبوت فوقها سوّي " [معجم البلدان ٣٩٦/٤] .

﴿ذكر انفصال رسول المركيس﴾

و كان قد وصل يوسفُ غلام صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيس يلتمس الصّلح من المسلمين ، فاشترط ـ رحمة الله عليه ـ شروطاً، منها : أن يقاتل جنسَه و يباينهم . و منها : أن ما يأخذُه من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له ، و ما نأخذه نحن بانفرادنا يكونُ لنا ، و ما نتّفق نحن و هو على أَخْذِه تكون له نفسُ البلد ، و يكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين و غير ذلك من الأموال . و منها : أنْ يُطِلِق لنا كلَّ أسير مسلم في مملكته . و منها أَنْ فَوّض الانكتار إليه أمرَ البلاد لأمر يجري بينهم . كان الصلحُ بيننا و بينه على ما استقرّ بيننا وبين الانكتار ما عدا عسقلاّن و ما بعدها ، فلا يدخل في الصلح ، وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا و ما في الوسط مناصفة ، و سار رسوله على هذه القاعدة .

ولما كان يوم الاثنين الثامن و العشرون من ربيع الأول وصل أسدُ الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، ووصل جريدة مقدّماً على عسكره .

﴿ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الأسر(١)﴾

و كان وصوله إلى القدس الشريف يوم الخميس مستهلّ جُمادى الأخرى ، دخل على السلطان بَغْتة و عنده أخوه الملك العادل ، فنهض له و اعتنقه و سُرَّ به سروراً عظيماً ، و أخلى المكانَ و تحدّث معه بطرَفٍ من أحاديث العدو ، و سأله عن حديث الصُّلح ، فذكر أنَّ الانكتار سَكَتَ عنه .

و في هذا اليوم كتب السلطانُ إلى ولده الملك الأفضل أنْ يسير إلى قاطع الغزاة ، و يستلمَ البلادَ من الملك المنصور بن الملك المظفّر ، و كان قد أظهر العصيانَ بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ، و دخل في أمره الملكُ العادلُ ، و سيّر إلى الملك العادل حتى يتحدّث في أمره . و كان ذلك قد شقَّ على السلطانِ و أثارَ منه غيظاً عظيماً : كيف يكون هذا الأمر من أهله و لم يكن أحدٌ من أهله خاف منه و لا طلبَ يمينه ، و هذا كان السبب في توقُّف الانكتار في الصلح ، فإنّه ظنّ أن خلافه يكدّر للسلطان شرب الغزاة ، و يحوجه إلى الموافقة على

(١)" سيف الدين علي بن أحمد المشطوب : كان من أصحاب أسد الدّين شيركوه ، حضر معه الوقعات الثلاث بمصر ، ثم صار من كبراء أمراء صلاح الدين و هو الذي كان نائباً على عكا لمّا أخذها الفرنج ، فأسروه في جُملة من أسروا فافتدى نفسه بخمسين ألفَ دينار ، و جاء إلى السلطان و هو بالقدس ، فأعطاه أكثرها ، وولاّه نابلس . توفي يوم الأحد ثالث و عشرين شوال (٥٨٨هـ) بالقدس و دُفن في داره " [البداية و النهاية ٣٤٨/١٢] وقال أبو الفدا : " وفي يوم الخميس السادس و العشرين من شوال من هذه السنة توفّي الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب بنابلس " [المختصر في أخبار البشر ٨٣/٣] .

ما يَرْضاه ، فأنفذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، و كتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة أنّ أخاه إنِ احتاجَ إلى معونة عاونه وجهّزه بحملة كبيرة ، و سار باحترام عظيم ، حتى وصل إلى حلب وأكرمَه أخوه الملكُ الظاهر إكراماً عظيماً ، و عمل له ضيافةً تامةً و قدَّم بين يديه تقدِمةً سَنِيّةً . و عدْنا إلى حديث العدوّ .

﴿ذكْر عَوْد رسول صور﴾

و لما كان سادسُ ربيعٍ الآخر من سنة ثمانٍ و ثمانين و خمسمائة وصل يوسفُ(١) من جانب المركيس يجدّد حديثَ الصلح ، و يقول قد انفصل الحالُ على شيءٍ بينه و بين الإفرنجية . فإنْ نجز في هذه الأيام سارت الفرنسيسية في البحر ، و إنْ تأخّر بطل الحديث في الصلح بالكلّيّة، فرأى السلطان الصلحَ مع المركيس مصلحةً لاشتغال قلبِه من جانب الشرق ، و خاف أن يتّصل ابن تقي الدين بكتمر فيحدُث من ذلك ما يشغل الخاطر من الجهاد ، فأجاب إلى ملتمس المركيس ، و كتب مع صاحبه مواضعةً على نعت ما تقدّم ، و سار يوسفُ الرسول بالجواب تاسعَ ربيعٍ الآخر .

﴿ذكر قتل المركيس﴾

و لما كان السادسَ عشرَ من الشهر وصل من الرسول المُنْفَذ إلى المركيس كتابٌ أنّ المركيس قُتِلَ و عجل الله بروحه إلى النار،

---

(١)غلام صاحب صيدا .

وكانتْ صورةُ قتله أنّه تقدّم يوم الثلاثاء ثالثَ عشر عند الأُسْـــقُفّ ، ثـــم خرج ، فقفز عليه اثنان مِنْ أصحابه بالسّكاكين ، و كان خفيفاً من الرجال فما زالا يضربانه حتى عجَّل الله بروحه إلى النار ، و أُمْسِكَ الشـــخصان وسُئلا عن هذا الأمر ومنْ حضّهما عليه ، فقالا : إنّ الانكتار حملَنا عليه، و قام بالأمر اثنان ، فحفِظا القلعةَ إلى أن اتّصل الخبر بالملوك و انعقـــد الأمر و تدبّر المكان .

﴿ذكر تتمّة خبر الملك المنصور و ما جَرَى له﴾

و ذلك أنّه لما بلغه مؤاخذةُ السلطان أنفذَ إلى الملك العادل رســـولاً يشفع به ليطيّب قلبَ السلطان ، و يقترح عليه أحد قسميْنِ إمّـــا حـــرّان والرّها و سميساط و إمّا حماة و منبج و سلمية و المعرة ، مـــع كفالـــة إخوته ، فراجع الملك العادل السلطان مراراً فلم يجبْه إلى شيء من ذلك، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، و هزّت شجرَ رأفةٍ منه ، فرجع خلقه النبوي و حلف له على حرّان والرّها و سميساط ، على أنّه إذا عبر الفرات أعطى المواضع أفراجها ، و تكفّل إخوته ، و يتخلى عـــن تلـــك المواضع التي في يده ، و دخلتْ تحتَ ضمان الملك العادل ، ثم التمـــس الملك العادل خطّ السلطان ثانياً ، و ألحَّ عليه فمزّق نسخةَ اليميـــن فـــي التاسع و العشرين من ربيع الآخر ، و انفصل الحال ، و انقطع الحديث ، و كنت المتردّد بينهما في ذلك ، و أخذ الغيظ السلطان : كيف يخـــاطب بمثل ذلك من جانب أولاد أولاده .

﴿ذكر قدوم رسول ملك الروم﴾

و لما كان مستهلّ جمادى الأولى وصل رسولٌ من قسطنطينية الكبرى ، و التقى بالاحترام و الإكرام ، و مثل بالخدمة السلطانية في ثالثِ الشهر ، و كانت رسالته تشتمل على مطالب ، منها صليبُ الصلبوت ، و منها أن تكون القُمامة بيد قُسوسٍ من جانبه ، و كذا سائر كنائسِ القدس ، و منها أن يكون الاتفّاق معه على أن يكون عدوٌّ مَنْ عاداه و صَديقَ مَنْ صادقه ، و أنْ يوافقَ على قصد جزيرة قبرص فأقلم عنده يومين ثم سَيَّرَ معه رسولاً يقال له ابن البزاز، من الديار المصرية، و أُجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، و قيل إن الصليب قد بذل فيه الملك الكرج مئتي ألف دينار فلم يُجَبْ إلى ذلك .

﴿ذكر ما جرى للملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفرات﴾

و ذلك أنّه لما سار الملك الأفضلُ رقّق الملك العادل قلبَ السلطان على ابن تقّي الدين ، و قد كثر الحديث في معناه ، و أنفذني السلطانُ لمشاورة الأمراء في خدمة الملك العادل في أمره ، فجمعَهم في خدمته ، فذكرتُ لهم ما أرسلني فيه إليهم ، فانتُدِبَ الأمير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب ، و قال : نحن عبيدُه و مماليكه ، و ذلك صبّي ، و ربّما حمله خوفُه أن انضاف إلى جانب آخر ، و نحن لا نقدر على الجمع بين قتال المسلمين و الكفار ، فإن أراد أنْ نقاتل المسلمين صالحنا الكفار و سرنا

إلى ذلك الجانب و قاتلْنا بين يديه ، و إن أراد منا ملازَمةَ الغَزاة صـــالح المسلمين و سامحَهم . و هذا كان جواب الجميع . فَرقَّ السلطانُ ، و جدَّدَ نسخةَ يمين لابن تقّي الدين ، و حلف له بها ، و أعطاه خطّه بما اســـتقرّ من القاعدة .

ثم إنّ الملكَ العادل التمس من السلطان البلادَ التي كانت بيد ابـــن تقي الدين بعد استقلاله ، وجرت مراجعاتٌ كثيرة في العِـــوَضِ عنـــها ، وكنت الرسولَ بينهما ، و كان آخر ما استقر أنه يسلم تلك البلاد ، وينزل عنْ كل ما هو شاميّ الفرات ماعدا الكرك و الشوبك و الصلت والبلقاء ، و حاصَّه بمصر بعد النزول عن الجيزة ، و عليه في كل سنة ســتة آلاف غِرارة[1] غلّة ، تحمل للسلطان من الصلت و البلقاء إلى القدس والمُغَلّ[2] في السنة المذكورة في مواضعه له ، و مُغَلّ قاطع الفرات في هذه الســنة للسلطان أيضاً ، و أخذ خطّ السلطان بذلك ، و سار بنفسه يصلح أمر تقّي الدين و يطيّب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادى الأولى.

﴿ذكر استيلاء الفرنج على الدارون﴾

و كان الإفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ لمّا رأوا أنّ السلطانَ قـــد أعطى العساكرَ دستوراً[3] وتفرّقت العساكر عنه نزلوا علـــى الـــدارون طمعاً فيه ، و كان بيد علم الدين قيصر ، و فيه نوّابه ، و لما كان يـــوم تاسع جمادَى الأولى اشتدّ زحفُ العدو علـــى المـــكان راجلاً و فارساً ،

(١)الغِرارة : وعاء من الخيش و نحوه توضع فيه الحبوب .

(٢)من الغَلّة (بفتح الغين) وهي ريْع الأرض . (٣) دستور : إجازة ، إذْن .

و كان الانكتار قد استنفذ من نوبة عكاً نقّابين جبليّين ، فتمكنوا من نَقْب المكان ، و أحرقوا النقب ، و طلب أهل الحصن مُهْلة بحيث يشاورون السلطان فلم يُمْهلوهم ، و اشتدّوا في القتال عليه فأخذوه عَنْوةً[1] ، واستُشْهِدَ فيه مَنْ قَدَّرَ الله له ذلك و أُسِرَ مَنْ قدّر له ذلك ، و كان ذلك قدَراً مقدوراً .

﴿ذكر قصدهم لمجدل يابا﴾

و لما استولى الإفرنجُ على الداروان ساروا بعد أن قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلةٍ يقال لها الحسي ، وهي قريبٌ من جبل الخليل عليه السلام و ذلك في رابع عشر جمادى الأولى ، فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا[2]فأتوه جريدة وخلفوا خيامهم في منزلتهم، وكان بها عسكر إسلامي ، فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم ، و قُتِلَ من العدو كِنْدٌ مذكور ، و استشهد من المسلمين فارس واحدٌ ، كان سبب قتله أنه وقع رمحه ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب، فبادروه وقتلوه،وعادوا إلى خيامهم بقية اليوم خائبين ولله الحمد.

﴿ذكر وقعة جرتْ في صور﴾

و لما كان سادسَ عشرَ جُمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلّف في صُور مائةُ راكب ، و انضمّ إليهم مِنْ عكّا خمسون ،

(١)عنوة : قَسْراً .

(٢)في معجم البلدان ٥/٥٧ : " مَجْدليابة : قرية قرب الرملة فيها حصن محكم " .

و طمعوا فخرجوا لشنّ الغارات على البلاد الإسلامية ، فوقع عليهم العسكر المُرْصد لحفظ البلاد من ذلك الطَّرفِ ، وجرى بينهم قتالٌ شديد ، و قُتِلَ من العدو خمسةَ عشرَ نفراً ، و لم يُقتل من المسلمين أحدٌ ، وعادوا خائبين و لله الحمد .

﴿ذكر قدوم العساكر الإسلامية للجهاد﴾

و لما رأى السّلطان ما جرى من العدوّ من التنبط[1] سيَّر إلى العساكر من سائر الأطراف أن يسابقوا إلى الحضور و كان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خَلْقٍ كثير من التركمان ، فلقيه السلطان و احترمَه ، ووصل بعده عز الدين بن المقّدم في سابع عشرَ جمادى الأولى بعسكر حسن و آلات جميلة ، ففرح به السلطانُ .

و أما العدوّ فإنه رحل من الحسْي ، و نزل على مفرق طُرقٍ ، منها طريق عسقلاّن و طريق إلى بيت جبرين و إلى غير ذلك من الحصون الإسلامية . و لما بلغ السلطان ذلك أَمر العساكر أن سارتْ نحوه ، فخرج أبو الهيجاء السمين و بدر الدين دلدرم و ابن المقدّم وتتابعت العسكر و تخلّف هو في القدس لنوع التياثٍ كان عَرَضَ له ، فلما أحسّ العدوّ المخذولُ بظهور العساكر الإسلامية عاد خائباً خاسراً ناكصاً على عقبيه، ووصلت الكتبُ من الأمراء مخبرين برحيل العدوّ إلى عسقلان.

---

(١)التنبّط : من نَبَط الشيءُ إذا ظهر بعد خفاء . و التلبّط (باللام) : من تلبّط : إذا صُرِعَ ، أو اختلط عليه أمره .

﴿ذكر تعبية العدوّ لقصد القدس الشريف﴾

و لما كان يومُ السبت الثالث و العشرين من جمادى الأولى وصل قاصدٌ من العسكر يخبر أن العدوّ قد خرج في راجله و فارسه و سواد عظيم و خيم على تلّ الصافية[1] ، فسيّر السلطان إلى العساكر الإسلامية ينذرها و يحذرها ، و استدعى الأمراء جريدة إليه ، ليعقدوا رأياً فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل و رحل العدوّ من تل الصافية إلى جانب النطرون ، فنزل شِماليّه ، و ذلك في السادس و العشرين من جمادى الأولى ، و كانت قد سارت من عرب الإسلام جماعةٌ للغارة على يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدوّ ، فنزلوا في بعض الطريق يقسمون ، فوقعت عليهم عساكرُ العدوّ ، فأخذوهم ، وهَبَ منهم ستّةُ نفر ، فوصلوا إلى السلطان و أخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس و تواترت الأخبار من جانب العدوّ أنه مقيم بالنطرون لنقل الأزواد و الآلات التي تدعو الحاجةُ إليها في الحرب ، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى . و في يوم الأربعاء وصل منهم رسولٌ صُحْبَتَهُ غلامٌ كان للمشطوب عندهم يحدّث في معنى قراقوش[2] ويتحدّث في معنى الصُلح .

---

(١)تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين ، قرب بيت جبرين من نواحي الرّملة .

(٢) كان لا يزال في الأسر منذ أخذ الصليبيّون عكاً .

﴿ذكر نزولهم في بيت نوبة و هو موضع وطاة بين﴾
﴿جبال يُبْنى ، بينه و بين القدس مرحلة﴾

رحل العدوّ من النطرون يوم الأربعاء السابع و العشرين من جُمادى الأولى و نزلوا ببيت نوبة . و لما عرف السلطان ذلك استحضر الأمراء و ضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأي أنْ يَقْسم الأسوار على الأمراء ، و يخرج ببقيّة العسكر جريدةً إلى جهة العدوّ ، فإذا عرف كلّ قوم موضعهم من السور استعدّوا ، فإنْ دعت الحاجةُ إليهم خرجوا ، و إن دعت الحاجةُ إلى ملازمة مواضعهم لازموها ، فكُتبت الرّقاع و سُيّرت إلى الأمراء .

و كانت طريقُ يافا سابلةً(١) لمن ينقل الميرةَ إلى العدوّ ، فأمرَ السلطانُ مَنْ في اليزك أنْ يعمل معهم ما يمكنه ، و كان في اليزك بدر الدين دلدرم ، فكَمَن حولَ الطريق جماعةٌ جيّدةٌ ، فمرّ بهم جمعٌ من خَيّالة العدوّ يحمون قافلةً تحمل ميرةَ فاستضعفوهم ، فحملوا عليهم و جرى قتالٌ عظيمٌ كانت الدائرةُ فيه على العدوّ ، و قُتِلَ منهم ثلاثون نفراً ، و أسِرَ جماعة ، ووصل الأسارى في التاسع و العشرين من جُمادى الأولى إلى القدس ، و كان لدخولهم وقعٌ عظيم و جرى على العدوّ من ذلك وَهْنٌ كبير ، و قويت قلوبُ اليزكيّة ، و انبعثتْ هممُهم حتى حملوا على العسكر ، و نزلوا إلى أطراف الخيم و لله الحمد .

---

(١) سابلة : سالكة .

و لما علم المسلمون أنّ القوافل لا تنقطعُ خرج جماعةٌ و أخـــذوا معهم عرباً كثيرةً و كمنوا كميناً ، و اجتازت القافلةُ و معها جماعةٌ كثيرة فخرجت العربُ على القافلة ، و تبعتْهم الخَيّالةُ ، فدُحـــروا بيـــن أيديـــهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتراك عليهم فـــأُخِذُوا و قُتِلـــوا(١) ، وجُرِح من الأتراك جماعة ، و ذلك في ثالث جمادى الآخرة .

﴿ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى﴾

و ذلك أنه كان قد تقدّم إلى عسكر مصـــر بالمســـير و أوصـــاهم بالاحتراز و الاحتياط عند مقاربة العدوّ ، فأقاموا ببلبيـــس أيّامـــاً حتـــى اجتمعت القوافل إليهم ، و اتّصل خبرهم بالعدوّ ، ثم ساروا طالبين البلادَ، و العدوُّ يترقّبُ أخبارَهم و يتوصّل إليها بالعرب المُفْسِدين . و لما تحقّـــق العدوُّ خبرَ القوافل أَمَر عسكره بالاحتياط و التحفُّظ ، و سارَ حتى أتى تلّ الصافية ، فباتَ ثم سار حتى أتى الصَّافية ، ثم علق على خيلـــه فئـــةً ، وسار حتى أتى ماءً يقابل الحِسْيَ ، و اتّصل خبرُ نهضة العدوّ بالســـلطان فأنفذ بنذيرٍ للقافلة ، و كان المندوب لذلك الأمير " أخر أسلم " "والطنبـــا العادلي" و جماعة من الفرسان المذكورين ، و أمرهم أنْ يبعدوا بالقافلـــة في البرّيّة ، و يتباعدوا من العدوّ ما أمكنَ ، فاتّفق أن العســـكر وصـــل الحِسْيَ قبل وصول العدوّ إليه ، فلم يقيموا عليه ، و ساروا حتى وصلـــوا القَفْل(٢) و العسكر المصريّ ، فأتوا بالقفل على ذلك الطريق ، ثقةً منهم

(١)أُخِذَتْ خيّالةُ العدوّ و قتلوا ، قتلهم الأتراك .

(٢)القَفْل : المسافرون في قافلة (رفقة كثيرة معها دوابّها و أمتعتها و زادها) .

بأنّهم لم يجدوا فيه ذاعراً[١] و لا أحَسُّوا فيه بمخوف ، فرغبوا في قـرب الطريق ، و سلكوا بالناس هذا الطريق ، حتّى وصلوا إلى ماء يقال لـه الخويلفة ، و تفرّق الناسُ لأجل الماء ، فأخبر العرب العدوّ بذلك ، وهـو نازلٌ برأس الحسْي ، فقام مِنْ وقته ، و سَرى حتى أتاهم قُبَيْلَ الصبـح ، وكان مقَدَّمَ العسكر فلكُ الدين أخو الملك العادل لأمّـه ، فأشـار "أسـلم" بالمسير ليلاً قطعاً للطريق ، و استظهاراً بالصعود الجبل ، فخاف فلـكُ الدين أنّه إنْ رحلَ بالليل جرى أمرٌ على القافلة ، لتبدُّدِها ، فنـادى فـي الناس أنْ لا يرحلوا إلى الصباح .

و أما الانكتار فبلغنَا أنّه لما بلغه الخبرُ لم يصدِّقْه ، و ركب مـع العرب بجمع يسير ، و سار حتى أتى القفل ، فطاف حوله في صـورة عربيّ ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاسُ فعاد و اسـتركبَ عسـكره ، وكانت الكبسةُ قريبَ الصباح ، فبغَتَ[٢] الناس ووقع عليهم بخيلِه ورَجِلِـه و كان الشّجاعُ هو الذي ركبَ فرسَه ونجا بنفسه ، و انهزم النـاسُ إلـى جهة القَفْل ، والعدوُّ يتلوهم ، فلما رأوا القَفْلَ أعرضوا عن قتال العسكر ، و طلبوا القَفْلَ فانقسم القفلُ ثلاثةَ أقسامٍ ، قسم قصدوا الكرك مع جماعـة من العرب و عسكر الملك العادل ، و قسم أوغلوا في البرية مع جماعـة العرب أيضاً ، و قسمٌ استولى عليهم العدو فساقهم بجمالـهم و أحمالـهم وجميعِ ما كان معهم ، و كانت وقعةٌ شنعاءَ لم يُصبِ الإسلامُ بمثلها مـن مُدّة مديدة . و كـان في العسكر المصري جماعةٌ من المذكورين كحسين

---

(١)ذاعر : مُفْزِع .

(٢)بغَتَ : فاجأ .

الجراحي و فلك الدين و بني الجاولي و غيرهم من المذكورين و قُتِلَ من العدوّ زُهاء مئتي فارس على رواية ، و عشرة أنفس على رواية . و لم يقتل من المسلمين معروفٌ[1] سوى الحاجب يوسف و ابن الجاولي الصغير ، فإنهما استُشْهدا إلى رحمة الله تعالى . و تبدَّد الناسُ في البرّيّة ورمَوا أموالَهم ، و كان السعيدُ منهم مَنْ نجا بنفسه ، و جمع العدوُّ ما أمكنهم جمعُه من الخيل و البغال و الجمال و الأقمشة و سائرِ أنواع الأموال ، و كلّفَ الجمّالين خدمةَ الجمال و الجربندية خدمة البغال والساسة خدمة الخيل ، و سار في جحفل من الغنيمة يطلُب عسكره ، فنزل على الخويلفة فاستقى منها ، ثم سار حتى أتى الحِسْي .

و لقد حكى لي مَنْ كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصّوتُ أنّ عسكر السلطان قد قصدهم فتركوا الغنيمةَ و انهزموا و بُعُدوا عنها زماناً ، ولمّا انكشف لهم أنّ العسكر لم يلحقهم عادوا إلى الرحل ، وهرب في تلك الغيبة جمعٌ مِن أُسارى المسلمين ، و كان الحاكي منهم ، فسألتُه بِكَمْ حَزَرْتم الجِمالَ و الخيل ؟ فأخبر أن الجمال تناهز ثلاثةَ آلاف، والأسارى خمسمائة ، و تقرب من ذلك عِدّةُ الخيل .

و كانت هذه الوقعةُ صبيحةَ الثلاثاء حاديْ عشر جُمادى الآخرة ، ووصل الخبرُ إلى السلطان في عشيّة ذلك اليوم بعد العِشاء الآخرة ، وكنتُ جالساً في خدمته ، و أوصل الخبر شابٌّ من الإصطبليّة . فما مرّ بالسلطان خبرٌ أنكى[2] منه في قلبه و لا أكثر تشويشاً لباطنه ، و أخذْتُ في تسكينه و تسليتِه ، و هو لا يكاد يقبلُ التسليةَ .

(١)معروف : أي رجل مشهور . (٢) أنكى : أوقع ، أشدّ إيلاماً .

و كان أصلُ هذه القضية أن الأمير "أسلم" أشار عليهم أن يصعدوا الجبلَ ، فلم يفعلوا ، فصعد هو و أصحابُه ، فلمّا وقعت الكَبْسةُ كان هو على الجبل ، فلم يصلْ إليه أحدٌ من العدوّ ، و لم يشعروا به ، و لمّا انهزم المسلمون تبعتْهم خيّالةُ الإفرنج و أقام الرّجّالة منهم يستولون على ما تخلّف من المسلمين من الأقمشة ، و لما تحقّق الأمير "أسلم" أنّ الخَيّالة قد بَعُدَتْ عن الرّجّالة نزل إليهم بِمَنْ مَعَه من الخَيّالة و كبسهم مِنْ حيث لم يشعروا ، و قتلوا منهم جماعةً ، و غنموا منهم دوابَّ من جملتها بغلةٌ كانت تحت هذا القاصد .

ثم سار العدوُّ يطلب خيامه ، فكان وصولُه إلى المخيَّم يوم الجمعة سادسَ عشرَ جُمادى الأخرى ، و كان يوماً عظيماً عندهم أظهروا فيه من السرور و أسبابه ما لا يمكن وصفُه ، وأعادوا خيمهم إلى الوطأة على بيت نوبة ، و صحَّ عزمُهم على القدس ، و قويتْ نفوسُهم بما حصلوا عليه من الأموال و الجمال التي كانت تحمل الميرةَ والزّادَ الواصلةَ من مصر مع عسكرها ، و رتّبوا جماعةً على لدّ يحفظونَ الطّريقَ على مَنْ ينقلون الميرةَ ، و أنفذوا الكندهري إلى صور و طرابلس و عكا ، يستحضر مَنْ فيها من المقاتلة ليصعَدوا إلى القُدس .

ولما عرف السلطان ذلك منهم عادَ إلى الأسوار فقسمها على الأمراء ، وتقدّم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، و أخَذَ في إفساد المياه بظاهر القُدْس و تخريب الصَّهاريج و الجِباب[1]، بحيث لم يبقَ حول القدس ماءٌ يُشرب أصلاً ، و أطنب في ذلك إطناباً عظيماً ، و أرض

(١)الجب : البئر .

القدس لا يطمع في حفر بئر بها فيها ماء مَعِين[1]، لأنـها جبـل عظيـم وحجر صُلْب ، وسيَّر إلى العساكر يطلبها من النواحي و البلاد .

﴿ذكر قدوم الملك الأفضل و أمره بالعَوْد عن تلك البلاد﴾ ((و كان قد وصل إلى حلب المحروسة))

و لما وصلَ أمرُ السلطان إليه بالعَوْد عاد مع انكسار في قلبـه ، وتشويش في باطنه ، فوصل إلى دمشقَ مُستعتباً ، و لم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتدّ خبرُ الإفرنج سير إليه و طلبه ، فما وسعه التـأخُّر ، فسار مع مَنْ كان قد وصل من العساكر الشرقيّة إلى دمشـق ، و كـان وصوله في يوم الخميس تاسعَ عشرَ جُمادى الأخرى ، و لقيه السـلطانُ قريباً من العازرية[2]، فترجَّل له جبراً لقلبه و تعظيماً لأمـره ، و سـار وفي خدمته أخوه الملك الظافر و قطب الدين إلى ظاهر القدس .

﴿ذكر عود العدوّ إلى بلادهم و سبب ذلك﴾

و لما كانت ليلةُ الخميس تاسعَ عشرَ جُمادى الأُخْرى اسـتحضر السّلطانُ الأمراءَ عنده ، فحضر الأميرُ أبـو الـهيجاء السـمين بمشـقّة عظيمة، و جلس على كرسيّ في خيمة السلطان ، و حضر المشـطوبُ والأسدية بأسرهم و جماعة الأمراء ، ثم أمرني أنْ أكلّمهم و أحثّهم على

(١)معين : عذب .

(٢)العازريّة : " قرية بالبيت المقدس بها قبر العازر " [معجم البلدان ٤/٦٧] .

الجهاد ، فذكرْتُ ما يسَّرَه اللهُ من ذلك . و كان ممّا قُلْتُه : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا اشتدّ به الأمر بايعه الصّحابةُ رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدوّ ، و نحن أَوْلى مَنْ تأسَّى به صلى الله عليه وسلم ، و المصلحةُ الاجتماعُ عند الصَّخْرة و التّحالفُ على الموت ، و لعلّ ببركة هذه النية يندفعُ هذا العدوّ ، فاستحسنَ الجماعةُ ذلك ، ووافقوا عليه، ثم شَرَعَ السلطانُ بعدَ أنْ سكَتَ زماناً في صُورة مفكّرٍ ، و الناسُ سكوتٌ كأنّ على رؤوسهم الطيرَ فقال: «الحمدُ لله . والصلاةُ على رسول الله . اعلموا أنَّكم جندُ الإسلام اليومَ و منَعَتُه . و أنتم تعلمون أنّ دماءَ المسلمينَ و أموالَهم و ذراريّهم معلّقةٌ بذِمَمكم ، و أنّ هذا العدوَّ ليس له من المسلمين مَنْ تلقّاه إلاّ أنتم ، فإنْ وليتم بأنفسكم و العياذُ بالله طوَى البلادَ طيَّ السّجلّ للكتاب ، و كان ذلك في ذمّتكم ، فإنّكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا و أكلتم مال بيتِ المال ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم والسلام» . فانتُدب لجوابه سيفُ الدين المشطوب وقال: يا مولانا ، نحن مماليكُك و عبيدُك ، و أنتَ أنعمتَ علينْا و كَبَّرْتَنا و عظَّمتْنا وأعطَيْتَنا، وليس لنا إلاّ رقابُنا ، و هي بين يديك . واللهِ لا يرجعُ أحدٌ منّا عن نُصرتك إلى أنْ نموتَ . فقال الجماعةُ مثلَ ما قال ، فانبسطتْ نفسُه بذلك المجلسِ ، و طاب قلبه ، و أطعمَهم ثم انصرفوا[١].

و انقضىَ يومُ الخميس على أشدّ حال التأهُّب و الاهتمام ، حتى

(١)في البداية و النهاية لابن كثير ٣٤٨/١٢ رواية قريبة النصّ ممّا ساقه ابن شدّاد ، لكنّه ذكر أنّ الذي اقترح أن يتحالفوا على الجهاد عند الصخرة إنّما هو العماد الكاتب ، و ليس يبعد أن يكون كلّ منهما تعاور على هذا الاقتراح .

كانت العِشاءُ الآخرةُ وجميُعنا في خِدْمته على العادة ، و سـهرنا حتى مضى من الليلة هَزِيعٌ[1]، و هو غير منبسط على عادتـه ، ثـمّ صلّيْنا العِشاء و كانت العشاءُ هي الدستورَ العـام ، فصلّيْنا و أخذنا في الانصراف ، فاستدْعاني فلمّا جلسْتُ في خدمتِه قال لي : علمتَ ما الـذي تجدَّد ؟ قلتُ : لا . قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم و قال: إنـه اجتمع عنده جماعةٌ من المماليك و أنكروا علينا موافقتَنا على الحصـار ، و قالوا لا مصلحةَ في ذلك ، فإنّا نخافُ أنْ نُحْصرَ و يجريَ علينا مثلُ ما جرَى على عكّا ، وحينئذ ، تُؤْخذُ بلادُ الإسلام أجمعُ ، والرأي أن نلقـىَ مصافّ ، فإنْ قدَّرَ الله تعالى أنْ نهزِمَهم ملَكْنا بقيّةَ بلادِهم . و إنْ تكـن الأُخرى يسلمِ العسكرُ، و يمضِ القدسُ و قد حُفِظَ الإسلامُ بعساكره مـدّةً بغير القدس ، وكان ـــ رحمه الله ـــ عنده من القُدْس أمرٌ عظيم لا تحملـه الجبالُ فشقَّتْ عليه هذه الرسالةُ ، وأقمتُ تلك الليلةَ في خدمته ، و هـي من الليالي التي أحببتُها في سبيل الله .

و كان ممّا قالوه في الرسالة إنْ أردتَ أنْ تُقيمَ فتكونَ معنا أنتَ أو بعضُ أهلك و إلاّ فالأكرادُ لا يَدِينون للأتـراك ، و الأتـراكُ كذلـك ، فانفصلَ الحال على أنْ يُقيمَ من أهله مجدُ الدين بنُ فخروشاه و صـاحبُ بعلبك . و كان ـــ رحمه الله ـــ يحدّث نفسَه بالمقام ، ثم صرفَ رأيَه عنه لما فيه من الخطر على الإسلام ، فلما أنْ قارب الصبح و أشفقتُ عليـه خاطبتُه في أنْ يستريحَ ساعةً ، و انصرفـتُ عنـه ، فمـا وصلـتُ إلا وَالمؤذّن قد أذّن ، فأخذتُ في أسباب الوضوء فما فرغتُ إلاّ و الصبح قد

(١)الهزيع من الليل : نحو الثلث ، أو الربع الأول منه .

طلع ، فعدْتُ إلى خدمتِه و هو يجدّد الوضوءَ فصلّيْنا ، ثم قلتُ له قد وقعَ لي واقعٌ أَعرِضُه . قال : و ما هو ؟ قلت : مَنْ كَثُرَ اهتمامه بما قد حمل على نفسه و قد عجزتْ أسبابُه الأرضيةُ ينبغي له أن يرجعَ إلى الله ، وهذا يوم الجمعة ، و هو أبركُ أيام الأسبوع فيه دعْوة مُستجابة ، و نحن في أبرك موضع ، فالسلطانُ يغتسل و يتصدّق بصدقة خفيّة بحيث لا يشعرُ أحدٌ أنّها منه ، و يصلّي بين الأذان و الإقامة ركْعتين يناجي فيهما ربّه ، ويفوّض مقاليدَ أمورِه إليه ، و يعترف بالعجز عما تصدّى له ، فلعلّ الله يرحَمه و يستجيبُ دعاءَه . و كان حَسَنَ العقيدة تامَّ الإيمان يتلقّى الأمور الشرعية بأكمل انقياد . ثم انفصلْنا .

فلما جاء وقتُ الجمعة صلّيتُ إلى جانبه في الأقصى فصلّى ركْعتين و رأيتُه ساجداً و هو يذكر كلماتٍ ، ودموعُه تتقاطَرُ على مُصلاَّه، ثم انقضتِ الجمعةُ بخير ، و لمّا كانت عشيّتُها و نحن في خدمته على العادة وَصلَتْ رُقعةٌ من جرديك و كان في اليزك ، و كان جملةُ ما فيها أن القوم ركبوا بأسْرهم ووقفوا في التّلّ وقت الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامِهم ، و قد سيّرنا جواسيسَ تكشف أخبارَهم .

و لّما كانت صبيحةُ السبت وصلتْ رقعةٌ أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا و أخبروا أنّ القوم اختلفوا في الصّعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم ، فذهبت الفرنسيسية إلى الصّعود إلى القدس ، وقالوا: نحن إنما جئْنا من بلادنا بسبب القُدْس ، و لا نرجعُ دونَه . و قال الانكتار: إنّ هذا الموضع قد أُفسدتْ مياهُه ، و لم يبق حوله ماءٌ أصلاً ، فمن أينَ نشرب ؟ فقالوا له : نشرب من نهر نقوع بينه و بين القدس

مقدارُ فـرسخ . فقال: كيف نذهب إلى السقي ؟ فقالوا: ننقسم قِسْـمين ، قسم يركبُ إلى السَّقْي ، و قسم يبقى على البلد في المنازلـة ، و يكـون الشرب في اليوم مرة . فقال الانكتار : إذاً يؤُخذ العسكر البرَّاني الـذي يذهب مع الدوابّ ، و يخرجُ عسكر البلد على الباقين ، و يذهـب ديـنُ النّصرانية . فانفصلُ الحالُ على أنهم حكّموا ثلاثَمائة من أعيانهم ، وحكّم الثلاثمائة اثني عشر ، و حكّم الاثنا عشر ثلاثةً منهم ، و قد باتوا علـى حكم الثلاثة فما أمروا به فعلُوه ، فلما أصبحوا حكَموا بالرحيل فلم تُمكنْهم المخالفةُ .

و أصبحوا في بُكرة الحادي و العشرين مـن جُمـادى الآخـرة راحلين نحو الرَّمْلة ، و على أعقابهم ناكصين و لله الحمـد . و مضـى عسكرهم شاكياً السلاح و لم يبقَ في المنزلة إلاّ الآثارُ ، ثم نزلوا الرملةَ، و تواترت الأخبارُ بذلك ، فركب السلطانُ و ركب الناسُ و كـان يـومَ سرورٍ و فرح.

﴿ذكر رسالة الكندهري﴾

و لما فرغ بال السلطان برحيل العدوّ حضر رسـولُ الكندهـري يقول إن الانكتار قد أعطاني البلادَ الساحلية ، و هي الآن لي فأعدْ علـيَّ بلادي حتى أصالحَك ، و أكون أحد أولادك . فغضب السـلطان لذلـك غضباً عظيماً بحيث إنه كاد يبطش به ، فأُقيم من بين يديـه ، فسـأل أن

يمهل ليقول كلمة أخرى ، فأذن له في ذلك ، فقال : يقول : إن البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها ؟ فانتهره و أقامه .

و لما كان اليومُ الثالثُ و العشرون حضر الرسولُ ، و كان جوابُه أن يكون الحديث بيننا في صور و عكا ، على ما كان مع المركيس . ثم وصل بعد ذلك إلى الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الإفرنج ، و ذكر أنّ الانكتار أحضره و أحضر الكندهري و أخلى المجلسَ ، و قال له : قل لصاحبك : إنّا قد هلكْنا نحن و أنتم ، و الأصلحُ حقْنُ الدّماء[1]، ولا ينبغي أن تعتقدَ أنّ ذلك لضعف منّي ، بل للمصلحة ، و لا تغترّ بتأخّري عن منزلي ، فالكبشُ يتأخّر لينطح ، و أنْ يكون هو الواسطة بينهم و بين السلطان . و أنفذ مع الحاجب شخصيْن يسمعان الكلامَ من المشطوب ، و كان ظاهرُ الحال الكلامَ في إطلاق بهاء الدين قراقوش ، و باطنُه في معنى آخر ، و أخبر الحاجبُ أنّهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا ، و أنّهم على غاية الضعف و العجز عن قصد مكان آخر، فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة ، و كان الجواب إلى الكندهري أن نعطي عكا و نصالحه على مال ، و يتركنا و الانكتار على بقية البلاد .

و كان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكراً خشيةَ خروج العدوّ إلى النواحي التي تليها فلما كان الثاني و العشرون خرج العدوُّ من عكّا غائرين على ما يليها من البلاد و الرساتيق ، فثارتْ عليهم الكمينات من الجوانب و كان قد شعر العسكر الإسلامي بخروجهم ، فكمن لهم

(١)حقن الدماء : منعها أن تسفك .

فأَخذوا منهم جماعةً ، و قتلوا جماعةً و لله الحمد .

﴿ذِكْرُ عَوْدِ رسولهم في معنى الصلح﴾

و لما كان يوم الجمعة السادسُ و العشرون من الشهر عاد رسولُهم صُحْبَةَ الحاجب ، و قد حمل الحاجبُ يوسفُ رسالةً يؤدّيها بحضور صاحبهم ، و هي أنّ مَلِكَ الانكتار يقول إني راغب في مودّتك و صداقتك ، و إنّه لا يريد أن يكون فرعون تلك الأرض ، و لا يظنّ ذلك فيك ، و لا يجوز لك أنْ تُهلك المسلمين كلّهم ، و لا يجوز لي أنْ أُهلك الإفرنج كلّهم ، و هذا ابن أختي الكندهري قد ملّكْتُه هذه الديارَ ، وسلّمته إليك ليكونَ هو و عسكرُه تحتَ حُكمك ، و لو استدعيتَهم إلى الشّنق سمعوا و أطاعوا ، و يقول : إن جماعةً من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائسَ فما بخلْتَ عليهم بها ، و أنا أطلبُ منك كنيسةً ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرَك ممّا كان يَجْري في المراسلة مع الملك العادل تركتُها ، و أعرضْتُ عنها ، و لو أعطيتَني مقرعة أو خربة قبلتُها. فلمّا سمع السلطان هذه الرسالةَ جَمَعَ أربابَ الرأي و أصحابَ مشورتِه و سألهم عما يكون الجوابُ لهذه الرسالة ؟ فما منهم إلا مَنْ أشار بالمُحاسنة و عَقْدِ الصُّلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضّجر و التّعب و علاهم من الدُّيون . و استقرَّ الحالُ على هذا الجواب :

إذا دخلْتَ معنا هذا الدخولَ فما جزاءُ الإحسان إلا الإحسانُ ، إنّ ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، و سيبلغُك ما أفعل معه ، و أنا

أعطيك أكبرَ الكنائس ، و هي القُمامة ، و أما بقيّــة البــلاد فنقســمُها ، فالسَّاحلية التي بيدك تكونُ بيدك ، و الذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكــون لنا ، و ما بين العَلَميْن يكون مناصفةً ، و عسقلان و ما وراءهــا يكــون خراباً لا لنا و لا لكم ، و إنْ أردتم قُراها كانت لكم ، و الذي كنت أكرهه حديث عسقلان .

و انفصل الرسول طيّبَ النفس ، و ذلك في ثاني يــوم قدومــه ، وهو الثامن و العشرون ، و اتَّصل الخبر بعد وصول الرسول إليهم أنّــهم راحلون إلى عسقلان طالبون جهةَ مِصر ، ووصل رسولٌ مــن جــانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول : إن البابا قد وصل إلى القســطنطينية في خَلْقٍ لا يعلم عددَهم إلا الله تعالى ، و قال الرسولُ : إني قتلــت فــي الطريق اثني عشر فارساً . و يقول تقدّم إليَّ مَنْ يستلم بلادي مني فــإنيّ قد عجزْتُ عن حفظها ، فلم يصدّق السلطان هذا الخبر و لم يكترثْ به .

﴿ذكر عَوْدِ رسول الإفرنج ثالثاً﴾

و لما كان التاسع و العشرون وصل الحاجبُ صاحب المشــطوب ومعه جفري رسولُ الملك ، فقال : إنّ الملك شَكَرَ إنعام السلطان ، و قال إنّ الذي أطلبُه منك أن يكون لنا في قلعة القُدْس عشرون رجــلاً ، و أنّ مَنْ سكن من النصارى و الإفرنج لا يتعرض إليهم ، و أما بقيّةُ البلاد فلنا منها الساحليّاتُ ، و الوَطْأةُ و البلادُ الجبلية لكم . و أخبرنا الرسول مــن عند نفسه مناصحةً أنّه قد نزل عن حديث القُدْس ما عدا الزيارةَ ، و لكــنْ

يقول ذلك لضعفنا ، و أنّهم راغبون في الصلْح و أنّ الانكتار لا بدّ له من الرَّواح إلى بلده . و أقام يوم الاثنين سلخَ الشهر(١)، و كان معه في هذه الدُّفعة بازيان(٢) هديةً للسلطان ، فاستحضر الأمراء بأسرهم و شاورَهم فيما يكون الجوابُ لهذه الرسالة ، و انفصل الحال على هذا الجواب : وهو أنّ القدسَ ليس لكم فيه حديثٌ سوى الزيارة . فقال الرسول : و ليس على الزّوار شيء يُؤْخذ منهم . فعلم من هذا القول الموافقةَ . و أمّا البلاد كعسقلان و ما وراءها فلا بدّ من خرابه . فقال الرسول: قد خسر الملكُ على سورها مالاً جزيلاً . فقال المشطوب للسلطان : المصلحة أن تجعل مزارعَها وقُراها في مقابلة خسارتها . فأجاب : و إن الداروں و غيره تخرب ، وتكون بلادها مناصفة . و أما باقي البلاد فتكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، و مهما اختلفْنا في قرية كانت مناصفة . هكذا جواب رسالته . وسار في يوم الثلاثاء مستهلَّ رجب ، و معه الحاجب يوسف ، وكان قد طلب رسولاً مذكوراً يحلّفه إن استقرت القاعدة فأخّر السلطان تسييرَ الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، و أنفذ لهم هديّةً حسنة في مقابل هديتهم ، و ما كان يُغْلَبُ في الهدايا .

﴿ذكر عَوْدِ الرسول﴾

كان عوده و قد مضى هَزِيعٌ من ليلة ثالثِ رجب ، فحضر الحاجبُ ليلاً ، و أخبر السلطان الخبر ، و حضر الرسول في بُكرة الخميس الثالث من رجب ، و أدّى الرسالة ، و هي أنّ الملك يسأل

(١)سلخ الشهر : آخره ، أي كانت هذه المفاوضات في نهاية جمادى الآخرة من عام ٥٨٨ هـ .
(٢)البازي : ضرب من الصقور .

ويخضع لك أنْ تتركَ له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأيّ قدر لها في ملكك و عظمتك ؟ و ما من سبب لإصراره عليها إلا أنّ الإفرنج لم يسمحوا بها ، وقد تَرَكَ القُدْسَ بالكُلّيّة ، فلا يطلب أن يكون فيه رهبانٌ ولا قسوسٌ إلا في القمامة وحدَها ، فأنت تترك له هذه البلاد ، ويكون الصلح عامّاً فيكون لهم كلّ ما في أيديهم من الدارون إلى أنطاكيّة ، ولكم ما في أيديكم ، و ينتظم الحال و يروج ، و إنْ لم ينتظم الصلح فالإفرنج لا يمكّنونه من الرَّواح و لا يمكنه مخالفتهم . فانظرْ إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللِّين تارة و بالخشونة أخرى . و كان ـ لعنه الله ـ مضطرّاً إلى الرّواح ، وهذا عملُه معَ اضطراره ، والله الوليّ في أنْ يقي المسلمين شرَّه فما بلَوْنا[1] أعظمَ حيلةً و لا أشدَّ إقداماً منه .

و لمّا سمع السلطانُ هذه الرسالة أحضر الأمراء و أرباب الرأي من دولته ، و سألهم عن الجواب ما يكون ؟ فكان خلاصة الرأي هذا الجواب ، و هو " أنّ أهلَ أنطاكية لنا معهم حديثٌ ، و رسلنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلْناهم في الصلح ، و إلاّ فلا . و أمّا البلاد التي سألَها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، و إنْ كانتْ لا قَدْر لها . وأما سورُ عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسر عليه " لُدّاً " في الوطأة[2]. وسيّر الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب "

و لما كان الخامسُ من رجب وصل ولده الملكُ الظّاهر عزّ نصره، و كان كثيرَ المحبّة له و الإيثار لجانبه ، لما يراه فيه من أمارات

(١)بلونا : علمنا .

(٢)الوطأة : السهل ، و المنخفض يكون بين المناطق المرتفعة .

السعادة و صفات الكفاءة ، و توسُّم الملك ، فخرج السلطان إلى لقائه فلقيه من قاطع العزارية ، و نزل له عند لقائه و احترمه و أكرمه وضمّه إليه و قبّله بينَ عينيه و نزل في دار الإسبتار .

و لما كان السابعُ وصل الحاجب يوسف وحدَه ، و ذكر أن الملك قال له : لا يمكن أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك . و أمّا البلادُ فحدودها معروفة ولا منا كرة فيها ، وعند ذلك تأهَّبَ السلطان للخروج إلى جهة العدوّ ، و أظهر القوّةَ وشدّة العزم على اللقاء .

﴿ذكر تبريزه[1] رحمة الله عليه﴾

و لما كان العاشرُ من رجب بلغ السلطانَ أنّ الإفرنجَ رحلوا طالبين نحو بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفُراتية في بُكرة الحادي عشر ، فدخل الصّخرةَ و صلَّى عندَها ، ثم توجّه يتبع السلطان . ثم إنّ السلطان رحل من الجيب إلى بيت نوبة ، و بعث إلى العسكر في القدس يحثّهم على الخروج و اللَّحاقِ به ، و لحقْتُ السلطان في بيت نوبة ، فإنّي كنتُ تخلّفتُ عنه ليلة الاستعداد ، ثم رحل في يوم الأحد الثالثَ عشرَ إلى الرملةِ ضَحْوة نهار ، على تلال بين الرملة ولُدّ ، فأقام بها بقيةَ الأحد . ولما كانت صبيحةُ الاثْنين ركب جريدةً حتى أتى بازور و بيتَ جبرين ،

(١)تبريزه : خروجه ، يريد خروجه للتصدّي للعدوّ و مجاهدته بعدما توقّفت مفاوضات الصلح .

فأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته و أقام بها بقيّةَ يومه و جمع أربابَ مشورته و شاورَهم في النزول على يافا . و اتّفق الرأي على ذلك .

﴿ذكر حصار يافا﴾

و لما كان صباحُ الثّلاثاء خامسَ عشرَ رحل طالباً جهة يافا ، فخيّم عليها ضحوةَ النهار ، و رتّب العسكر ميمنةً و ميسرةً و قلباً ، و كان طرفُ الميمنة على البحر ، و طرف الميسرة أيضاً على البحر ، والسلطان في الوسَط ، و كان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعزّ الله نصره ، و صاحب الميسرة أخاه الملك العادل ، و العساكر فيما بينهما .

و لما كان السادسَ عشرَ من الشهر زحف الناس إليها و استحقروا أمرها استحقاراً عظيماً ، ثم رتّب السلطان الناس للقتال ، و أحضر المنجنيقاتِ ، و ركّبها على أضعفِ موضعٍ في السور ، ممّا يلي البابَ الشرقي ، وشرع النّقّابون في السور ، و ارتفعت الأصوات ، و عظُم الضجيج ، واشتدّ الحزم و الزحف ، فأخذ النقابون النَقْبَ من شمالي الباب الشرقي ، إلى الزاوية ، بطول البدنة[1]، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الأول و بناه الإفرنج ، و تمكّن النّقّابون من النَّقْب ، و دخلوا فلم يشكّ الناس في أخّذِ البلد في هذا اليوم ، هذا و أمْرُ العدو في ازدياد ، وكان المِلكُ قد توجّه منْ عكّا إلى بيروت ، و هذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ، ثم انفصل ذلك اليومُ عن قتال شديد قد

---

(١)البدنة : الناقة (و تطلق أيضاً على البقرة) .

ضرس العدوّ منه[١]، و ظهر من العدوّ من الشدّة و الحميّة و الذّبّ والمَنعةِ ما أضعفَ قلوبَ الناس ، هذا والنّقّابون قد تمكّنوا من النَّقْب عليهم ، فلما قارب الفراغُ أَخَذَ العدوُّ في خسف النقب عليهم فخسفوه في مواضع عدّة، و خاف النقابون و خرج منهم جماعةٌ ، و فتر الناسُ عن القتال و علموا أنّ أمر البلد مُشْكِل ، و أنّه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه ، فعزم السلطانُ ، عزْمَ مثله ، فأمر النّقّابين أن يأخذوا النَّقب في بقية البدَنة من البُرْج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، و أقام السلطان في تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل ثلثه ، و عاد إلى الثِّقْل ،و كان الثقل بعيداً عن البلد ، على تلّ قُبالتَه ، وأصبحت المنجنيقاتُ قد أقيم منها اثنان ، و أقيم الثالثُ في بقية النهار ، وأصبح السلطانُ على القتال و الزحف ، فلم يجد من الناس إلا الفُتورَ بسبب نصب المنجنيقات ظنّاً منهم أن المنجنيق لا يعمل إلا بعد أيام . ولما علم السلطان من الناس الفتور و التواكل حمَلَهم على الزحف، فالتحم القتال و اشتد الأمر و أذاقوا العدوّ مُرَّ الحرب ، فأشرف البلد على الأخذ[٢]، و اتّفقت النفوس و طمعت في ذلك طمعاً شديداً ، و ضعف العدوُّ إلاّ أنّه جُرِحَ من المسلمين جماعةٌ بالنُّشّاب و الزنبورك من البلد .

و لما رأى العدوُّ المخذولُ ما قد حلّ به أرسل رسولَيْن نصرانياً وإفرنجياً يطلبان الصُّلحَ و يتحدّثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدةَ القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك و اشترطوا أن يُنْظَرُوا[٣] إلى يوم

(١)ضرس العدوّ منه : صعُب خلُقه و شَرِس .

(٢)أوشكت يافا أن تقع في أيدي المسلمين . (٣) أن ينظروا : أن يُمْهلوا .

السبت الذي هو تاسعَ عشرَ رجب ، فإنْ جاءتْهم النجدة و إلاّ تمّت القاعدةُ على ما استقرّ ، فأبى السلطانُ الإنظار ، فعاد الرسول ثم رَجَوا يسألونه الإنظار ، فأبَى ذلك ، و فتر الناس عن القتال بسبب تواصُل الرُسل ، سكوناً إلى الدعة على جاري العادة ، فأمر السلطانُ النقابين بحشْو النقب بعد انتهائه ، ففعلوا ذلك ، ووُضعت النارُ فيه فوقع نصفُ البدَنة ، و كان العدوّ قد عرف وقوعَ النار في النقب ، و علم أنّ ذلك المكانَ يقع ، فعمد إلى أخشاب عظيمة و هيّأها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكانُ التهبتِ النّيرانُ ، فمنعت من الدخول إلى الثُّلْمة ، ثم أمر السلطانُ الناسَ فزحفوا ، و ضايقوا القومَ مضايقةً عظيمةً ، فلّله درُّهم من رجال أقيالٍ ما أشدَّهم و أعظمَ بأسَهم ، فإنّهم مع هذا كلِّه لم يُغلقوا لها باباً ، و لم يزالوا يقاتلون خارجَ الأبواب أعظمَ قتال ، حتى فصل الليلُ بين الطائفتين ، ولم نقدِرْ على البلد في ذلك اليوم حتى بعد حَرْق النُّقوب في باقي البدَنة ، وضاقَ صدرُ السلطان لهذا الأمر ، و تقسَّم فكره ، و ندِم كيف لم يُجِبْهم إلى الصلح ؟ و باتَ تلك الليلةَ في المخيّم و قد عزم على أن يُقيمَ تمامَ خمسةِ مجانيق تضرب بعضُها البدنةَ الضعيفة بسبب النّقوب و النيران والخسْف من جانبهم .

﴿ذكر فتح يافا و ما جرى فيه من الوقائع﴾

و لمّا كان يومُ الجمعة ثامنَ عشرَ رجب أصبحت المنجنيقات وقد نُصبت و حجارتها قد جُمعت من الأودية والأماكن البعيدةِ لعدم الحَجَر

في ذلك المكان ، و ظلَّت ترمي البدَنة المنقوبـــةَ ، و زحــف السـلطانُ وزحف ولدُه الملك الظاهرُ عزَّ نصره زحفاً شديداً ، و زحـــف عســكر الملك العادلِ من الميسرة ، فإنه كان مريضــاً ، و ارتفعــت الأصــواتُ وضربت الكؤوساتُ ، و خفقت البُوقاتُ ، و رمت المنجنيقات ، و أحــاط بهم الويلُ ، و اشتدَّ عزمُ النّقابين في إيقاد النّار ، فما مضى من النـــهار ساعتان إلاّ ووقعت البدنةُ ، و كان وَقْعُها كوقع الواقعة ، و نادَى الناس : ألا إنّ البدنة قد وقعتْ ، فلم يبقَ مَنْ له أدنى إيمان إلاّ و زحـــف . و لا قلبٌ من العدوّ إلا أُرْعِدَ و رجَف . هذا الزحفُ و هم على القتـــال أشــدُّ وأحزم ، و على الموت أعزّ و أكرمُ . و ذلك أنّها لمّا وقعتْ عَـــلاَ لَـــها دخانٌ و غبار . و أظلم الأفقُ و عميَتْ عينُ النهار[1]، و ما تجاسر أحـــدٌ على الولوج خوفاً من اقتحام النّار . فلما انكشفت الظلمةُ ظهرتْ أسنّةٌ قـد نابتْ مناب الأسوار . و رماحٌ قد سدّت الثّلْمة حتى غيّبت نفوذ الأبصار. ورأى الناسُ هولاً عظيماً مِنْ صبر القوم و ثباتهم ، و ســـداد حركاتـــهم وسكناتهم . و لقد رأيتُ رجليْنِ على ممشى السور يمنعان المتسلِّقَ عليـــه من جهة الثّلْمة ، و قد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ، و نـــزل إلـــى داخل ، و قام رفيقه مقامه متصدّياً لمثل ما لحق صاحبه في ساعة أسرعَ

(١)وصفَ ابن شدّاد لشحوب النهار بسبب دخان الحرب يذكّر القارئ بـــالصورة البديعـــة التـــي رسمها أبو تمام (حبيب بن أوس ١٩٢-٢٣٢هـ) لمعركة عمّورية، ولكنّها على عكس صورة ابن شدّاد من حيث إنّها وقعتْ ليلاً، فأحالتْه نهاراً أو كالنهار :

ضَوْءٌ من النارِ و الظلماءُ عاكفةٌ ... و ظلمةٌ من دخانٍ في ضحىً شَحِبِ
فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلت ... و الشمس واجبةٌ من ذا و لم تَجِبِ

واجبة : آفلة غائبة .

من لمح العيون بحيث لم يفرق بينهما فارق .

و لما رأى العدوّ ما آل الأمر إليه سيّروا رسولَيْنِ إلى السلطان يلتمسون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارسُ بالفارس و التركبيلي بمثله ، و الراجل بالراجل ، و العاجز على قطيعة القدس ، فنظر الرسولُ فرأى القتال على الثلمة أشدَّ من إضرام النار ، فسأل السلطانَ أن يبطل القتال إلى أن يعود . فقال : لا أقدرُ على منع المسلمين من هذا الأمر ، و لكنِ ادخل إلى أصحابك فقل لهم يتجاوزوا إلى القلعة و يتركوا الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقي دونه مانعٌ . فعاد الرسولُ بهذه الرسالة ، فانحاز العدوّ إلى قلعة يافا ، بعد أن قُتل منهم جماعةٌ عظيمة ، و دخل الناسُ البلدَ عَنْوةً ، و نهبوا منه أقمشةً عظيمةً ، و غِلالاً كثيرة[1] ، و أثاثاً و بقايا قماش مما نُهِبَ من القافلة المصرية ، و استقرّت القاعدةُ على الوجه الذي قرّره السلطان .

و لما كان عصرُ الجمعة المباركة وصل السلطانَ كتابٌ من قايماز النجمي ، و كان في طرف العدوّ لحمايته من عسكر العدوّ الذي في عكا، يخبر فيه أنّ الانكتار لمّا سمع خبرَ يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد إلى قصد يافا ، فاشتدّ عزمُ السلطان على تتمَّة الأمر ، و تَسلُّمِ القلعة ممَّنْ لم ير الأمان ، لأنه قد لاح أخذُهم ، و كان الناسُ لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم و نوبتهم عليه ، فكان أخذُهم عَنْوةً ممّا يَبْعث هِمَمَ العسكر ، غيرَ أنّ الأمانَ وقع ، و اتفقَ الصُّلح ، فكنتُ بعد ذلك ممّن يحثُّ على إخراج العدوّ من القلعة و تسلُّمِها خوفاً من لحوق النَّجدْة ، و كان السلطانُ

(١)الغلال : جمع غلّة ، و هي ريْع الأرض (الحبوب) .

يشتهي خروجَه غيرَ أنّ الناس قد أقعدهم التعبُ عن إتمام الأمر ، و أَخَذَ منهم الحديدُ و شدّةُ الحرّ و دخانُ النار ، بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة ، و أقام السلطان يحثّهم إلى أنْ هوى الليل ، فلما رأى ما قد نَزَلَ بالناس من التعب ركبَ و سار إلى خيمته إلى الثقل ، و سار الناس إلى خدمته ، ثم نزل في خيمته ، و عدتُ إلى خَيْمتي ، و عندي من الخوف ما أقلقني عن النوم .

و لما كان سَحَرُ تلك الليلة سمعْنا بوق الإفرنج قد نَعَقَ فعلمنا بوصول النجدة ، قد وَصَلَتْ في البحر ، فاستدعاني السُّلْطانُ من وقته ، و قال : لاشكّ أن النّجدةَ قد وصلت في البحر ، و على الساحل من عساكر الإسلام مَنْ يمنعهم من النزول ، و المصلحةُ أنْ تسير إلى الملك الظاهر ، و تقولَ له أن يقفَ بظاهر الباب القبلي ، و تدخل أنتَ و مَنْ تراه إلى القلعة ، و تُخرجون القوم و تستولون على ما فيها من الأموال و الأسلحة و تكتبها بخطك إلى الملك الظاهر خارج البلد ، و هو يسيّرها إليَّ ، و يسير معي لتقوية البلد مع ذلك عزُّ الدين جرديك و علم الدين قيصر و درباس المهراني . فسرت من ساعتي و معي شمس الدين عدل الخزانة حتى أتيتُ الملكَ الظاهرَ و هو نائم على شَلِيَّتِهِ[1] ، على تلّ قريب البحر في اليزك ، و عليه كزاغنده ، و هو بلأمة[2] حَرْبه ، فلا ضيَّع الله صنعهم في نصرة الإسلام ، فأيقظْتُهُ فقام و النوم في عينيه ،

(١) الشَّلِيَّةُ : الفِدْرة ، أي القطعة من اللحم ، يريد أنّ الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين كان نائماً على الأرض دون فراش ، فراشُه لحمه .(٢)اللَّأْمة : الدرع . و كزاغنده : نوع من الثياب.

و سِرْتُ في خدمته و هو يستفهمُ منّي رسالةَ السّلطان حتّى وَقَفَ حيث أمره ، و دخلْنا نحن إلى يافا ، و أتينا القلعة و أمرْنا الإفرنجَ بالخروج ، فأجابوا إلى ذلك و تهيَّؤوا للخروج .

﴿ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدوّ﴾

و لما أجابوا إلى الخروج قال عزّ الدين جرديك : لا ينبغي أنْ يخرج منهم أحدٌ حتى يخرج الناسُ من البلد خشيةَ أنْ يتخطّفهم الناس ، وكان الناس قد داخلهم الطمعُ في البلد ، و أخذ عز الدين يشتدّ في ضرب الناس و إخراجهم ، و هم غير مضبوطين بعَدٍّ ، و لا محصورين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ؟ و طال الأمر إلى أعلى النهار و أنا ألومه و هو لا يرجع عن ذلك و الزمان مضى ، و لمّا رأيتُ الوقتَ كادَ يفوتُ قلتُ له : إن النجدة قد وصلتْ و المصلحةُ المسارعةُ في إخراجهم ، والسلطانُ قد أوصاني بذلك . فلما عرف السبب في حرصي أجابَ إلى إخراجهم ، و مضيْنا إلى باب القلعة القريب من الباب الذي الملكُ الظاهر قائمٌ عنده ، فأخرجْنا تسعةً و أربعين نفراً بخيولهم و نسائهم و سيَّرْناهم ، و لمّا خرج هؤلاء اشتّد الباقون و حدّثتهم نفوسُهم بالعصيان ، و كان سببُ خروج مَنْ خرجوا أنّهم استقلّوا(١) المراكب التي جاءتْهم وظنّوا أنْ لا نجدةَ لهم فيها ، و لم يعلموا أن الأنكثار مع القوم ، ورأوهم قد تأخّروا عن النزول إلى علوّ النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا و يقتلوا ، فخرج مَنْ خرج . ثم بعد ذلك قُرِّبت النجدةُ حتى صاروا خمسةً و ثلاثين مركباً،

(١)استقلوا : علوا ، ركبوا ، ارتحلوا على .

فقويتْ نفوسُ الباقين في الحصن ، و ظهرَتْ عليهم أمــارات ُ العصيــان ودلائلُه ، و خرج منهم مَــنْ أخــبرني بتشــويش عزمــهم ، و أخــذوا الطارقيات و الجنويات و علوا على الأسوار ، و كانت القلعة جديدة لــم تشرفْ بعد ، فلما رأيتُ الأمر قد آل إلى ذلك نزلْتُ من التّلّ الذي كنــت واقفاً عليه ، و هو ملاصقٌ لباب القلعة ، و قلْتُ لعزّ الدين جرديك و هــو مع عسكره في الأسفل مع جمع من الأجناد : خذوا حِذْركم ، فقد تغــيرَّتْ عزائم القوم . فما كانت إلا ساعة بحيثُ صرْتُ خارج البلد فــي خدمــة الملك الظاهر إلاّ و قد ركب القومُ خيلَهم ، و حملوا مــن القلعــة حملــةَ الرجل الواحد ، و أخرجوا من كان في البلد من الأجناد . و لقد ازدحــم الناس في الباب حتى كاد يتلفُ منهم جماعةٌ و بقي في بعــض الكنــائس جماعةٌ من أتباع العساكر مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم و قتلــوا منهم و أسروا.

و سيّرني الملك الظاهر إلى والده السلطان أعرّفه بالحال، فــأمر الجاويشَ أن ينادي في العسكر ، و ضرب الكؤوس للقتال ، و نفر الناس من كل جانب للغزاة ، و هجموا البلد ، و حشروا العدوّ في القلعة فـأيقنوا بالبوار و استبطؤوا نزول النَّجْدة إليهم ، و خافوا خوفاً عظيماً فأرســلوا بَطْرَكَهُمْ[١] و القسطلان رسولَيْنِ إلى السلطان يعتذران إليه ممّا جــرى ، ويسألان القاعدةَ الأولى ، فخرجا إلى السّلطان و القتالُ يشتّد عليهم .

و كان سبب انقطاع النَّجْدة أنّهم رأوا البلــد مشــحوناً ببيــارق المسلمين و رجالهم ، فخافوا أن تكــون القلعةُ قــد أُخذتْ ، و كان البحر

(١) البَطْرَك (بفتح الباء و الراء) : مقّدم النصارى. كبير رؤساء الأساقفة ، و يقال له البطريق أيضاً .

يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج و التهليل ، فلمّا رأى مَنْ في القلعة شدَّةَ الزحف عليهم و امتناعَ النجدة من النزول مع كثرتِها ، فإنها بلغتْ نيّفاً و خمسين مركباً ، منها خمسةَ عشرَ شانياً ، فيها شاني الملك ، علموا أن النجدة ظنَّت أنّ البلد قد أُخِذَ ، ووهبَ واحدٌ نفسَه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء ، و كانت رمْلاً فلم يصبْه شيءٌ ، واشتدّ عَدْواً حتى أتى البحرَ ، فخرج له شاني و أخذه إلى شاني الملك ، فحدّثه بالحديث ، فلمّا شعر الانكتار أنّ القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحلَ ، و كان أوّل شاني ألقى منْ فيه بالبرّ شانيه ، و كان أحمر ورقبته حمراء ، و بيرقُه أحمر ، فما كانت إلا ساعة حتى نزل كلُّ مَنْ في الشواني إلى الميناء .

هذا كلُّه و أنا أشاهد ذلك ، ثم حملوا على المسلمين ، فاندفعوا بين أيديهم ، و أخرجوهم من الميناء ، و كان تحتي فرس فسُقْتُه إلى السلطان ، و أخبرتُه الخبر و بين يديه الرسولان ، و قد أخذ القلمَ بيده ليكتبَ لهم الأمانَ فعرّفْته في أُذُنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة و شغلهم بالحديث .

فما كان إلا ساعة حتى فَرَّ المسلمون نحو السلطان ، فصاح في الناس فركبوا و قبض على الرسوليْنِ و أمر بترحيل الثقل و الأسواق(١) إلى بازور(٢) ، فرحل الناسُ و تخلّف لهم ثِقْلٌ عظيم مما كانوا نهبوه من

(١) الثّقل: الحمل و المتاع و العتاد . والسوق (مفرد الأسواق) : الموضع الذي يُجلب إليه المتاع و السِّلع للبيع (ذَكَرَ المكان و أراد ما فيه) . و سوق الحرب : موضع اشتباك المتحاربين .

(٢) في معجم البلدان ١/٣٢٠ :" بازوذ : بضم الراء، وسكون الواو، و الذّال معجمة : من قرى فلسطين عند الرملة ".

يافا ، لم يقدروا على نقله ، و رحل الثِّقْل وبقي السلطان جريدةً في الليل، و بات ليلته هناك ، و خرج الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد ، و أمر مَنْ في القلعة أن يُخرجوا إليه معظم سواده ، فاجتمع به جماعةٌ من المماليك و جرت بينهم أحاديث و مجاوبات كثيرة .

﴿ذكر حديثِ الصُّلْح﴾

ثم طلب الحاجبَ أبا بكر العادلي و حضر عندهم أيبك العزيزي وسُنْقر[1] المشطوبي و غيرهم ، و كان قد صادق جماعة من خواصّ المماليك و دخل معهم دخولاً عظيماً بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة ، و كان قد صادقَ من الأمراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره .

فلما حضر هذا الجمع عندَه جَدَّ و هزل ، و من جملة ما قاله : هذا السلطان عظيم ، و ما في هذه الأرض للإسلام أكبرُ و لا أعظمُ منه، كيفَ رحل عن المكان بمجرَّد وصولي ؟ و الله ما لبسْتُ لأْمةَ حرب و لا تأهَّبْتُ لأمر ، و ليس في رجلي إلا رذول البحر فكيفَ تأخّر ؟ ثم قال واللهِ العظيم الكريم ما ظننتُ أنه يأخذُ يافا في شهرين فكيف أخذها في يومَيْن ؟ ثم قال لأبي بكر: سلِّمْ على السُّلْطانِ ، و قل له : بالله عليك أجبْ سؤالي في الصُّلْح ، فهذا الأمر لا بدّ له من آخر ، و قد هلكتْ بلادي وراءَ البحر ، و ما في دوام هذا مصلحةٌ لا لنا و لا لكم ، ثم انفصلوا عنه و حضر أبو بكر عند السلطان و عرّفه ما قاله ، و كان

---

(١) أيبك : اسم تركي ، معناه : غلام . و قاصد . و سُنْقُر (بضم السين و القاف) : أيضاً اسم تركي معناه العُقاب (من كواسر الطيور و جوارحها) .

ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشَر شهرِ رجب ، فلمّا سمع السلطان ذلك أحضر أربابَ المشورة ، و انفصل الحال على أن الجوابَ هو " إنك كنت طلبتَ الصلحَ أوّلاً على قاعدة ، و كان الحديث في يافا و عسقلان ، والآن قد خربت يافا ، فيكون لك من صور إلى قيسارية " فمضى إليه وعرّفه ما قال فردّه إليه و معه رسول إفرنجي ، و قال : يقول : " إن قاعدة الإفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعَه و غلامَه ، و أنا أطلب منك هذيْنِ البلدين يافا و عسقلان ، و تكون عساكرُهما في خدمتك دائماً ، و إذا احتجتَ إليَّ وصلتُ إليك في أسرع وقت ، و خدمتك كما تعلم خدمتي " .

فكان جوابُ السلطان : " حيث دخلتَ هذا المدخلَ فأنا أجيبك بأن نجعلَ هذيْن البلدين قسميْن : أحدُهما لك و هو يافا و ما وراءها ، والثاني لي و هو عسقلان و ما وراءها " .

ثم سار الرسولان ورحل السلطان إلى الثقل وكان المخيّم ببازور، و رتب النّقّابين لذلك واليزك عندهم ، و سار حتى أتى الرملة فخيّم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر فأمر بإكرامه والإحسان إليه .

و كانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان ، ويقول إنّه إنْ وقع الصلح في هذه الأيّام سار إلى بلاده ، ولا يحتاج أنْ يشتّي هاهنا .

فأجابه السلطان في الحال بقوله " أمّا النزولُ عن عسقلان

فلا سبيل إليه و أما تشتّيه[1] هاهنا فلا بدّ منه لأنه قد استولى على هذه البلاد، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة كما تؤخذ أيضاً إذا أقام إنْ شاء الله تعالى . و إذا سَهُلَ أنْ يشتّي هاهنا و يبعد عن أهله ووطنه مسيرةَ شهرين ، و هو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذّاته ، أفلا يسهل عليّ أشتي و أصيّف وأنا في وسط بلادي و عندي أولادي و أهلي و يأتي إليّ ما أريد ، و أنا رجل شيخ قد كرهت لذّات الدنيا و شبعت منها ، و رفضتُها عني ، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غيرُ العسكر الذي يكون عندي في الصيف ، و أنا أعتقد أنّي في أعظم العبادات ، و لا أزال كذلك حتى يعطي الله النصرَ لمن يشاء".

فلما سمع الرسولُ ذلك طَلَبَ أن يجتمع بالملك العادل فأذِنَ له في ذلك ، فسار إلى خيمته ، و كان قد تأخّر بسبب مرضٍ اعتراه إلى موضع يقال له صمويل ، فسار الرسول إليه مع جماعة .

ثم بلغ السلطانَ أنّ عسكر العدوّ قد رحل من عكّا قاصداً يافا للإنجاد ، فجمع أربابَ الرأي و عقد مشورة في قصدهم ، فاتّفق الرأي على أنهم يقصدونهم ، و يرحل بالثّقل إلى الجبل ، و يقصدونهم جريدة، فإنْ لاحت فرصةٌ انتهزوها و إلاّ رجعوا عنهم . و هذا أوْلى منْ أنْ نصبرَ حتّى تجتمعَ عساكر العدوّ ، و نرحل إلى الجبل في صورة منهزمين ، و أمّا إذا وصلْنا الآن ففي صورة طالبين .

فأمر السلطان الثّقلَ أنْ يسير إلى الجبل عشية الاثنين الحادي والعشرين من رجب ، وسار هو جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء ، حتى

---

(١)تشتيه : قضاؤه فصل الشتاء .

نزل على العَوْجاء .

ووصل إليه مَنْ أخبره أنّ عسكر العدو قـد وصـل قيسـارية ، ودخل عليها، و لم يبق فيه طمعٌ ، و بلغه أن الانكتار قد نزل خارجَ يافـا في نفر يسير بِخِيَمٍ قليلة ، فوقع له أنْ ينتهز فيـه الفرصـةَ ، و يكبـس خِيَمَهُ، وينال منهم غرضاً ، و عزم على ذلك ، و سار مِـنْ أوّل الليـل والأدّلة من العرب تتقدّمه ، و هو يقطع الطريق إلى أن أتى في الصبـاح إلى خيام العدو فوجدها تقريباً عشرَ خيم ، فداخله الطمعُ ، وحملوا حملـة الرجل الواحد فثبتوا في أماكنهم و كشروا عن أنياب الحرب فوجموا مـن ثباتهم و دار العسكر حلقة واحدة .

و لقد حكى لي بعضُ الحاضرين ، فإنّي كنتُ تأخَّرْتُ مع الثقـل ولم أحضرْ هذه الوقعةَ لالتياث مزاجي ، أنَّ عِدّةَ الخيل كـان يَحْزِرُهـا المكثرُ سبعةَ عشرَ ، و المُقلُّ تسعةً ، و الرِّجال دون الألف ، فَمِنْ قـائلٍ : ثلاثمائة ، و من قائل أكثر من ذلك ، مغيظـة عظيمـة ، و دار علـى الأطلاب يحثُّها ، فلم يجبْ دعاءه سوى ولدِه الملك الظاهر ، و قال لـه الجناحُ أخو المشطوب : قل لغلمانك الذين ضربوا الناسَ يوم فتح يافـا ، وأخذوا منهم الغنيمةَ ، و كان في قلوب العسكر مِنْ صُلْـح يافـا حيـث فوّتُوهم الغنيمةَ ما كان ، و جرى ما جرى ، ما أثّر هذا الأثر .

فلما رأى السلطانُ ذلك رأى أنّ وقوفَه في مقابلة هـذه الشِّـرذمة اليسيرة من غير عمل خِسّةٌ في حقّه ، و قد بلغني أنّ الانكتار أخذ رمحـه ذلك اليومَ وحمل مِنْ طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرّضْ لـه أحد .

فغضب السلطان ثم أعرض عن القتال ، و سار حتى أتى بلزور كالمغضب ، ونزل بها ، و ذلك في يوم الأربعاء الثالثَ و العشرين من رجب ، و باتَ العسكر باليزك ، ثم أصبح يوم الخميس ، فسار إلى النطرون و نزل به ، و أنفذ إلى العسكر ، فأحضره عنده فوصلْنا إليه آخرَ نهارِ الخميسِ الرابع و العشرين فبات به ، ثم أصبح يوم الجمعة ، فسار إلى أخيه العادل يفتقده ، ودخل القدسَ ، و صلَّى الجمعة ، ونظر العمائر و رتّبها ، ثم عاد مِنْ يومه إلى الثّقل ، و بات فيه على النطرون.

﴿ذكر قدوم العساكر﴾

كان أول مَنْ وصل علاء الدين بن أتابك(١) صاحب الموصل ، وكان وصولُه ضحاءَ نهارِ السبت السادس والعشرين من رجب ، فلقيه السلطانُ عن بعد و احترمه و أكرمه و أنزله عندَه في الخيمة ، وعمل همّةً حسنة ، و قدّم له تقدمة جميلة ، ثم سار إلى خيمته .

و أمّا رسول الملك فإنّه عاد في هذا اليوم ، فإنّ الملكَ العادلَ قد حمّله رسالةَ مشافهة إلى الملك ، وعاد مع الحاجب أبي بكر إلى يافا ، فعادَ أبو بكر و حضر عندَ السلطان في ذلك اليوم ، و أخبره أنّ الملك لم يتركْني أدخلُ يافا ، و خرج إليَّ و كلّمني في ظاهرها ، و كان كلامه إليَّ : كم أطوّح(٢) نفسي على السلطان و هو لا يقبلني ، و أنا كنتُ

---

(١)من سلالة الدولة الأتابكية في الموصل ، و مؤسّسها الملك الشهيد عماد الدين زنكي بن آق سُنْقر ، ولقّب عماد الدين بأتابك لأن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي (ت٥٢٥هـ) صاحب الريّ قد عهد إليه بتربية ابنه " فرّخشاه " ، و معنى " أتابَك " الجَدّ والمربّي، و هذه الكلمة مؤلّفة من قسمين : (أتا : أب) و (بيك : كبير) و هي كلمة تركية . (٢)أطوّح نفسي : أُلقي بها .

أحرص أن أعود إلى بلادي ، و الآن قد هجم الشتاء و تغيرت الأنـــواء ، و قد عزمت على الإقامة ، و ما بقي بيننا حديث . هكذا كان جوابه خذله الله تعالى .

و لما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عســكر مصــر فخــرج السلطان إلى لقائهم ، و كان فيهم مجد الدين هلدري و سيف الدين يــلزكج و جماعة الأسدية ، و كان في خدمته الملك المؤيد مسعود ، و قد أظهروا الزينة و نشروا الأعلام و البيارق ، فكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم عنــده و مد الخوان(١)، ثم ساروا إلى منازلهم .

﴿ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله﴾

و كان قد تسلم البلاد التي وعد بها ، و كان وصوله إلـــى خدمـــة الملك العادل في يوم السبت حادي عشر شعبان ، فـــنزل عنـــده ، بمـــاء صمويل ، و افتقده ، و كتب الملك العادل في ذلك اليوم إلـــى الســـلطان يخبره بوصوله، و سأله في احترامه و إكرامه و إطلاق الرحمة له .

ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه ، و افتقاد الملك العادل فأذن له في ذلـــك ، فســـار فوجـــد الملـــك المنصور مخيما ببيت نوبة ، فنزل عنده ، و خرج إلى لقائــــه ، و أقـــام عنده إلى العصر ، و ذلك في يوم الأحد ، ثم أخذه و سار بـــه جريـــدة ، حتى أتى خيمة السلطان ، و نحن في خدمته فدخل عليه فاحترمه ونهض

(١)الخوان : (بضم الخاء و كسرها) : ما يؤكل عليه .

إليه فاعتنقه و ضمّه إلى صدره ثم غشيه البكاء ، فصبّر نفسه حتى غلبه الأمر ، و غشيه من البكاء ما لم يُرَ مثله(١)، فبكى الناس لبكائه ساعةً زمانية ثم باسطه و سأله عن الطريق ، ثم انفصل و بات في خيمة الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين ، ثم ركب و عاد إلى عسكره ، و نشروا الأعلام و البيارق ، و كان معه عسكر جليل ، فقرَّتْ عينُ السلطان ، ونزل في مقدّمة العسكر ، مما يلي الرملة .

﴿ذكر رحيله رحمه الله إلى الرملة﴾

و ذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعتْ جَمَعَ أربابَ الرَّأْيِ و قال: إنّ الانكتار قد مَرِضَ مرضاً شديداً ، و الإفرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شكّ ، و نفقاتهم قد قلَّتْ ، و هذا العدو قد أمكن اللهُ منه ، و أرى أنْ نسير إلى يافا ، فإنْ وجدْنا فيها مطمعاً بلغناه ، وإلاّ عُدْنا تحتَ الليل إلى عسقلاّن فما تَلْحَقُنا النجدةُ إلاّ و قد نِلْنا منها غرضاً. فرأَوْا ذلك رأياً ، و تقدّم إلى جماعة من الأمراء كعزّ الدين جرديك وجمال الدين فرج و غيرهما بالمسير في ليلة الخميس سادسَ شعبانَ حتى يكونوا قريباً من يافا في صورة يزك يستطلعُون كم فيها من الخيّالة والرّجّالة بالجواسيس ، ثم يعرّفونه ذلك . فساروا .

---

(١)كان تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه ــ و هو والد الملك المنصور ــ من الأبطال الأفذاذ و من أشدّ الناس إخلاصاً في مجاهدة الصليبيّين ، و لم يتخلّف عن عمه صلاح الدين ، و كان الملك الناصر السلطان صلاح الدين شديد المحبّة له ، فلما رأى ولده تذكّره ، هذا من ناحية . و من ناحية أخرى فرِحَ السلطان بعودة الملك المنصور إلى متابعة الجهاد معه ، و كان قد بدتْ بينهما جفوةٌ ، كما مرّ بنا .

هذا و رسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة و الثلج ، ووقـــع عليه في مرضه شهوةُ الكُمّثرى والخوخ ، فكان السلطان يمـــدّه بذلـــك ، ويقصد كشفَ الأخبار بتواتُر الرسل . و الذي انكشف من الأخبار أنّ فيها ثلاثَمائة فارسٍ على قول المُكْثر ، و مئتي فارس على قول المُقِـلّ ، و أنّ الكندهري يتردّد بينه و بين الفرنسيسية فـــي مــقامهم ، و هم عـــازمون على عبور البحر قولاً واحداً ، و أنّهم لا عناية لهم بسور البلد ، و إنّمـــا عنايتُهم بعمارة سور القلعة ، و كان الانكتار قد طلب الحاجب أبـــا بكـــر العادليَّ و كان له معه انبساطٌ عظيم .

فلمّا تحقّق السلطانُ الأخبارَ أصبح يومَ الخميس راحلاً إلى جهـــة الرملة ، فنزل بها ضاحيَ نهار ، ووصل الخبرُ من الُمِغيرين يقولـــون : إنا أَغرْنا على يافا ، فلم يخرجْ إلاّ نحو ثلاثمائة فارس ، معظمهم علـــى بغال . فأمرهم السلطان بمقامهم هناك . ثم وصل الحاجب أبو بكر و معه رسولٌ من عند الملك يشكر السلطان على إنعامه بالفواكه و الثلج ، وذكر أبو بكر أنه تفرّد به و قال له : قل لأخي الملك العـــادل يبصـــر كيـــف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح و يستوهب لي منـــه عســقلان ، وأمضي أنا ، و يبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البـــلادَ منـــهم ، فليس لي غرض إلاّ إقامة جاهي بين الإفرنج ، و إنْ لم ينزل الســـلطانُ عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عِمارة سورها .

فلما سمع السلطان ذلك سيّرهم إلى الملك العادل و أَسَرَّ إلى ثقـــةٍ عنده أن يمضيَ إلى الملك العادل ، و يقول له إنْ نزلوا عـــن عســقلان

فصالْحِهُمْ ، فإنّ العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار و النفقـــات قـــد نَفِدَتْ . فسار ضحى الجمعة سابعَ عشرَ شعبان .

﴿ذكر الإجابة إلى النزول عن عسقلان﴾

و لمّا كان غروبُ الشمس من اليوم المذكور أَنْفَذَ بدر الدين دلـدرم مـــن اليزك يقول إنه قــد خرج إلينا خمسة أنفس منهم شخصٌ مقدَّم عند الملك يسمّى هوات ، و ذكروا أنّ لهم معنا حديثاً ، فهل أسمعُ حديثَــهم أوْ لا ؟ فأذن له السلطانُ في ذلك . و لما كانت العشاءُ الآخرة حَضَرَ بـــدرُ الدين بنفسه ، و أخبر أنّ حديثَهم كان أن الملك قد نزل عن عســـقلاّن ، وعن طلب العِوَضِ عنها ، و قد صحّ مقصودُه فـــي الصُّلْـــح ، فأعـــاده السلطان ثانيةً ليُنفذ إليه ثقةً يأخذ يده على ذلك ، و يقول إنّ السلطان قـــد جمع العساكر و ما يمكنني أنْ أحدّثه هذا الحديث إلا بأن أثـــقَ أنـــك لا ترجع ، و بعد ذلك أحدّثه ، و سار بدر الدين على هذه القاعدة ، و كتـــب إلى الملك العادل يخبره بما جرى .

و لما كان يومُ السبت ثامنَ عشرَ شعبان ، أنفذ بدر الدين ، و ذكر أنه أخذَ يدَه على هذه القاعدة بمن يثقُ به ، و أن حدود البلاد علـــى مـــا استقرّ في الدُّفعة الأولى مع الملك العادل . فأحضر الســـلطان الديـــوانَ فذكروا يافا و أعمالها و أخرج الرملة و يبنى و مجدل يابـــا ثـــم ذكـــر قيسارية و أعمالها و أرسوف و أعمالـــها و حيفـــا و أعمالـــها و عكّـــا وأعمالها وأخرج منها الناصرة و صفورية ، و أثبت الجميع في ورقـــة

وكتب جواب الكتاب و أنفذه على يد طرنطاي مع الرسول ، و كان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت ، و قال للرسول: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإنْ صالحتم على ذلك فمبارك ، قد أعطيتم يدي ، و لْيُنفِذِ الملك مَنْ يحلف ، و يكون ذلك في غداة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع و مماطلة ، و يكون الأمرُ قد انفصل من بيننا . و ساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة .

و لما كانت العشاءُ الآخرة يوم الأحد وصل مَنْ أخبر بوصول طرنطاي و معه الرسول ، و استأذن في حضورهما فأذن رحمه الله في حضور طرنطاي وحده ، فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة ، وأنكر أنّه نزل عن العوض فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بين يدي دلدرم أنه نزل عن ذلك فقال إذنْ أنا قلتُه فلا أرجع عنه . قولوا للسلطان مبارك رضيتُ بهذه القاعدة ، و قد رجعت إلى مروءتك ، فإن زدتَني شيئاً فمن فضلك و إنعامك . ثم سارَ و أحضر الرسل ليلاً وأقاموا إلى بكرة ، و حضروا عند السلطان بكرةَ الاثْنين ، فذكروا ما استقرّ عن صاحبهم ثم انفصلوا إلى خيمهم ، و حضر عند السلطان أربابُ المشورة واستقرّ الأمر و انفصلت القاعدة ، و سار الأمير بدر الدين دلدرم إلى الملك العادل ، و أخذ الرسل معه في صورة مَنْ يسأل في زيادة الرملة ، و عاد في عشاء الآخرة ليلةَ الاثنين ، و كُتبت المواضعة[1] و ذُكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها ، و هو الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانٍ و ثمانين و خمسمائة ، و يزاد فيها الرملة لهم ولدّ

(١)المواضعة : الاتفاقية .

أيضاً ، و سيّر " العدل "[1] و قال له : إن قـــدرتَ أنْ تُرضيــهم بــأحد الموضعيْنِ أو مناصفتهما فافعل ، ولا يكون لهم حديث فــي الجبليــات . ورأى السلطان ذلك مصلحةً لما عرى الناس من الضعف وقلّةِ النفقــات والشَّوقِ إلى الأوطان ، و لما شاهده من تقاعدِهم عن يافا يــوم أَمَرَهــم بالحملة فلم يحملوا ، فخافَ أن يحتاج إليهم فلم يجدهم ، فرأى أنْ يحييــهم مدّةً حتى يستريحوا ، و يتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا إليها ، ويعمر البلاد ، و يشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة و يتفرّغ لعمارتها .

و كان من القاعدة أنّ عسقلان تكون خراباً ، و أن يتفق أصحابُنــا و أصحابُهم على خرابها ، خشيةَ أنْ نأخذها عامرةً فلا نخربها ، فمضــى العدل على هذه القاعدة ، و اشترط دخول البلاد الإسلامية ، و اشــترطوا هم دخول صاحب أنطاكية و طرابلس في الصُّلْح على قاعدة آخِرِ صلــح صالحناهم عليه ، و استقرّ الحال على ذلك ، و سارت الرســل و حكــم عليهم أنْ لا بدّ من فصل الحال إمّا الصلح وإمّا الخصومــة ، خشــيةَ أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة و مدافعاته المعروفة .

و في ذلك اليوم وصل رسول سيفِ الدين بكتمر صاحب خـــلاط ببذل الطاعة و الموافقة و سيّر العساكر ، و حضر رسولُ الكرج ، وذكر فصلاً في معنى الزيادات التي لهم في القدس و عمارتها ، وشكَوا أنــــها أُخذت من أيديهم ، و يسأل عواطف السلطان أن يردّها إلـــى نوابــهم ، ورسول صاحب أرزن الروم ببذل الطّاعة و العبودية .

---

(١)العدل : من رجال الدولة الصلاحية .

﴿ذكر تمام الصلح﴾

و لمّا وَصَلَ العدل إلى هناك أُنزل خارجَ البلد في خيمة ، حتى أُعلم الملك به ، فلما علم به استحضره عنده مع بقيّة الجماعة ، و عرض "العدل" عليه النسخة و هو مريض الجسم ، فقال : لا طاقةَ لي بالوقوف عليها ، و أنا قد صالحتُ ، و هذه يدي . فاجتمعوا بالكندهري و الجماعة وأوقفوهم على النسخة و رضوا بُلدّ و الرملة مناصفةَ و بجميع ما في النسخة ، و استقرّت القاعدةُ أنهم يحلفون بكرةَ يوم الأربعاء لأنّهم كانوا قد أكلوا شيئاً و ليس من عادتهم الحلفُ بعد الأكل و أَنْفَذَ العدلُ إلى السلطان مَنْ عَرّفه ذلك .

و لمّا كان يومُ الأربعاء الثاني و العشرون من شعبان حضر الجماعةُ عند الملك ، و أخذوا يده و عاهدوه ، و اعتذر أنّ الملوك لا يحلفون ، و قنع السلطانُ بذلك ، ثم حلف الجماعةُ و المستحلف الكندهري ابن أخته المستخلَف عنه في الساحل ، و باليان بن بارزان صاحب طبرية ، و رضِيَ الإسبتار و الداويّة و سائرُ مقدمي الإفرنجيّة بذلك ، وساروا بقيّة يومهم عائدين إلى المخيّم السُلْطاني فوصلوا العشاء الآخرة ، و كان الواصلون من جانبهم ابن الهنغري و ابن بارزان و جماعة من مقدَّميهم فاحتُرموا و أُكرموا ، و ضربت لهم خيمة تليق بهم ، وحضر العدل و حكَى ما جرى .

و لما كانت صبيحةُ الثالثِ و العشرين حضر الرّسلُ في خدمة السلطان ، و أخذوا بيده الكريمة ، و عاهدوه على الصُّلح على القاعدة المستقِرّة ، و اقترحوا حلْفَ جماعة ، و هم الملك العادل و الملك الأفضل و الملك الظاهر عزّ نصرهم ، و المشطوبُ و بدر الدين دلدرم ، والملك المنصور ، و مَنْ كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدّم و صاحب شيزر وغيرهم ، فوعدهم السلطانُ أنْ يُسيّر معهم رسلاً إلى الجماعة المجاورين ليحلّفوهم لهم ، و حلف لصاحب أنطاكية و طرابلس ، وعلّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإنْ لم يحلفوا فلا يدخلوا في الصلح .

ثم أمر المنادي أنْ يُنادي في الوطاقات و الأسواق ألاَ إنّ الصلح قد انتظم في سائر بلادهم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخلَ إلى بلادنا فليفعلْ ، و من شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل ، و أشار رحمة الله عليه ــ أنّ طريق الحج قد فُتِحَ من الشام ، ووقع له عَزْمٌ على الحجّ في ذلك المجلس ، و كنت حاضراً ذلك جميعَه ، و أمر السّلطانُ أنْ تُسيَّر مائةُ نَقّاب لتخريب سور عسقلان ، معهم أميرٌ كبيرٌ ، و لإخراج الإفرنج منها ، و يكون معهم جماعة من الإفرنج إلى حين وقوعِ الخراب في السور خَشيةَ استبقائِه عامراً . وكان يوماً مشهوداً غشِيَ الناسَ من الطائفتيْنِ فيه من الفرح و السرور ما لا يعلمُه إلاّ اللهُ تعالى .

و اللهِ العظيم إنّ الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنّه قال لي في بعض محاورته في الصلح : أخافُ أن أصالحَ و ما أدري أيّ شيء يكون مني، فيقوَى هذا العدوّ و قد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقيّةِ

بلادهم ، ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه ، و قال لا أنزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه ، و كان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر و تظاهرهم بالمخالفة ، وكانت مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، و لو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقا و سعادة له .

﴿ذكر خراب عسقلان﴾

و لما كان الخامس و العشرون من شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر إلى خراب عسقلان و سير معه جماعة من النقابين و الحجارين ، و استقر أن الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ، ويخرج الإفرنج منها ، فوصلوا إليها من الغد ، فلما أرادوا التخريب اعتذر الأجناد الذين بها بأن لنا على الملك جامكية[1] لمدة ، فإما أن يدفعها إلينا و نخرج ، أو ادفعوها أنتم إلينا ، فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج ، فخرجوا ووقع التخريب فيها في السابع والعشرين من شعبان ، و استمر يخربها ، و كتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب ، و أعطى كل واحد قطعة معلومة في السور ، و قيل له : دستورك في تخريبها[2] .

(١)مرتب خدام الدولة من العسكر و غيرهم ، و الكلمة تركية .

(٢)أي إجازتك تحصل عليها متى فرغت من تخريب ما كلفت بتخريبه . و عندئذ تأخذ الإذن بالعودة إلى بلدك .

و لما كان التاسعُ والعشرون رحَلَ السـلطان إلـى النطـرون ، واختلطَ العسكرانِ ، و ذهب جماعةٌ من المسلمين إلى يافـا فـي طلـب التجارة ، ووصل خَلْقٌ عظيم من العدوّ إلى القدس للحـجّ و فتَـحَ لـهم السلطانُ البابَ ، و أنفذَ معهم الخُفَراءَ يحفظونهم ، حتى يردّهم إلى يافـا ، و كثُر ذلك من الإفرنج و كان غرضُ السلطان بذلك أن يقضُوا غرضَـهم من الزّيارة ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمنَ المسلمون من شرّهم .

و لما علم الملكُ كثرةَ مَنْ يزورُ منهم صعُب عليه ذلك و سيّر إلى السلطان يسـأله منعَ الزّوّار ، و اقترح أنْ لا يُؤْذَنَ لهم إلاّ بعد حضـور علامةٍ من جانبه أو كتابة ، و علمت الإفرنجُ ذلك ، فعظُمَ عليهم و اهتمّوا في الحجّ ، فكان يرِدُ منهم في كل يوم جموعٌ كثيرة ، مقدّمون و أسـباطٌ وملوكٌ متنكّرون ، و شَرَعَ السلطانُ في إكرام من يَـرِدُ و مـدّ الطعـام ومباسطتهم و محادثتهم ، و أذِنَ لهم السلطان في الحجّ ، و عرّفهم إنكـار الملك ذلك وعرّفهم أنه لم يلتفتْ إلى منع الملك منْ ذلك ، و اعتذر إلـى الملِك بأنّ قوماً قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشـريف فـلا أستحلُّ منعَهم. ثم اشتدّ المرضُ بالملك فرحلَ في ليلة التاسعِ و العشـرين، و سارَ هو و الكندهري و سائر العدوّ إلى جانب عكا ، و لم يبقَ في يافـا إلا مريضٌ أو عاجزٌ و نفرٌ يسير .

﴿ذكر عود العساكر الإسلامية إلى أوطانهم﴾

و لما انقضى هذا الأمرُ و استقرّت القواعدُ أعطَى السلطانُ الناسَ دستوراً ، وكان أوّل مَنْ سار عسكر أربل ، فإنه سار في مستهلّ شهر رمضانَ المبارك ، ثم سارَ بعده في ثانيه عسكر الموصل و سنجار والحصن ، و أشاع أمرَ الحجّ ، و قوِيَ عزمه على براءة الذّمّة ، و كان هذا مما وقع لي ، و بدأتُ بالإشارة به فوقع منه موقعاً عظيماً ، وأمر الديوان و كلّ مَنْ عزم على الحج من العسكر أنْ يُثبتَ اسمه حتى يحصُرَ عِدّة مَنْ يدخل معنا في الطريق ، و كتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع و الأزواد و غيرها ، و سيّرها إلى البلاد ليُعدّوها .

و لما أعطى الناسَ دستوراً و علم عَوْدَ العدوّ قد رجع إلى ورائه ، رأى الدّخولَ إلى القدس الشريف لتهيئة أسبابِ عِمارته ، و النظرِ في مصالحه ، والتأهُّب للمسير إلى الحج ، فرحل من النطرون يوم الأحد رابعَ شهرِ رمضان ، و سار حتى أتى ماءَ صمويل يفتقد الملك العادل ، فوجده قد سار إلى القدس ، و كنت عنده رسولاً من جانب السلطان أنا والأمير بدر الدين دلدرم و العدل ، و كان قد انقطع عن أخيه مدّة بسبب مرضه ، و كان قد تماثل(١)، فعرّفناه مجيء السلطان إلى ماء صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه و سار معنا حتى لقيه في ذلك المكان ، و هو أوّل وصوله إلى ماء صمويل ، و لم ينزلْ بعد ، فلقيه و نزل و قبّل الأرض ، و عاد فركب فاستدْناه و سأله عن مزاجه و سارا جميعاً حتّى أتيا القدسَ الشريف في بقية ذلك اليوم .

---

(١)تماثل العليل من علته : قارب البُرْء ، فصار أشبه بالصحيح .

﴿ذكر وصول رسول من بغداد﴾

و لما كان يومُ الجمعة الثالثُ و العشرون من شهر رمضان صلّى الملك العادلُ الجُمُعةَ ، وانصرف إلى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ، و يعودَ إلى البلاد الشرقية يدبّرها ، فإنّه كان قد أخذها من السلطان ، و كان قد ودّع السلطان ، فلما وصل العازرية نزل بها مُخيّماً ، فوصله مَنْ أخبر أنّ رسولاً من بغداد واصلٌ إليك ، فأنفذَ إلى السلطان ، و عرّفه ، فذكر له أنْ يجتمع و يطالع ما وصل فيه .

فلما كان السبتُ الرابع والعشرون دخل إلى الخدمة السلطانية ، وذكر أنّ الرسول قد وصل إليه من جانب ابن النافذ بعد أن ولّي نيابةَ الوزارة ببغداد ، ومقصود الكتاب أنه يحثّه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، و الدخول بينه و بين الديوان العزيز ، و الإنكار عليه بتأخُّر رسلِه عن العتبة الشريفة ، و اقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة ، تتحرّر بينه و بين السلطان لا بدّ منها ، و قد وُعِد الملك العادلُ من الديوان بوعود عظيمة إذا قرّر ذلك، و تكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد ، و ما يشبه هذا الفن.

فحدثتْ عند السلطان فكرةٌ في إنفاذ رسولٍ يسمع كلامَ الديوان ، و يستعلم سببَ دخول الملك العادل في البين ، و زاد الحديث و نقص وطال و قصر ، و قوِيَ العزمُ السلطانّي على إنفاذ الضياء الشهرزوري.

و عاد الملك العادل إلى مخيّمه بالعازرية ، بعد تقرير هذه القاعدة، وعرّفه إجابةَ السلطان إلى إنفاذ رسول إلى خدمة الديوان العزيز، و سار يوم الاثنين طالباً جهة الكرك ، و سار الضياء متوجّهاً إلى بغداد يومَ الثلاثاء السادسَ والعشرين من شهر رمضان .

﴿ذكر توجّه ولده الملك الظاهر إلى بلاده ووحشة السلطان له ﴾

و لما كانت بُكْرَةُ التاسع و العشرين توجَّه الملكُ الظاهر عزَّ نصرُه بعدَ أن ودّعه ، و نزل إلى الصَّخرة ، فصلّى عندَها ، و سأل الله تعالى ما شاء ، ثم ركب و ركبْتُ في خِدْمته ، فقال لي : قد تذكّرتُ أمراً أحتاج فيه إلى مراجعة السلطان مشافهةً ، فأنفذ منِ استأذن له العودَ إلى خدمته ، فأذن له في ذلك ، فحضر و استحضرني ، و أخلى المكانَ ، ثم قال مومياً لولده : (أوصيكَ بتقوى الله تعالى ، فإنّها رأسُ كلّ خير ، وآمرُك بما أمر الله به ، فإنه سببُ نجاتِك ، و أحذّركَ من الدّماء والدخول فيها ، والتقلّد بها ، فإنّ الدم لا ينام ، و أوصيك بحفظ قلوبِ الرعيّة و النظرِ في أحوالهم ، فأنتَ أميني و أمينُ الله عليهم ، و أوصيك بحفظ قلوبِ الأمراء وأرباب الدولة و الأكابر ، فما بلغتَ ما بلغتَ إلاّ بمدارة الناس ، و لا تحقدْ على أحد ، فإنّ الموت لا يُبْقِي على أحد ، واحذرْ ما بينك و بين الناس ، فإنّه لا يُغفر إلا برضاهم[1]، و ما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فإنه كريم) .

---

(١)من شروط التوبة النّصُوح أنْ يردّ التائب حقوق العباد إليهم ، و يسامحوه .

و كان ذلك بعد أن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ما شـــاء الله أن يمضي ، و هذا ما أمكنني حكايته و ضبطه ، و لم يزل بين يديـــه إلى قريب السحر ، ثم أذن له في الانصراف و نهض له ليودّعه ، فقبّـل وجهه ، و مسح على رأسه وانصرف في دعة الله ، و نــام فـــي بُـرْج الخشب الذي للسلطان ، و كنا نجلس عنده فـــي الأحيــان إلــى بكــرة وانصرفتُ في خدمته إلى بعض الطريق وودّعته ، و سار في حفظ الله .

ثم سيّر الملكُ الأفضل ثقلَه ، و أقام يراجع السلطان على لســاني في أشغال كانت له ، حتى دخل في شوال أربعةُ أيام ، و سار في ليلـــة الخامسِ منه ، نصفَ الليل عن تعتُّب ، عليه جريدة على طريق الغَوْر .

﴿ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف﴾

و أقام السلطان يقطع الناسَ و يعطيهم دستوراً و يتأهّب للمســير إلى الديار المصرية ، و انقطع شوقه عن الحــج ، و كــان مــن أكــبر المصالح التي فاتتْه ، و لم يزلْ كذلك حتى صحّ عنـــده إقـــلاعُ مركــب الانكتار متوجّهاً إلى بلاده مستهلَّ شوال ، فعند ذلك حرّر السلطانُ عزمَه على أنْ يدخل الساحل جريدة ، و يفتقد القلاع البحريّةَ إلـــى بانيــاس ، ويدخل دمشقَ المحروسة ، يقيم بها أياماً قلائل ، و يعــود إلــى القــدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية يفتقد أحوالها و يقرِّرُ قواعدها وينظر في مصالحها ، و أمرني بالمقام في القدس الشريف ، لعمارة بيمارســتان أنشأه فيه ، و إدارة المدرسة التي أنشأها فيه ، إلى حين عَوْدِه، و ســـار

من القدس الشريف ضَحْوةَ نهارِ الخميس سادسَ شوال ، وودّعته إلى إلبيرة ، و نزل بها ، و أكل فيها الطعام ثم أتى بعض طريق نابلس ، فبات فيه ، ثم أتى نابلس ضَحْوةَ نهارِ الجمعةِ سابع شوال ، فلقيه خلقٌ عظيم يستغيثون من المشطوب و يتضوّرون من سوء رعايته لهم ، فأقلم يكشفُ عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ، ثم رحل و نزل بسبصطية[1] يتفقّد أحوالها ، ثم أتى في طريقه إلى كوكب ، و نظر في أحوالها و سدَّ خللَها ، و ذلك في يوم الاثنين عاشرَهُ .

و كان فكاك بهاء الدين قراقوش من رِبْقة[2] الأسر يومَ الثلاثاء حاديْ عشرَ شوالٍ ، و مَثَلَ في الخدمة السلطانية ، ففرِحَ به فرحاً شديداً، و كانتْ له حقوقٌ كثيرة على السلطان ، و على الإسلام ، و استأذن السلطانَ في المسير إلى تحصيل القطيعة[3] ، فأذن له في ذلك ، و كانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفاً و الله أعلم .

و لما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً ، فبالغ في احترامه و إكرامه و مباسطته وأنعم عليه بالعَمْق و زرعان و مزارع تغلّ خمسة عشر ألف دينار . وكان قد خلّف المشطوبَ في القدس من جملة العسكر المقيمين به ، و لم يكن واليه ، و إنما كان واليه عز الدين جرديك ، و كان ولاّه بعد الصلح حالةَ

(١)قال ياقوت : " سَبَسْطِيَةُ : بلدة من نواحي فلسطين بينها و بين البيت المقدس يومان ، و بها قبر زكرياء و يحيى بن زكرياء عليهما السلام ، و جماعة من الأنبياء و الصدّيقين ، و هي من أعمال نابلس " [معجم البلدان ٣/١٨٤] .

(٢)ربقة : حبل ، عُرْوة ، حلْقةٌ .

(٣)القطيعة : الجزء من الأرض يملّكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحة .

عوده إلى القدس ، بعد أن شاور فيه الملكَ العادل و الملك الأفضل والملك الظاهر ، على لساني ، و أشار به أهل الدين و الصلاح ، لأنه كان كثير الجدّ و الخدْمة و الحفظ لأهل الخير ، فأمرني السلطان أنْ أولّيه ذلك في يوم الجمعة عند الصَّخْرة ، وولّيتُه إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطتُ عليه الأمانة ، و عرَّفته موضوعَ حسن اعتقاد السلطان فيه ، و انعقد الأمر ، و قام به القيام المرضيّ . و أما المشطوبُ فإنه كان مقيماً بالقدس من جملة مَنْ كان مقيماً بها ، و توفّيَ يومَ الأحد الثالثَ والعشرين من شوال ، و دُفِنَ في داره بعدَ أنْ صُلّي عليه في المسجد الأقصى رحمه الله .

﴿ذكر عود السلطان إلى دمشق المحروسة﴾

و كان عَوْدُه إليها بعد الفراغ من تصفُّحِ أحوال القِلاع السَّاحلية بأسرها ، والتقدُّم بِسَدّ خَلَلها و إصلاح أمور أجنادها و شَحْنها بالأجناد والرّجال ، و دَخَلَ دمشقَ بُكْرةَ الأربعاء السادسَ و العشرين من شَوّال ، و فيها أولادُه الملكُ الأفضل و الملكُ الظاهر و الملكُ الظافر ، و أولاده الصغار ، و كان يحبّ البلد[1] و يؤْثِر الإقامةَ فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس في بُكرة الخميس السابعَ و العشرين منه ، و حضر الناسُ عنده و بلُّوا شوقهم[2] من رؤيته ، و أنشده الشعراء[3]، و عمّ ذلك

---

(١)أي دمشق . (٢) بلّ : ندى ، أي رووْا ظمأهم إليه ، و التّعبير مجازي . (٣) كقول بعضهم :

مَلِكٌ طبّق الممالكَ بالعَدْلِ — كما أوسع البريّةَ بِرّا

قد جمعْتَ المجدَيْنِ أصلاً و فَرْعاً — و ملكْتَ الداريْنِ دنيا و أخرى

[البداية و النّهاية (مكتبة المعارف) ٣٥٢/١٢] .

المجلس الخاص و العام ، و أقام ينشر جناحَ عدْلِه ، و يُهطل سحاب إنعامه و فضلِه ، و يكشف مظالمَ الرَّعايا في الأوقات المعتادة ، حتى كان يوم الاثنين مستهلَّ ذي القعدة اتّخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركةُ السلطان إليها ، فأقام حتى يتملّى بالنظر إليه ثانياً ، و كأن نفسه الشريفة كانتْ قد أحسَّت بدنوّ أجل السلطان ، فودّعه في تلك الليلة مِراراً متعدّدة و هو يعود إليه .

و لمّا اتخذ الملكُ الأفضل له دعوة أظهر فيها مِنْ بديع التجمُّلِ وغريبه ما يليق بهمّته ، و كأنه أراد مُجازاتَه عمّا خدمه به حين وصوله إلى حلب ، وحضرها أربابُ الدنيا و أبناء الآخرة ، و سأل السلطانَ الحضورَ ، فحضر جبْراً لقلبه .

﴿ذكر قدوم الملك العادل إلى أخيه﴾

و لما تصفّح الملكُ العادل أخبارَ الكرك و أمر بإصلاح ما قصد إصلاحه منه عاد طالباً البلادَ الفراتية ، فوصل أرضَ دمشق يومَ الأربعاء سابعَ عشرَ ذي القعدة ، و كان السلطان قد خرج إلى لقائه و أقام يتصيّد حوالي غباغب[1] إلى الكسوة حتى لقيه و سارا جميعاً ، و كان دخولهما إلى دمشق آخر نهارِ الأحد الحاديْ و العشرين ، و أقام السلطان بدمشق يتصيّد هو و أخوه و أولاده ، و يتفرّجون في أرض دمشق و مواطن الظباء ، و كأنه وجد راحةً مما كان فيه من ملازمة التعب و سهر الليل

---

(١)غباغب : في أوّل ديار حوران ، من نواحي دمشق .

و نَصَبِ النهار ، و ما كان ذلك إلاّ كالوداع لأولاده و مرابع تنزُّهِه ، وهو لا يشعر و نسي عَزْمَةُ المصريّ ، و عرَضتْ له أمورٌ أُخْرى وعزماتٌ غير ذلك .

ووصلني كتابُه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاءٌ شديد ووحلٌ عظيم ، فخرجْتُ من القدس الشريف في يومِ الجمعة الثالثِ و العشرين من المحرَّم سنةَ تسع و ثمانين ، و كان الوصولُ إلى دمشق يومَ الثلاثاء ثاني عشرَ صفر سنة تسع ، و كان وصل أوائل الحجّ على طريق دمشق ، و اتفق حضوري و الملك الأفضل حاضرٌ في الإيوان الشمالي ، و في خدمته خَلْقٌ من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوسَ السلطان لخدمتِه ، فلمّا شَعَرَ بحضوري استحضرني هو وحدَه ، قبل أن يدخل إليه أحدٌ ، فدخلْتُ عليه فقام و لقيني لقاءَ ما رأيتُ أشدَّ مِنْ بِشْرِهِ بي فيه ، و لقد ضمّني إليه ودمعتْ عينُه .

﴿ذكر لقائه للحاج﴾

و لما كان يومُ الأربعاء ثالثَ عشرَ صفر طلبني فحضرْتُ عندَه ، فسألني عمّن في الإيوان ، فأخبرتُه أنّ الملكَ الأفضل جالسٌ في الخدمة ، والأمراء ، و الناس في خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال .

ولما كانت بُكرةُ الخميس استحضرني فحضرْتُ عنده في صُفّة البستان[1] و عنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل له : رسلُ

(١)الصُّفّة : الظُّلّة (المكان المسقوف المظلّل) .

الإفرنج و جماعةُ الأمراء و الأكابر ، فاستحضر رسلَ الإفرنج إلى ذلك المكان ، فحضروا ، و كان له ولدٌ صغيرٌ ، و كان كثيراً ما يميل إليه ، يُسَمَّى الأمير ، و كان حاضراً و هو يداعبه ، فلما وقع بصره على الإفرنج و رأى أشكالَهم ، و حلْقَ لحاهم ، و قَصَّ شعورهم ، و ما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم و بكى ، فاعتذر إليهم و صرَفهم ، بعدَ أن حضروا ، ولم يسمعْ كلامَهم و قال إن لي اليومَ شغلاً ، و كان عادته المباسطة[1]، ثم قال أحضروا لنا ما تيسّر . فأحضروا أرزّاً بلبن، و ما شابه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكلَ ، و كنْتُ أظنّ أنّه ما عنده شهوة ، و كان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركةِ عليه ، و كان بدنُه ملتاثاً ممتلئاً ، و عنده كسل .

فلمّا فرغْنا من الطعام قال : ما الذي عندك من خبر الحاجّ ؟ فقلتُ : اجتمعتُ بجماعة منهم في الطريق ، ولولا كثرةُ الوحل لدخلوا اليومَ ، و لكنهم غداً يدخلون . فقال : نخرج إنْ شاء الله إلى لقائهم ، وتقدَّم[2] بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها سنَةٌ كثيرة الأنداء ، و قد سالت المياه في الطرق و الأنهار .

و انفصلتُ من خدمته و لم أجدْ عنده من النشاط ما كنتُ أعرفه . ثم ركب في بُكرة الجمعة ، و تأخّرْتُ عنه قليلاً ، ثم لقيتُه و قد لقِيَ الحاجَّ ، و كان فيهم سابق الدين و قرالا الياروقي ، و كان كثير الاحترام للمشايخ فلقيهم ، ثم لحقه الملكُ الأفضلُ و أخذ يحدّثني فنظرتُ إلى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده ، و ما كان له عادة يركب بدونه ، و كان

(١)المباسطة : الملاطفة . (٢) تقدّم : أوعز .

يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء السلطان و التفرُّج عليه مُعظمُ مَــنْ فــي البلد، فلم أجد الصّبْرَ دونَ أن سِرْتُ إلى جانبه و حدّثْتُهُ في إهمال هــذا ، فكأنّه استيقظَ ، فطلب الكزاغند فلم يوجد الزركماش ، فوجدْتُ لذلك أمــراً عظيماً و قلت في نفسي: السلطانُ يطلب ما لا بدّ منه فــي عادتــه و لا يجدْه ، ووقع في قلبي تطيّرٌ بذلك ، فقلت له : أليس ثَمَّ طريق نسلكه ليس فيه خلْقٌ كثير ؟ فقال: بلى . ثم سار بين البساتين فطلب جهــة المنيــع ، وسرنا في خدمته و قلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه ، فســار حتى أتى القلعة ، فعبر على الجسر إلى القلعة و هو طريقــه المعتــاد ، وكانت آخر ركوبه .

﴿مرضه رحمه الله عليه﴾

و لما كان ليلةُ السبت وجد كسلاً عظيماً فما انتصف الليلُ حتــى غَشِيَتْه حُمّى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره ، و أصبح فــي يوم السبت سادسَ عشرَ صفر سنة تسع و ثمانين متكسّــلاً عليــه أثــر الحمى، و لم يُظهرْ ذلك للناس لكنْ حضرْتُ أنا و القــاضي الفــاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، و طال جلوسنا عندَه ، و أخذ يشكو من قلَقــه في الليل ، و طابَ له الحديثُ إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا و القلــوبُ عنده ، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل ، و لــم يكن القاضي عادته ذلك ، فانصرفَ و دخلْتُ أنا إلى الإيوان ، وقد مُــدَّ الطعام ، و الملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفْتُ و ما كان لي

قوّة على الجلوس استيحاشاً ، و بكى جماعة تفاؤُلاً[١] بجلوس ولــده فــي موضعه . ثم أخذ المرضُ في تزايد من حينئذٍ ، و نحن نـــلازم الــتردُّدَ طرفي النهار ، و ندخل إليه أنا و القاضي الفاضل في النــهار مــراراً ، ويُعْطي الطريقَ في بعض الأيام التي يجد فيها خفّة ، و كان مرضه فــي رأسه ، و كان من أمارات انتهاء العمر ، إذ كان قد ألِفَ مزاجُه ســفَراً وحضَراً ، و رأى الأطباءُ فَصْدَه ، فصدوه في الرابع فاشــتدّ مرضــه ، وقلّتْ رطوباتُ بدنه ، و كان يغلب عليه اليَبَسُ غَلَبةً عظيمة ، و لم يــزل المرضُ يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف . و لقد جلسنا في ســادسِ مرضه و أسندْنا ظهرَه إلى مخدّة ، و أُحضر ماءٌ فاتر ليشر بــه عُقَيْــب شُرْب دواء ، لتليين الطبيعة ، فَشَرِبَهُ ، فوجده شديد الحرارة ، فشكا مــن شدة حرارته ، و عُرِضَ عليه ماء ثان فشكا مِنْ برده ، و لم يغضــب ، ولم يصخبه و لم يقل سوى هذه الكلمات : ســبحان الله ألا يمكــن أحــداً تعديلُ الماء ؟ فخرجْتُ أنا و القاضي الفاضل مِنْ عنده و قد اشــتدّ بنــا البكاء ، و القاضي الفاضل يقول لي : أبصرْ هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، و الله لو أن هذا ببعض الناس لضرب بــالقدح رأسَ مَنْ أحضره . و اشتدّ مرضه في السادسِ و السابعِ و الثــامنِ[٢] ، ولم يزل يتزايد و يغيبُ ذهنه .

---

(١)تفاءل به : تيمَّن به . من الفَأْل (الفال) و هو قول أو فعل يستبشر به ، و قد يستعمل فيمــا يكره . و يقولون : لا فأل عليك : أي لا ضيرَ عليك .

(٢)أيام الخميس والجمعة والسبت ٢١و٢٢و٢٣ من شهر صفر سنة ٥٨٩ هـ

و لما كان التاسعُ حدثتْ عليه غشيةٌ و امتنعَ مِنْ تناول المشـروب، فاشتدّ الخوفُ في البلد ، و خاف الناسُ و نقلوا الأقمشةَ مـن الأسـواق ، وغشِيَ الناسَ من الكآبة و الحزن ما لا يمكن حكايته . و لقد كنـت أنـا والقاضي الفاضل نقعد كلَّ ليلة إلى أنْ يمضي من الليل ثلثُه ، أو قريـبٌ منه ، ثم نحضر في باب الدار ، فإنْ وجدنا طريقاً دخلْنـا ، و شـاهدناه وانصرفنا ، و إلا عرّفونا أحواله ، و كنا نجد الناسَ يـترقّبون خروجنـا إلى أن يُلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان العاشرُ من مرضه حُقِنَ دُفْعتين ، و حَصَلَ من الحقـن راحة ، و حصل بعضُ خفة ، و تناول من ماء الشعير مقداراً صالحـاً ، وفرح الناس فرحاً شديداً ، فأقمنا على العادة إلـى أنْ مضىَ مـن الليـل هزيعٌ ، ثم أتينا الدارَ فوجدنا " جمال الدولة إقبالاً "[١] فالتمسنا منه تعريف الحال المستجدّ ، فدخل و أنفذ إلينا مع الملك المعظّم "تورانشاه"[٢] جـبره الله تعالى أنّ العرق قد أخذ في ساقَيْهِ فشكرنا الله تعـالى علـى ذلـك ، والتمسْنا منه أن يمسّ بقيّةَ قدمِه و يخبرنا بحاله في العرق فتفقّـده ، ثـم خرج إلينا و ذكَر أن العرق سابغٌ ، و انصرفنا طيّبةً قلوبُنا ، ثم أصبحنـا في الحادي عشر من مرضه و هو السادس و العشـرون مـن صفـر ، فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأُخْبِرْنا بأن العرق أفرط حتى نفَـذَ في الفِراش ، ثم في الحصُر ، و تأثرت بـه الأرض ، و أنّ اليبـسَ قد

---

(١)جمال الدولة إقبال : من وجوه الدولة الصلاحية . (٢) الملك المعظّم تورانشاه بن صلاح الدين الأيوبي ، أبو المفاخر (٥٧٧-٦٥٨هـ) من أمراء الأيوبيّين .

تزايد تزايداً عظيماً ، و حارت في القوّة الأطباء .

﴿ذكر تحليف الأفضل﴾

و لما رأى الملك الأفضل(١) ما حل بوالده و تحقق النـــاسُ موتـــه تسرَّع في تحليف الناس في دار رِضوان المعروفة بسكناه ، و اســتحضر القضاةَ و عمل له نسخةَ يمين مختصرةً محصلة للمقاصد تتضمّن الحلــف للسلطان مدّة حياته و له بعد وفاته ، و اعتذر إلى الناس بأن المرض قــد اشتدّ و ما يعلم ما يكون ؟ و ما يفعل هذا إلاّ احتياطاً على جاري عــــادةِ الملوك ، فأوّل مَن استُحْضر للحلف سعد الدين أخو بدر الديـــن مــودود الشـــحنة ، فبادر إلـــى اليمين مـــن غير شرط ، ثم حضر ناصرُ الديــن صاحب صهيون ، و زاد أن الحصن الذي في يده له ، و حضر ســـابق الدين صاحب شيزر فحلف و لم يذكر الطلاق ، و اعتذر بأنه ما حلـــف به. ثم حضر خشتر بن حسين الهكاري و حلف . و حضر أنوشـــروان الزرزاري و حلف ، و اشترط أن يكون له خبز يرضيـــه . و حضــر علكان و ملكان و حلفا ، ثم مدّ الخوان و حضر الجماعة و أكلوا .

و لما كان العصر أُعيد المجلس للتحليـــف ، و حضــر ميمــون القصري رحمه الله و شمس الدين الكبير و قال نحن نحلف بشــوط أنْ لا نَسُلّ في وجه أحدٍ من إخوتك سيفاً ، لكن رأسي دونَ بلادك . هذا قـــول ميمون القصري . و أما سُنْقر فإنه امتنع ساعةً ثم قال : كنـــتَ حلّفتنـــي على النطرون . و أنا عليها . و حضر سامةً و قال : ليس لي خبز فقـــل

(١)الملك الأفضل نور الدّين علي أكبر أبناء السلطان صلاح الدّين ، و كان نائباً على دمشق .

لي على شيء أحلف فروجع فحلف ، و علق يمينه بشرط أن يعطى خبزاً يرضيه . و حضر سنقر المشطوب و حلف و اشترط أن يُرْضَى وحضر أيبك الأفطس رحمه الله و اشترط رضاه . و حضر حسامُ الدين بشارة وحلف و كان مقدَّماً على هؤلاء . و لم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، و لم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير . و نسخةُ اليمين المحلوف بها مضمونُها : إني من وقتي هذا صفّيت نيتي ، و أخلصت طويتي ، للملك الناصر مدة حياته ، و إنّي لا أزال باذلاً جهدي في الذّبّ عن دولته بنفسي و مالي ، و سيفي و رجالي ، ممتثلاً أمره واقفاً عند مَراضيه . ثم مِنْ بعده لولده الأفضل عليّ ووريثه ، ووالله إنني في طاعته و أذبّ عن دولته و بلاده بنفسي و مالي و سيفي و رجالي ، وأمتثل أمره و نهيه ، و باطني و ظاهري في ذلك سواء . والله على ما أقول وكيل .

﴿ذكر وفاته رحمه الله و قدس روحه﴾

و لما كانت ليلةُ الأربعاء السابع و العشرين من صفر و هي الثانيةَ عشرةَ من مرضه اشتدّ مرضه ، وضعُفتْ قوته ووقع من الأمر في أوّله ، و حال بيننا و بينه النساء ، و استُحضرت أنا و القاضي الفاضل تلك الليلةَ و ابن الزكيّ[1]، و لم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، و حضر بيننا الملك الأفضل ، و أمر أنْ نبيت عنده ، فلم ير

(١)محيي الدين بن الزكي : قاضي مدينة دمشق آنئذ .

القاضي الفاضل ذلك رأياً فإنّ الناس بعضهم بعضاً[١]، فرأى المصلحـــة في نزولنا و استحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة و هو رجل صالح، ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتُضر رحمه الله بالليل حضَرَ عنـــده ، وحـــال بينه و بين النساء ،و ذكّره الشهادة و ذكّره الله تعالى ، ففعل ذلك ونزلْنا، و كلٌّ منا يودّ فداءه بنفسه ، و بات في تلك الليلة على حال المنتقليـــن[٢] إلى الله تعالى ، و الشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكّره الله تعـــالى ، و كان ذهنُه غائباً من ليلة التاسع لا يكادُ يُفيق إلا فـــي أحيـــان. و ذكـــر الشيخ أبو جعفر أنه لمّا انتهى إلى قوله تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة)[٣] ســـمعه وهو يقول رحمة الله عليه: صحيـــح . وهذه يقظةٌ في وقت الحاجة و عناية الله تعالى به . فلله الحمد على ذلـك.

و كانت وفاتُه بعد صلاة الصبـــح مـــن يـــوم الأربعـــاء الســـابع والعشرين من صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة ، و بـــادر القـــاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ووصلْتُ و قد مات ، وانتقـــل إلى رضوان الله و محلّ كرمه و جزيل ثوابه . و لقد حُكي لي أنه لمّـــا بلغ الشيخُ أبو جعفر إلي قوله تعالى : (لا إله إلا هو عليـــه توكلْـــتُ)[٤] تبسمّ و تهلّل وجهه ، و سلّمَها إلى ربه . وكان يوماً لم يصـــب الإســـلام والمسلمون بمثلـــه مـــنذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، و غَشِيَ القلعةَ و البلدَ

---

(١)كذا ، و لعلها : فإن الناس كان يعقب بعضهم بعضاً (أو نحوها) .

(٢)كان السلطان صلاح الدين في ليلة الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ في حالة احتضار . رحمـــه الله تعالى .

(٣)سورة الحشر ، الآية ٢٢ .

(٤)جزء من الآية ١٢٩ من التوبة ، و من الآية ٣٠ من الرعد .

والدنيا من الوحشة مالا يعلمُه إلا الله تعالى . وبالله لقد كنتُ أسمعُ من بعض الناس أنّهم يتمنّون فداءه بنفوسهم ، و ما سمعتُ هذا الحديث إلا على ضَرْب من التجوّز و الترخّص إلاّ في ذلك اليوم فإني علمْتُ من نفسي و من غَيْري أنّه لو قُبِلَ الفداءُ لفُديَ بالنفس .

ثم جَلَسَ ولدُه الملكُ الأفضلُ للعزاء في الإيوان الشِّمالي ، و حُفِظَ بابُ القلعة إلاّ عن الخواص و الأمراء و المعمَّمين ، و كان يوماً عظيماً، و قد شَغَلَ كلَّ إنسان ما عنده من الحزن و الأسف و البكاء و الاستغاثة من أن ينظر إلى غيره ، و حفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلّم فيه فاضل وواعظ . و كان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس ، فتكاد النفوس تَزْهق لهول منظرهم ، ودام الحال على هذا إلى ما بعدَ صلاة الظهر . ثم اشتُغل بتغسيله و تكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلاّ بالقرض ، حتى في ثمن التِّبْن الذي يُلَتّ به الطين ، و غسله الدولعي الفقيه[1] و نهضت إلى الوقوف على غسله ، و لم تكنْ لي قوّةٌ تحمل ذلك المنظر ، و أُخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجَّى بثوب فوط . و كان ذلك ، و جميعُ ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حِلّ عرفه . و ارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، و عظُمَ من الضجيج و العويل ما شغلهم عن الصلاة . فصلّى عليه الناس أرسالاً ، وكان أوّل مَنْ أمَّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان ، و كان متمرّضاً بها و دفن في الصُّفّة الغربية منها . و كان نزوله في حفرته قدَّسَ اللهُ روحَه و نوَّرَ

(١)كان خطيب دمشق [المختصر في أخبار البشر ٣/٨٦] .

ضريحَه قريباً من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولـــده الملـــك الظافر ، و عزّى الناس فيه و سكن قلوب الناس ، و كـــان النـــاس قـــد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب و الفساد ، فما وُجِد قلب إلا حزينا و لا عينٌ إلا باكيةً إلا مَنْ شاء الله . ثم رجع الناسُ إلى بيوتهم أقبحَ رجـــوع ، ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة إلاّ نحن حضرْنا و قرأنا و جدّدْنا حـــــالاً من الحزن .

و اشتغل في ذلك اليوم الملكُ الأفضل بكتابة الكتُـــب إلـــى عمّـــه وإخوته يخبرهم بهذا الحادث . و في اليوم الثاني جلس للعـــزاء جلوســـاً عامّاً ، و أطلق باب القلعة للفقهاء و العلماء ، و تكلّم المتكلّمـــون و لـــم ينشدْ شاعر ، ثم انفضَّ المجلس في ظهر ذلك اليوم ، و استمرَّ الحال في حضور الناس بكرة و عشية ، و قراءةِ القرآن و الدعاء لـــه رحمـــة الله عليه ، و اشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره و مـــراسلة إخوته و عمّه

ثم انقضت تلك السنونَ و أهلـُـها فكـــأنّـــها و كـــأنّهم أحـــلامُ[1]

تم بعون الله ، و الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيّدنا محمّد و آله و صحبه أجمعين ، و سلام على المرسلين ، و الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١)" قال العماد (الكاتب) و غيره : لم يترك (السلطان صلاح الدين) في خزانته مـــن الذهـــب سوى جُرْم واحد ــ أي دينار واحد ــ صوري ، و ستة و ثلاثين درهماً ، و لم يـــترك داراً و لا عقاراً و لا مزرعة ، و لا بستاناً ، و لا شيئاً من أنواع الأملاك " [البداية و النهاية ١٣/٤] .

و ختاماً فما أشبه هذه السيرةَ الصلاحيّة بيوميّـــاتٍ مفصّلـــةٍ أو وثـــائق تاريخيّة بقلم أحد رجال صلاح الدين ، و ملازميه و مستشاريه ، و أهـل ثقته ، و هي يوميات ووثائق لا بدّ لكلّ من يريد أنْ يطّلع على حياة هــذا القائد المسلم الفذّ من أن يرجع إليها . و صلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله و صحبه و أتباعه . و الحمد لله ربّ العالمين .

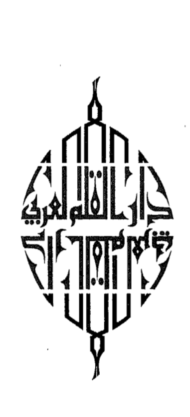
الاثنين ٢٦ رمضان ١٤٢٠هـ

٣ / ١ / ٢٠٠٠م .

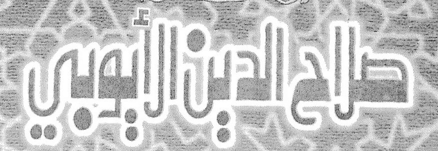
محمّد حسني مصطفى

المحتــــــوى

تم انجاز هذا الكتاب بعونه تعالى


دار القلم العربي


دار القلم العربي



هــــذا الكـــتاب

ســيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة (النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية) لمؤلّفه القاضي بهاء الدين بن شداد، وهو أقرب الى السيرة الذاتية و المذكرات اليومية لحياة هذا القاضي مع المجاهد الصالح بطل حطين الذي وقف في وجه الفرنجة صامداً لايــهادن ، و لا يكف عن الجــهاد في كل الأحــوال ، في وقت ركن فيه الآخــرون إلى الدنــيا . و دار القلم العربي تقدم هذا الكتاب للقراء ، لينهلوا من معين هذا البطل الخالد وليقتدوا بسيرته.

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم أقتده)

الناشــر

دار القلم العربي